الرسول والعلم
دكتور يوسف القرضاوي
صلى الله عليه وسلم
محمد
من سلك طريقا
يلتمس فيه علما
سهل الله له طريقا
إلى الجنة
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية . عابدين
القاهرة - تليفون ٣٩١٧٤٧٠

الرسول ﷺ والعلم

الطبعة السابعة

١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م

الطبعة الأولى لمكتبة وهبه

مطبعة المدني المؤسسة السعودية بمصر
[illegible]

دكتور يوسف القرضاوي



طبعة مزيدة ومنقحة

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية . عابدين
القاهرة - تليفون ٣٩١٧٤٧٠

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله ، والصلاة والسلام على معلم الناس الخير ، محمد رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه .

أما بعد فلم تعرف البشرية دينًا مثل الإسلام عُنى بالعلم أبلغ العناية وأتمها : دعوة إليه ، وترغيبًا فيه ، وتعظيمًا لقدره ، وتنويها بأهله ، وحثًا على طلبه وتعلمه وتعليمه ، وبيانًا لآدابه ، وتوضيحًا لآثاره ، وترهيبًا من القعود عنه ، أو الأزورار عن أصحابه ، أو المخالفة لهدايته ، أو الازدراء بأهله .

بين القرآن والكتب المقدسة :

ومن درس الأديان السابقة على الإسلام ،أو قرأ كتبها المقدسة ، ازداد إيمانًا بعظمة الإسلام فى هذا الجانب .

إنك تقرأ « الأسفار المقدسة » فى العهد القديم أو الجديد ، فلا تكاد تقع عينك على هذه الكلمات « العقل » أو « الفكر » أو « النظر » أو « البرهان » أو « العلم » أو « الحكمة »أو ما اشتق منها ؛ أو تفرع عنها ، أو كان له قرابة بها .

فإذا قرأت القرآن وجدت فيه – كما يذكر « المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم » – ما يلى :

كلمة « عِلْم » نكرة ومَعرفة ذكرت (٨٠) ثمانين مرة ، أما مشتقاتها : علم ويعلم ويعلمون وعلم ، ويعلم وعليم وعلام ... الخ . فقد ذكرت مئات ومئات من المرات .

كلمة « عقل » لم ترد اسمًا أو مصدراً فى القرآن ، وورد بديلا عنها كلمة « الألباب » وتكررت (١٦ مرة) ست عشرة مرة ، وكلمة « النُّهىَ » بمعنى العقول أيضًا مرتين.

أمـا مشتقـات «عقـل» فقـد تكـررت فـى القرآن (٤٩) تسعًا وأربعـين مـرة.

وكذلك مشتقات «فكر» (١٨) ثمانى عشرة مرة .

ومشتقات «فقه» (٢١) إحدى وعشرين مرة .

وكلمة «حكمة» (٢٠) عشرين مرة .

وكلمة «برهان» مضافة وغير مضافة (٧) سبع مرات .

وهذا عدا كلمات أخرى لها صلة بالعلم والفكر مثل: «انظروا» و«ينظروا» وكلمـة (حجـة) و(سلطان) ويقصد به سلطان العلم والبينة ، وكلمـة (يقين) وكلمة (هدى) ومشتقاتها ، وكلمة (بينة) و (بينات) وكلمات أخرى ذكرت في معرض الذم ، مثل (الظن) و(الهوى) وغيرها . مما يؤكد عناية القرآن البالغة بالجانب العقلى والمعرفى ، ويبنيه على أرسخ الأسس والدعائم [١] .

العلم فى كتب الحديث :

وإذا طالعت كتب الحديث النبوى ، وجدت فى جميع الكتب المصنفة حسب الموضوعات والأبواب – أو بتعبير ذلك العصر : الكتب – كتابًا حافلاً موضوعه « العلم» .

ففى « الجامع الصحيح» للإمام محمد بن إسماعيل البخارى (ت ٢٥٦ هـ) نجد – بعد أحاديث بدء الوحى ، وكتاب الإيمان – كتاب العلم ، وقد اشتمل كما يقول الحافظ ابنُ حجر فى «الفتح» من الأحاديث المرفوعة على مئة حديث وحديثين ، منها ستة عشر حديثًا مكرراً ، وفيه من الآثار الموقوفة على الصحابة ومَنْ بعدَهم : اثنان وعشرون أثرًا .

وفى صحيح مسلم وباقى الأصول السبعة (الموطأ وسنن الترمذى وأبي داود والنسائى وابن ماجه) كتاب أو أبواب للعلم ، تقصر أو تطول .

---

(١) قد أصدرنا فى ذلك كتابًا مستقلاً ، بعنوان (العقل والعلم فى القرآن) نشرته مكتبة وهبه .

وحسبنا أن نذكر هنا أن كتاباً مثل «الفتح الربانى» فى ترتيب مسند الإمام أحمد (ت ٢٤١ هـ) قد ضم فى كتاب العلم (٨١) واحداً وثمانين حديثاً .

وأن كتاب العلم من صحيح ابن حبان (ت ٣٥٤ هـ) حسب ترتيب الاحسان قد بلغ ٦٧ حديثاً .

وأن كتاب «العلم» فى «مجمع الزوائد» للحافظ نور الدين الهيثمى (ت ٨٠٧ هـ) قد بلغ ٨٤ صفحة فى كل صفحة عدد من الأحاديث .

وفى «المستدرك» للحاكم النيسابورى (ت ٤٠٤ هـ) بلغت أحاديث العلم ٤٤ صفحة .

وأن كتاب «الترغيب والترهيب» للحافظ المنذرى (ت ٦٥٦ هـ) جمع فى كتاب العلم ١٤٠ حديثاً .

وإن كتاب العلم من «جمع الفوائد من جامع الأصول ومجمع الزوائد» للعلامة ابن محمد بن سليمان قد ضم ١٥٤ حديثاً .

ولا يخفى أن قدراً كبيراً من الأحاديث فى كل كتاب من هذه مكرر مع أحاديث الكتب الأخرى .

ولكن ليس معنى هذا أن هذا العدد من الأحاديث فى هذا الكتاب أو ذاك هو كل ما يتعلق بالعلم .

فالواقع أن هناك عشرات ومئات أخرى من الأحاديث لها صلة بالعلم ، ولكنها وضعت فى مظان أخرى من أبواب الكتاب ، حيث يظهر للحديث الواحد أكثر من دلالة ، ويستفاد منه أكثر من حكم .

فالحديث الذى استفدنا منه اهتمام الرسول بالإحصاء الكتابى لعدد الرجال من المسلمين هو فى صحيحى البخارى ومسلم ولم يذكر فى كتاب العلم.

والحديث الذى دل على إقرار التجربة ونتائجها فى شؤون الحياة الدنيا ،

ووكل للناس أمر دنياهم ، هو فى صحيح مسلم وغيره ، ولكن لم يوضع فى كتاب العلم .

والحديث الذى دل على محاربة الرسول للأمية بتعليم أبناء المسلمين الكتابة عن طريق الأسرى ، لم يذكره من ذكره فى أبواب العلم .

والأحاديث التى أعلنت الحرب على الخرافة والسحر والشعوذة والكهانة والتمائم والرقي لم تذكر فى كتاب العلم .

والأحاديث التى عنيت بما يتعلق بالطب والتداوى ، ونحوها لم تذكر فى كتاب العلم بل فى كتاب الطب أو التداوى .

وهكذا نجد كثيراً مما يتصل بالعلم متناثراً فى أبواب كتب الحديث تحت عناوين شتى ... وما على البحاث البصير المطلع إلا أن يلتقطها من مظانها القريبة والبعيدة ، ويجمع شتاتها ، ويصنفها التصنيف الذى يوضح فكرته ، ويحقق هدفه .

وهذا هو عملنا فى هذا البحث « الرسول وموقفه من العلم » : أن نجمع الأحاديث المقبولة المتناثرة من مختلف المصادر ، وبخاصة الأصلية منها ، ودراستها دراسة علمية موضوعية ، لبيان موقف الرسول ﷺ فى السنة والسيرة من « العلم » بمفهومه العام ، أو بمفهومه الحديث .

عمدتنا الأحاديث الصحاح والحسان :

وإنما قلت « الأحاديث المقبولة »، لأن الأحاديث الموضوعة، والتى لا أصل لها، والضعيفة جداً، لا يجوز الاستشهاد بها عند أحد من العلماء، ولو كان ذلك فى فضائل الأعمال.

أما الأحاديث الضعيفة فقط، فقد أجاز جمهور العلماء الاستفادة منها في فضائل الأعمال، أى فى الأمور التى لا يترتب عليها حكم، ولا يُؤخذ منها حلال ولا حرام.

ولهذا نرى الحافظ الفقيه ابن عبد البر (ت ٤٦٣ هـ) فى كتابه « جامع بيان العلم وفضله » يذكر كثيراً من الأحاديث الضعيفة ثم يعقب عليها بمثل قوله :

«والفضائل تروى عن كل أحد، والحجة من جهة الإسناد إنما تتقصَّى فى الأحكام، وفى الحلال وفى الحرام».

وهذه الفكرة جعلت الأحاديث الضعيفة تزحف على الأحاديث الصحاح والحسان وتطغى عليها، هذا مع عدم الحاجة إليها، لأن فى الأحاديث المقبولة من الصحاح والحسان ما يغنى عنها.

ولم يتقيد الأكثرون بما اشترطه أئمة المحدثين عند الاستشهاد بالحديث الضعيف. وهو: ألا يكون ضعيفا جداً، وأن يندرج تحت أصل كلى ثابت، وألا يعتقد ثبوته بل الاحتياط.

على أننا حين نريد أن نجلى موقف الإسلام، أو موقف الرسول من أمر من الأمور، فلا بد أن نعتمد على الصحيح والحسن، لأن الضعيف لا يتبين منه موقف، كما لا يُبنى عليه حكم.

عملنا التمحيص والاستنباط:

ولهذا كان عملنا فى هذا البحث مزدوجاً، وهو تمحيص ما يستشهد به من الأحاديث وبيان درجتها بإيجاز واختصار، ثم يأتى استنباط الحكم أو المعنى المراد منها.

فالواجب أولاً إثبات النص وتوثيقه، ثم استخراج الدلالة منه.

ومن الباحثين من يحسب أنه يكفيه فى التوثيق العلمى أن يسند الحديث أو النص المنقول إلى كتاب معروف، مبيناً الجزء والصفحة والطبعة، معتبراً أن ذلك هو غاية التوثيق، ونهاية التحقيق والتدقيق، كما يفعل الكثيرون ممن ينقلون عن كتب التفسير، أو التصوف، أو الفقه، أو حتى كتب الحديث التى لم يلتزم مخرجوها الصحة فيما يروونه منها، فلا يكفى هنا لقبول الحديث مجرد نقله من كتاب، وصحة نسبته إليه.

ومثل هذا يقع فيه الذين يكتبون التاريخ، ومبلغ التحقيق عندهم نسبة ما

ينقلونَ إلى الطبرى أو ابن الأثير أو غيرهما، - مع أن فى هذه الكتب المقبول والمردود، والغث والسمين.

انتشار الأحاديث الواهية:

ولقد لاحظت انتشار عدد كبير من الأحاديث الواهية عند كثير من المتحدثين عن العلم أو الكاتبين فيه، وذلك لاعتماد الكثيرين منهم على النقل من الكتب التى تذكر فى كل موضوع - ما تجده من حديث دون اشتراط صحته، ولا بيان درجته.

وأظهر مثال لذلك هو «إحياء علوم الدين» للإمام أبى حامد الغزالى (ت ٥٠٥ هـ) الذى يرجع إليه الكثيرون من الوعاظ والكتاب، فقد ذكر فى فضيلة «العلم» و«التعلم» و «التعليم» نحو (٥٥) خمسة وخمسين حديثًا (١٣) ثلاثة عشر منها صحيح أو حسن، والباقى ضعيف، رغم اشتهاره جداً على الألسنة والأقلام.

وأحمد الله أنى لم أحتج فى هذا البحث إلى الضعيف المردود، فقد أغنانى الله بالصحيح والحسن، وهو موفور غير قليل، وإذا ذكرت حديثًا على غير هذا الشرط، فذلك فى الغالب لمجرد الاستئناس، ومع بيان درجته، فليس هو العمدة.

وإنما اقتصرت على بيان موقف السنة النبوية من العلم، لأن بيان موقف القرآن الكريم من العلم يحتاج إلى بحث آخر، لعلى أوفق فى إخراجه فى سلسلة «التفسير الموضوعى للقرآن» [١] فعسى أن يجد القارئ الكريم ما قصدت إليه واضحًا فى هذه الصحائف، ويرى فيها نهج الإسلام، وهدى الرسول الكريم بينًا واضح المعالم.

هذا وقد قسمت البحث إلى خمسة أقسام:

الأول: فى بيان منزلة العلم والعلماء.

---

(١) قد صدر والحمد لله ،كما أشرنا سابقا.

الثاني: موقف الرسول من العلم التجريبي.

الثالث: في أخلاقيات العلم.

الرابع: في التعلم وآدابه.

الخامس: في التعليم ومبادئه وقيمه.

فلنشرع في بيانها - وعلى الله قصد السبيل، ومنه العون، وبه التوفيق.

يوسف القرضاوي

مَنزلة العِلم والعُلمَاء في ضَوءِ السُّنَّة

تكاثرت أحاديث النبى ﷺ ... وتتابعت – بعد آيات القرآن الكريم – فى بيان فضل العلم ومنزلة العلماء عند الله وعند الناس، فى الدنيا والآخرة، ورفعت العلماء مكانًا عليًا، لا يسعى إليه على قدم، ولا يُطار له على جناح إلا بوساطة العلم.

ولا ريب أن أولى العلوم بذلك هو علم الدين، الذى به يعرف الإنسان نفسه ويعرف ربه، ويهتدى إلى غايته، ويكتشف طريقه، ويعلم ماله وما عليه، ثم بعد ذلك كل علم يكشف عن حقيقة تهدى الناس إلى حق، أو تقربهم من خير، أو تحقق لهم مصلحة، أو تدرأ عنهم مفسدة.

يقول ﷺ: «من يُرد الله به خيرًا، يُفقهه فى الدين [1]».

ويقول: «مَنْ سلك طريقًا يلتمسُ فيه علمًا، سهل الله به طريقًا إلى الجنة، وما اجتمع قومٌ فى بيت من بيوت الله، يتلون كتابَ الله ويتدارسونه بينهم إلا حفتهم الملائكةُ، ونزلت عليهم السكينةُ، وغشيتهم الرحمةُ، وذكرهم الله فيمن عنده [2]».

ويقول: «إن الملائكة لتضع أجنحتَها لطالب العلم رضا بما يصنع، وإن العالم ليستغفرُ له مَنْ فى السماوات ومَنْ فى الأرض، حتى الحيتانُ فى الماء، وفضلُ العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثةُ

---

(١) متفق عليه عن معاوية. كما فى اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان برقم (٦١٥).

(٢) رواه مسلم عن أبى هريرة فى كتاب الذكر والدعاء برقم (٢٦٩٩).

الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهما، إنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر [1]».

فهذه الأحاديث تدل على فضل العلم، وبخاصة العلم بالدين، أو على حد تعبير الحديث: الفقه في الدين. والواقع أن الفقه في الدين أخص وأعمق من مجرد العلم بالدين، فالعلم معرفة بالظاهر فحسب، والفقه معرفة بالظاهر واللب معاً، والعلم يتصل أكثر ما يتصل بالعقل وحده، والفقه بالعقل والقلب جميعاً.

ولهذا فإن مجرد العلم بالأحكام الشرعية الجزئية كأحكام الطهارة والنجاسة والرضاع والطلاق والبيع والشراء كما هو مدلول الفقه في إصطلاح الخلف، لا ينشئ الفقه المراد في الحديث، والذى هو دليل على إرادة الله الخير بصاحبه.

وحسب هذا العلم فضلاً أن مجالسه تحفها ملائكة الله، وتنزل عليها السكينةُ، وتغشاها الرحمة، ويذكرها الله فى الملأ الأعلى.

وهذه الملائكة التى تحف مجالس العلم تضع أجنحتها لطالبيه، فالوضع تواضع وتوقير وتبجيل ... والحف حفظ وحماية وصيانة.

فتضمن الحديثان تعظيم الملائكة له، وحبها إياه، وحمايتها له، وكفى بهذا شرفًا وفضلاً.

هذه الأحاديث ومثلها كثير وكثير بجوار ما جاء فى القرآن من آيات غزيرة وفيرة، جعلت أصحاب رسول الله - ﷺ - ومَنْ تبعهم بإحسان على مر

---

(١) رواه عن أبى الدرداء: أحمد (٥/١٩٦) وأبو داود فى العلم (٣٦٤١) والترمذى فى العلم (٢٨٦٣) وابن حبان فى صحيحه كما فى الإحسان (٨٨) وحسنه حمزة الكنانى، وضعفه غيرهم بالاضطراب فى سنده لكن له شواهد يتقوى بها ذكره الحافظ فى الفتح ١/١٦٩ طبعة الحلبى، ونقل الشيخ البنا فى «الفتح الربانى» ١/١٥٠ عن صاحب «التنقيح» أن رجال أحمد رجال الحسن، كما حسن إسناد الحاكم، ونسبه أيضا إلى النسائى وأبى يعلى والطبرانى فى الكبير، قال: وصحح البخارى بعض طرقه. ا.هـ. وصححه الألبانى، انظر: صحيح الجامع الصغير (٦٢٩٧).

القرون، يشيدون بشأن العلم، وينوهون بقدر العلماء، تحريضًا على طلب العلم والزيادة منه، وتحذيراً من الجهل وما يجره على أهله من شؤم فى الدنيا والآخرة.

يقول عمر: أيها الناسُ، عليكم بطلب العلم، فإن لله رداء محبة، فمن طلب بابًا من العلم، ردّاه الله بردائه ذاك [١].

وسأل رجل ابن عباس عن الجهاد فقال له: ألا أدلُّك على ما هو خير لك من الجهاد؟ تبنى مسجداً تعلم فيه القرآن، وسُنن النبى ﷺ، والفقه فى الدين [٢].

وقال ابن مسعود: نعم المجلس مجلس تُنشر فيه الحكمة، وتُنشر فيه الرحمة[٣]. يعنى مجلس العلم.

وقال معاذ بن جبل: تعلموا العلم، فإن تعلمه لله خشيةً، وطلَبه عبادة، ومدارسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه مَنْ لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة، وهو الأنيس فى الوحدة، والصاحبُ فى الخلوة، والدليل على الدين، والنصير على السراء والضراء، والوزير عند الأخلاء، والقريب، عند القرباء، ومنار سبيل الجنة، يرفعُ الله به أقوامًا، فيجعلهم فى الخير قادة سادة هداة يقتدى بهم أدلة فى الخير تقتفى آثارهم، وترمق أفعالهم، وترغب الملائكة فى خلتهم وبأجنحتها تمسحهم، وكل رطب ويابس يستغفر لهم، حتى حيتانُ البحر وهوامه، وسباعُ البر وأنعامه، والسماءُ ونجومها ... إلى أن قال: -

به يُطاع الله، وبه يُعبد، وبه يُوحد، وبه يُمجد، وبه يتورع، وبه توصل الأرحام، وبه يعرف الحلال والحرام، وهو إمام والعمل تابعُه، ويلهمه السعداء ويحرمه الأشقياء [٤].

---

(١) «جامع بيان العلم» لابن عبد البر ١ / ٧٠. (٢) نفسه ٧٣، ٧٤.

(٣) نفسه: ٦٠.

(٤) رواه ابن عبد البر، وأبو نعيم، والخطيب موقوفًا على معاذ، ورفعه بعضهم. ولا يصح. قال ابن القيم فى مفتاح دار السعادة: وحسبه أن يصل إلى معاذ.

وقال الحسن: لولا العلماءُ، لصار الناس مثل البهائم، أى أنهم بالعلم يخرجون الناس من حد البهيمية إلى حد الإنسانية.

وقال يحيى بن معاذ: العلماء أرحم بأمة محمد - ﷺ - من آبائهم وأمهاتهم، قيل: وكيف ذلك؟ قال: لأن آباءهم وأمهاتهم يحفظونهم من نار الدنيا، وهم يحفظونهم من نار الآخرة.

وسئل ابنُ المبارك: من الناسُ؟ فقال: العلماء. قيل: فمن الملوك؟ قال: الزهاد.

قال الغزالى: ولم يجعل غير العالم من الناس، لأن الخاصية التى يتميز بها الناس عن سائر البهائم هى العلم، فالإنسان إنسان بما هو شريف لأجله، وليس ذلك بقوة شخصه (جسمه) فإن الجمل أقوى منه، ولا بعظمه، فإن الفيل أعظم منه، ولا بشجاعته، فإن السبع أشجع منه، ولا بأكله، فإن الثور أوسع بطنًا منه، ولا ليجامع، فإن أخس العصافير أقوى على السفاد منه، بل لم يُخلق إلا للعلم [1].

وقال الإمام أحمد بن حنبل: حاجة الإنسان إلى العلم أكثر من حاجته إلى الطعام والشراب.

العلم دليل الإيمان:

والعلم فى نظر الإسلام ليس مقابلا للإيمان، فضلاً عن أن يكون معاديا له كما شاعت هذه الفكرة فى أوربا فى القرون الوسطى، حين وقفت الكنيسة فى تلك العصور تؤيد الخرافة، وتحارب العلم، وتناصر الجمود والتقليد، وتقاوم التفكير الحر والابتكار المبدع، وتدافع عن القوى المتسلطة من حكام وإقطاعيين، وتقف فى وجه الشعوب والفئات المسحوقة.

الإسلام لم يعرف هذا الصراع بين العلم والإيمان فى تاريخه، لأن هذه الفكرة لا مجال لها فى تعاليمه، لا نصًا ولا روحًا.

---

(١) الإحياء ج ١/ ٧.

أما النصرانية، فتقوم أساساً على أن الإيمان قضية لا علاقة لها بالفكر، بل هي ضده، فهي لا تدخل في دائرة العقل والعلم، بل في نطاق الوجدان والقلب، وليس من شرط العقائد أن تكون مقبولة عقلاً، بل يحسن بها أن تكون شيئا فوق العقل، ولهذا كان من الشعارات المرفوعة عند النصارى «آمن ثم اعلم». أو «اعتقد وأنت أعمى»!

وآخر يقول على لسان القسيس: «أغمض عينيك ثم اتبعني»!

وذلك لأن العقيدة النصرانية مؤسسة على قضايا يرفضها العقل المجرد، مثل التثليث والتخليص والفداء، وما يتفرع عنها، وما يلحق بها، حتى قال بعض فلاسفة النصارى في بعض معتقداتهم «اللامعقولة» وهو القديس (أوجستين): أؤمن بهذا، لأنه محال!

وهذا على عكس الإسلام الذي يرفض في بناء العقيدة «التقليد» و«التبعية» كقول من قالوا: ﴿حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [المائدة: ١٠٤] أو ﴿إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاْ﴾ [الأحزاب: ٦٧] أو «أنا مع الناس»[1].

ويرفض أيضا الظن، حيث لا يغني في شأن العقائد إلا العلم واليقين. ولهذا أنكر على النصارى عقيدتهم في الصلب بقوله: ﴿مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾ [النساء: ١٥٧].

وقال في شأن المشركين وآلهتهم المزعومة: اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى: ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ﴾ [النجم: ٢٣]. ثم قال: ﴿وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [النجم: ٢٨]

---

(١) كما في الحديث الذي رواه الترمذي: «لا يكن أحدكم إمعة: يقول: أنا مع الناس إن أحسنوا أحسنت، وإن أساءوا أسأت». رواه في البر والصلة (٢٠٠٨) وقال: حسن غريب.

ويأبى القرآن إلا أن تبنى العقائد على أساس البرهان القائم على النظر العميق، والتفكير الهادئ، ولأجل هذا صاح القرآن فى أصحاب العقائد الباطلة: ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة: ١١١].

ولا عجب أن تكررت فى القرآن هذه العبارات الموقظة للفكر من غفلته، والمحررة للإنسان من ربقة تقليده وجموده، مثل (أفلا تعقلون). (أفلا تتفكرون)، (أفلا ينظرون). (أو لم ينظروا). (أو لم يتفكروا). (لقوم يعقلون). (لقوم يعلمون). (لقوم يتفكرون).

وحسبك أن تقرأ هذه الدعوة القوية الصريحة إلى التفكير: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ﴾ [سبأ: ٤٦].

وهذا ما دعا الأستاذ عباس العقاد - رحمه الله - أن يخرج كتابًا عنوانه: «التفكير فريضة إسلامية» وهذا تعبير صحيح، فالإسلام كما فرض على الناس أن يتعبدوا، فرض عليهم أن يتفكروا.

فالعقيدة فى الإسلام تقوم على العلم لا على التسليم الأعمى، يقول القرآن: ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [١٩ / القتال] ﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة: ٩٨] ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

لم يخش القرآن عواقب الدعوة إلى النظر والتفكر والعلم أن تأتى بنتائج تناقض حقائق الدين ومسلماته، لأن فكرة الإسلام: أن الحقيقة الدينية لا يمكن أن تناقض الحقيقة العقلية، فالحق لا يناقض الحق، واليقين لا يعارض اليقين، إنما يعارض اليقين الظن، وتنافى الحقيقة الشك أو الوهم أو الافتراض.

ومن هنا لا يمكن بحال مناقضة صحيح المنقول لصريح المعقول، وإذا بدا لنا فى بعض الأحيان تناقض ظاهرى، فلا بد أن يكون المنقول غير صحيح، أو المعقول غير صريح.

وهذا يقع كثيراً: أن يظن ما ليس من الدين دينًا، وأن يحسب ما ليس من العلم علمًا.

فليست كل أفهام أهل الدين دينًا، كما أنه ليست كل نظريات أهل العلم علمًا.

إن القرآن يعتبر العلم الحق داعية إلى الإيمان، ودليلا إليه.

قال تعالى: ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الحج: ٥٤].

فهذه المعانى الثلاثة مترتب بعضها على بعض: كما يدل عليه العطف بحرف (الفاء) التى تفيد الترتيب والتعقيب بلا صلة.

فالعلم يتبعه الإيمان تبعية ترتيب بلا إمهال ليعلموا فيؤمنوا.

والإيمان تتبعه حركة القلوب من الإخبات والخشوع لله تعالى، وهكذا يثمر العلم الإيمان، ويثمر الإيمان الاخبات والتواضع لله رب العالمين.

وفى آية أخرى يذكر العلم والإيمان متعاطفين جنبًا إلى جنب كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ ﴾ [الروم: ٥٦].

فالعلم والإيمان فى الآية الكريمة مقترنان متعاطفان، وليسا من الأضداد التى إذا ثبت أحدهما، انتفى الآخر.

وإذا أردنا بالعلم: العلم بمفهومه الشائع اليوم، وهو المادى القائم على المشاهدة الحسية والتجربة – فلا ننكر أيضا قيمة هذا العلم، وحاجة الناس إليه لأن العلم المادى مطلوب للإنسان ولا شك، ولكنه مطلوب طلب الوسائل لا طلب الغايات.

وهو يعين الإنسان على الحياة، وييسر له سبلها، ويختصر له الزمان، ويطوى له المكان: فيقرب البعيد، ويلين الحديد، ولكنه وحده لا يستطيع إسعاد البشر، كما لا يمكنه وحده أن يضبط سير البشر، ويقاوم أنانية الإنسان ونزعات نفسه الأمارة بالسوء.

ولهذا كان الإنسان فى حاجة ماسة إلى «العلم الدينى» الذى ينمى الإيمان

ويحيى الضمائر، ويغرس الفضائل، ويقى الإنسان شُحَّ نفسه، وطغيان غرائزه على عقله، وهواه على ضميره، وهذا هو الذى يعصم «العلم المادى» من الانحراف، ويحول دون استخدامه في التدمير والعدوان.

وقد ضرب لنا القرآن مثلاً بسليمان عليه السلام - الذى آتاه الله ملكا لم يُؤته أحداً من بعده.

فقد أحضر إليه عرش بلقيس من سبأ باليمن إلى مقره بالشام، قبل أن يرتد إليه طرفُه، بفضل ذلك الذى وصفه القرآن بأنه (عنده علم الكتاب) وهنا تجلى الإيمان حين أرجع سليمان الفضل إلى الله لا إلى نفسه، فلم يركبه الغرور، أو يستبد به الطغيان: ﴿ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ [النمل: ٤٠].

وكذلك كان موقف ذى القرنين الذى فتح الفتوح غرباً وشرقا، وتوج حكمه بإقامة سده العظيم، مستخدماً ما يَسَّرَهُ له علمُ عصره من وسائل وأدوات، فلما أتم البناء قال فى تواضع المؤمنين: ﴿ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾ [الكهف: ٩٨].

ألا إن العلم الحق هو الذى يهدى إلى الإيمان، والإيمان الحق هو الذى يفسح مجالاً للعلم، فهما إذن شريكان متفاهمان، بل أخوان متعاونان.

وهذا هو العلم الذى يريده الإسلام أيًا كان موضوعه، ومجال بحثه. يريده علمًا فى ظل الإيمان، وفى خدمة مثله العليا، وإلى ذلك أشار القرآن حين قال فى أول آية نزلت: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ [العلق: ١] والقراءة عنوان العلم ومفتاحه ومصباحه، فإذا كان أول أمر إلهى نزل به القرآن: «القراءة» كان ذلك أوضح دليل على مكانة العلم فى الإسلام.

ولكن القرآن لم يطلب «مطلق قراءة» وإنما طلب قراءة مقيدة بقيد خاص وهو أن تكون «باسم الله»، أوكما قال القرآن ﴿ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾.

وإذا كانت القراءة باسم الله ، فقد وجهت إلى الحق والخير والهداية، لأن الله تعالى هو مصدر هذا كله.

ولا غرو أن نشأ العلم فى الإسلام فى أحضان الدين، وأن نشأت المدارس فى صحون المساجد، وبدأت الجامعات الإسلامية العريقة تحت سقوف الجوامع، بل سمى كل منها جامعًا: جامع الأزهر، جامع القرويين، جامع الزيتونة ... وهكذا.

وكانت هذه الجوامع أو الجامعات تدرس علوم الدين، وعلوم الدنيا معًا، وكان كثير من العلماء التجريبيين هم فى نفس الوقت علماء دين، مثل القاضى ابن رشيد الحفيد مؤلف «بداية المجتهد ونهاية المقتصد» فى الفقه المقارن ومؤلف «الكليات» فى الطب.

ومثل الخوارزمى الذى ألف كتابه الفريد – الذى أسس به علم الجبر. ليحل به مشكلات فى الوصايا والمواريث من أبواب الفقه !.

* * *

العلم دليل العمل:

والعلم فى نظر الإسلام دليل للعمل أيضًا، كما هو دليل للإيمان.

ترجم الإمام البخارى فى جامعه الصحيح: «باب العلم قبل القول والعمل»، وقال ابن المنير: أراد به أن العلم شرط فى صحة القول والعمل، فلا يعتبران إلا به، فهو متقدم عليهما، مصحح للنية المصححة للعمل، فنبه المصنف (يعنى البخارى) على ذلك، حتى لا يسبق إلى الذهن – من قولهم: إن العلم لا ينفع إلا بالعمل – تهوين أمر العلم، والتساهل فى طلبه» [1].

واستدل البخارى لما ذكره بجملة من الآيات والأحاديث منها: قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [القتال: ١٩]

---

(١) «صحيح البخارى» بشرح فتح البارى: ج ١/١٦٩ طبعة الحلبى.

فبدأ بالعلم، وثنّى بالعمل، ورأس العلم معرفة الله تعالى وتوحيده. والخطاب وإن كان للنبى « ﷺ »، فهو متناول لأمته.

وقال جل ذكره: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

أى: إنما يخاف الله عز وجل ويقدره حق قدره، من عرفه، وعلم عظيم قدرته، وسلطانه على خلقه، نتيجة التأمل فى أسرار كونه وشرعه، وهم العلماء. وهذه الخشية هى التى تحفز على عمل الصالحات، واجتناب السيئات.

وقال النبى - ﷺ - : « من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين » [١]، وذلك لأنه إذا فقه عمل، وأحسن ما عمل. وأدنى درجات الفقيه - كما يقول الإمام الغزالى - أن يعلم أن الآخرة خير من الدنيا. وهذه المعرفة إذا صدقت وغلبت عليه برئ بها من النفاق والرياء [٢].

يؤيد ذلك ما رواه زيد بن أسلم: أن النبى ﷺ دفع رجلاً إلى رجل يعلمه فعلمه حتى بلغ (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ...) فقال الرجل: حسبى فقال الرجل، (أى: المعلم): يا رسول الله، أرأيت الرجل الذى أمرتنى أن أعلمه لما بلغ (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره) فقال: حسبى؟

فقال النبى - ﷺ -: « دعه فقد فقه » [٣].

والسياق يدل على أن المعنى: قد استنار قلبه بنور الإيمان، والخشية من الله، يدل لذلك ما رواه المطلب بن عبد الله بن حنطب: أن رسول الله - ﷺ - قرأ فى مجلس - ومعهم أعرابى جالس - « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » فقال الأعرابى: يا رسول الله، أمثقال ذرة؟ قال: « نعم » فقال

---

(١) متفق عليه عن معاوية - تقدم تخريجه. (٢) «الإحياء»: ج ١ ص ٥.

(٣) أخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن أبى حاتم كما ورد فى الدر المنثور ج ٦ / ٣٨١، ٣٨٢.

الأعرابى: واسوأتاه! ثم قام وهو يقولها، فقال رسول الله - ﷺ -: «لقد دخل قلب الأعرابى الإيمان»[1].

فكلمة النبى - ﷺ - هنا: «لقد دخل قلب الأعرابى الإيمان» فى معنى قوله في الحديث السابق: «فقد فقه».

العلم شرط لصحة العمل:

وبهذا يتبين أن العلم شرط ضرورى للعمل، لكى يصح ويستقيم على أمر الله، سواء كان هذا العمل عبادة لله، أم معاملة للناس.

روى سفيان بن عيينة عن عمر بن عبد العزيز، قال: من عمل فى غير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح[2].

وفى حديث معاذ بن جبل السابق فى فضل العلم قال: وهو إمام العمل، والعمل تابعه.

لا تصح عبادة بلا علم:

فلا تستقيم عبادة يجهل صاحبها ما يجب لها من شروط، وما تقوم عليه من أركان، وما يبطلها من أعمال.

ولهذا قال النبى - ﷺ - للرجل الذى أساء صلاته ولم يؤد لها حقها من الطمأنينة: «ارجع فصل، فإنك لم تصل»[3]. وإنما قال له: «لم تصل» مع أنه أدى الصلاة أمامه، لأن صلاة منقوصة مبتورة كلا صلاة.

لا تصح معاملة بلا علم:

وفى المعاملات وشؤون الحياة عامة: شخصية وأسرية واجتماعية، يجب أن يعرف فيها الصحيح من الفاسد، والحلال من الحرام، حتى لا يتورط فى الحرام وهو لا يدرى. والجهل بالأحكام فى دار الإسلام ليس عذراً.

---

(١) أخرجه سعيد بن منصور كما فى الدر: ج ٦/ ٣٨١.

(٢) «جامع بيان العلم» لابن عبد البر: ج ١/ ٣٣.

(٣) حديث المسئ صلاته مشهور، رواه الشيخان وغيرهما فى كتاب الصلاة من حديث أبى هريرة انظر: نيل الأوطار، ج٢ ص ٢٩٤، ٢٩٥ وانظر: اللؤلؤ والمرجان (٢٢٤).

فما كان من الحلال بيناً فلا جناح عليه فى فعله أو تركه، وما كان من الحرام بيناً فلا عذر له فى ارتكابه، وما كان من المشتبهات التى «لا يعلمهن كثير من الناس» فالحزم أن يدع ما يريبه إلى ما لا يريبه. «فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام، كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه» (١).

وكان السلف يوصون التاجر الذى يدخل السوق أن يتفقه فى أحكام البيوع والتعامل، أو يلزم فقيها يسدده ويرشده، كما كانوا يوصون من يؤهل نفسه للسيادة والقيادة، أن يتزود من العلم بما يلزم لمنصبه، وما ينير له الطريق. ومن مأثور قولهم: تفقهوا قبل أن تسودوا.

العلم شرط لتولى المناصب القيادية:

وقد قدم يوسف الصديق نفسه لملك مصر، ليضعه حيث يجب أن يوضع مثله، مشيراً إلى مؤهلاته الشخصية، وعلى رأسها الحفظ (يعنى الأمانة) والعلم قال: ﴿ ..... اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾

[يوسف: ٥٥]

وفى الأعمال القيادية العليا - مثل الإمامة العظمى والقضاء - اشترط الفقهاء فيمن يتولاها: العلم الاستقلالى الذى يبلغ بصاحبه درجة الاجتهاد، حتى إذا استفتى أفتى بعلم، وإذا أمر أمر بحق، وإذا حكم - حكم بعدل، وإذا دعا - دعا على بصيرة.

ولم يقبلوا (المقلد) فى الإمامة والقضاء إلا من باب الضرورات التى تبيح المحظورات، والنزول من المثل الأعلى إلى الواقع الأدنى.

على أن من الواجب على الأمة أن تتدارك أمورها، وتصلح من شأنها، حتى لا يلى أمورها إلا أكفاء الناس، وأصلحهم للقيادة علماً وعملاً.

ولم يُجز أحد من الفقهاء أن يلى أمور المسلمين فى السياسة، والقضاء مَن

---

(١) متفق عليه من حديث النعمان بن بشير. (اللؤلؤ والمرجان: ١٠٢٨).

يجهل شرع الله، الذى هو أساس الحكم بين المسلمين، فإنه سيحكم بالجهل أو الهوى، وكلاهما فى النار.

روى بريدة مرفوعا: «القضاء ثلاثة، واحد فى الجنة، واثنان فى النار، فأما الذى فى الجنة، فرجل عرف الحق فقضى به، ورجل عرف الحق وجار فى الحكم فهو فى النار ورجل قضى للناس على جهل فهو فى النار» (١).

العلم هو المبين لمراتب الأعمال وأولوياتها:

ثم إن العلم هو الذى يبين راجح الأعمال من مرجوحها، وفاضلها من مفضولها، كما يبين صحيحها من فاسدها، ومقبولها من مردودها، ومسنونها من مبتدعها، ويعطى كل عمل «سعره» وقيمته فى نظر الشرع.

وكثيراً ما نجد الذين حُرِموا نور العلم يذيبون الحدود بين الأعمال، فلا تتمايز، أو يحكمون عليها بغير ما حكم الشرع، فيُفْرِطون أو يَفرِّطون، وهنا يضيع الدين بين الغالى فيه والجافى عنه.

وكثيراً ما رأينا مثل هؤلاء - مع إخلاصهم - يشتغلون بمرجوح العمل، ويدعون راجحه، وينهمكون فى المفضول، ويغفلون الفاضل.

وقد يكون العمل الواحد فاضلاً فى وقت مفضولا فى آخر - راجحًا فى حال مرجوحًا فى آخر، ولكنهم - لقلة علمهم وفقههم - لا يفرقون بين الوقتين، ولا يميزون بين الحالين.

خلل فى فقه الأولويات:

رأيت من المسلمين الطيبين فى أنفسهم من يتبرع ببناء مسجد فى بلد حافل بالمساجد، قد يتكلف نصف مليون أو مليونًا من الجنيهات أو الدولارات، فإذا طالبته ببذل مثل هذا المبلغ أو نصفه أو نصف نصفه فى نشر الدعوة إلى

---

(١) قال ابن تيمية فى (منتقى الأخبار) : رواه ابن ماجة وأبو داود. وقال فى «نيل الأوطار» ج ٩ /١٦٧ أخرجه أيضا الترمذى والنسائى والحاكم وصححه. وقال الحافظ: له طرق غير هذه جمعتها فى جزء مفرد. ا هـ. وهى فى أبى داود فى الأقضية (٣٥٧٣) وفى الترمذى فى الأحكام (١٣٢٢) وابن ماجه فى الأحكام (٢٣١٥) وذكره فى صحيح الجامع الصغير (٤٣٢٢).

الإسلام، أو مقاومة الكفر والإلحاد، أو فى تأييد العمل الإسلامى لاقامة الحكم بما أنزل الله، أو نحو ذلك من الأهداف الكبيرة التى قد تجد الرجال ولا تجد المال، فهيهات ان تجد أذنا صاغية، أو إجابة ملبية، لأنهم يؤمنون ببناء الأحجار، ولا يؤمنون ببناء الرجال!

وفى موسم الحج من كل عام أرى أعداداً غفيرة من المسلمين الموسرين يحرصون على شهود الموسم متطوعين، وكثيراً ما يضيفون إليه العمرة فى رمضان، وينفقون فى ذلك عن سخاء، وقد يصطحبون معهم أناساً من الفقراء على نفقتهم، وما كلف الله بالحج هؤلاء، فإذا طالبتهم ببذل هذه النفقات السنوية ذاتها لمقاومة الغزو التنصيرى فى اندونيسيا، أو الغزو الشيوعى فى أفغانستان. لووا رؤوسهم، ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون.

هذا مع أن الثابت بوضوح فى القرآن الكريم: أن جنس أعمال الجهاد أفضل من جنس أعمال الحج. كما قال تعالى: ﴿ **أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ * يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ** ﴾ [التوبة ١٩ - ٢١].

هذا مع أن حجهم واعتمارهم من باب التطوع والتنفل، أما جهاد الكفر والالحاد والعلمانية والتحلل، وما يسندها من قوى داخلية وخارجية، فهو الآن فريضة العصر، وواجب اليوم.

ولقد رأيت شباباً مخلصين كانوا يدرسون فى كليات جامعية فى الطب، أو الهندسة، أو الزراعة، أو الآداب، أو غيرها من الكليات النظرية، أو العلمية، وكانوا من الناجحين بل المتفوقين فيها، فما لبثوا إلا أن أداروا ظهورهم لكلياتهم، وودعوها غير آسفين، بحجة التفرغ للدعوة والإرشاد والتبليغ، مع أن عملهم فى تخصصاتهم هو من فروض الكفاية التى تأثم الأمة جميعها إذا فرطت فيها،

ويستطيعون أن يجعلوا من عملهم عبادة وجهاداً إذا صحت فيه النية والتزمت حدود الله تعالى .

ولو ترك كل مسلم مهنته فمن ذا يقوم بمصالح المسلمين ؟ ولقد بُعث الرسول ﷺ ، وأصحابه يعملون فى مهن شتى ، فلم يطلب من أحد منهم أن يدع مهنته ليتفرغ للدعوة ، وبقى كل منهم فى عمله وحرفته ، سواء قبل الهجرة أم بعدها . فإذا دعا داعى الجهاد ، واستنفروا نفروا خفافًا وثقالا مجاهدين بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله .

ولقد أنكر الإمام الغزالى على أهل زمنه توجه جمهور متعلميهم إلى الفقه ونحوه ، على حين لا يوجد فى البلد من بلدان المسلمين إلا طبيب يهودى أو نصرانى يوكل إليه علاج المسلمين والمسلمات ، وتوضع بين يديه الأرواح والعورات .

ورأيت آخرين يقيمون معارك يومية من أجل مسائل جزئية أو خلافية ، مهملين معركة الإسلام الكبرى مع أعدائه الحاقدين عليه ، والطامعين فيه ، والخائفين منه والمتربصين به .

حتي في قلب أمريكا وكندا وأوروبا ، وجدت من جعلوا أكبر همهم : الساعة أين تُلبس .. أفى اليد اليمنى أم اليسرى ؟

ولبس الثوب الأبيض بدل « القميص والبنطلون » واجب أم سنة ؟

ودخول المرأة فى المسجد : حلال أم حرام ؟

والأكل على منضدة ، والجلوس على الكرسى للطعام ، واستخدام الملعقة والشوكة : هل يدخل فى التشبه بالكفار أم لا ؟

وغيرها .. وغيرها من المسائل التى تأكل الأوقات ، وتمزق الجماعات ، وتخلق الحزازات ، وتُضيع الجهود والجهاد ، لأنها جهود فى غير هدف ، وجهاد مع غير عدو .

ورأيت فتيانًا ملتزمين متعبدين يعاملون آباءهم بقسوة ، وأمهاتهم بغلظة ، وأخواتهم بعنف ، وحجتهم أنهم عصاة أو منحرفون عن الدين ، ناسين أن الله

تعالى أوصى بالوالدين حسنًا ، وإن كانا مشركين يجاهدان ولدهما على الشرك ، ويحاولان بكل جهدهما فتنته عن إسلامه .

يقول تعالي : ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ [لقمان : ١٥].

فرغم المحاولة المصرة من الأبوين ، التى سماها القرآن ، مجاهدة على الشرك، أمر بمصاحبتهما بالمعروف ، لأن للوالدين حقًا لا يفوقه إلا حق الله عز وجل ، ولهذا قال تعالى : ﴿ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾ [لقمان : ١٤].

أما الطاعة لهما فى الشرك فهى مرفوضة ، ولا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق. وأما المصاحبة بالمعروف فلا مناص منها ، ولا عذر فى التخلى عنها .

الابتداع فى الدين سببه نقص العلم :

ورأينا أناسا مخلصين ، يشرعون فى الدين ما لم يأذن به الله ، يحرمون ما لم يحرمه الله ورسوله ، ويأمرون بما لم يأمر به الله ورسوله ، ويتعبدون الله بغير ما شرع ، بل بالأهواء والبدع .

شفيعهم لذلك – فيما زعموا – حُسن نيتهم ، وصفاء طويتهم ، وصدق رغبتهم فى التقرب إلى الله تعالى .

وهذا فهم خاطئ لمعنى العمل الصالح المقبول عند الله تبارك وتعالي .

فلا يكفى فى حسن العمل حسن النية ، وحرارة الإخلاص حتى يكون العمل مأذونًا به ، ممهوراً بخاتم الشرع .

ولله در العالم الزاهد الورع – الفضيل بن عياض – الذى عبر عن هذا المعنى بعبارات جامعة ناصعة ، حين سئل عن « أحسن العمل » فى قوله تعالي : ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ قال : أحسن العمل أخلصه وأصوبه .

قالوا : يا أبا على : ما أخلصه ؟ وما أصوبه ؟

قال : إن العمل إذا كان خالصًا ، ولم يكن صوابًا لم يقبل ، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يُقبل . ولا يقبل حتى يكون خالصًا وصوابًا .

والخالص ... أن يكون لله .

والصواب ... أن يكون على السنة [1] .

فضل العلم على العبادة :

والإسلام - فيما نعلم - أول دين يفضل الاشتغال بالعلم وطلبه ، والتبحر فيه على التطوع بالشعائر المعروفة ، من صلاة وصيام وحج ونحوها مع أن القرآن يعلن في صراحة وجلاء أن الله تعالى لم يخلق الثقلين إلا ليعبدوه ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] .

ولكن العبادة إذا أديت على غير علم ، فهي كبنيان على غير أساس ، فالعلم هو الذى يوضح أركان العبادة ، وشروطها ، وآدابها الظاهرة ، وأسرارها الباطنة ، كما يبين ما يصححها وما يبطلها و ما يكملها أو ينقصها .

والعلم يعرف صاحبه بمنازل الأشياء ، ومراتب الأعمال ، حتى يميز بين النفل والفرض ، ويبين المهم وغير المهم ، ويبين الأصول والفروع ، فلا يقدم نافلة على فريضة ، ولا يقدم غير المهم على المهم ، ولا يضيع أصلاً من أجل فرع .

وفى مثل هذا قال السلف : إن الله لا يقبل النافلة حتى تؤدى الفريضة .

وقالوا : من شغله الفرض عن النفل فهو معذور ، ومن شغله النفل عن الفرض فهو مغرور [2] .

ومن فضل العلم على العبادة أن معظم العبادات قاصرة النفع لا تتجاوز صاحبها ، فالمصلى والصائم ، والحاج والمعتمر ، والذاكر والمسبح ، يزيد عملهم

---

(١) انظر : كتابنا « العبادة في الإسلام » فصل : « لا يعبد الله إلا بما شرع ص ١٦٥ - ١٧٤ - مؤسسة الرسالة - بيروت .

(٢) رأينا من الناس من يصوم الاثنين والخميس تطوعا ، ثم يفرط في واجبه نحو عمله اليومى الذى يتقاضى عليه أجرا ، بحجة تعبه من الصيام ، أو يقصر فى واجبه نحو أسرته أو المجتمع من حوله .

ورأينا من يحج أو يعتمر كل عام ، ومع هذا يماطل فى قضاء ديونه ، أو يجور على عماله وموظفيه ، أو يتعامل مع المصارف بالربا .. الخ ، وهذا كله فى الأغلب نتيجة لقلة الفقه فى الدين.

من حسناتهم ، ويرفع من درجاتهم ... ولكن المجتمع من ورائهم لا ينال من جراء عبادتهم شيئًا مباشرًا ، يحقق لهم منفعة ، أو يدفع عنهم مضرة .

أما العلم فنفعه متعد ... لا يقتصر على صاحبه ، بل يتجاوزه إلي غيره من الناس من كل من يسمعه ، أو يقرؤه ، وقد يكون بينه وبينهم جبال ووهاد ، أو بحار وقفار .

فالعلم لا يعرف القيود ، ولا يعترف بالحواجز والسدود ، وخاصة فى عصرنا الذي ينشر فيه العلم المسموع بالإذاعة ، والمرئى بالتلفاز ، في ثوان معدودة ، بل فى نفس اللحظة ، إلى المستمعين والمشاهدين فى مساحات شاسعة . وينشر العلم المكتوب بوساطة الطباعة الحديثة إلي آفاق المعمورة فى أيام بل ساعات معدودات .

ولا عجب أن روى أبو أمامة – رضي الله عنه – قال : ذكر للنبى ﷺ رجلان ، أحدهما عالم ، والآخر عابد ، فقال عليه الصلاة والسلام : « فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم » [1] .

وروى عنه حذيفة بن اليمان : « فضل العلم خير من فضل العبادة » [2] .

وقد تقدم حديث أبى الدرداء : « فضل العالم علي العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب » .

ومن فضل العلم على العبادة : أنه لا ينقطع بانقطاع الحياة ، ولا يموت بموت أصحابه .

فمن صلى ، أو صام ، أو زكى ، أو حج ، أو اعتمر ، أو سبح وهلل وكبر ،

---

(١) رواه الترمذى فى العلم (٢٦٨٦) وقال : حديث حسن صحيح غريب .

(٢) رواه الطبرانى فى « الأوسط » والبزار بإسناد حسن / قاله المنذرى فى الترغيب . حديث (١٠٣) .

وقال الهيثمى فى « مجمع الزوائد » (١ / ١٢٠) : فيه عبد الله بن عبد القدوس ، وثقه البخارى وابن حبان ، وضعفه ابن معين .

فإن هذه الأعمال لها مثوبتها الجزيلة عند الله تعالي ، ولكنها تنتهى بانتهاء أدائها والفراغ منها .

أما العلم فإن أثره يظل باقيًا ممتداً ، ما دام فى الناس من ينتفع به ، مهما تطاولت السنون ، وتعاقبت القرون .

فعن أبى هريرة قال ، قال رسول الله ﷺ « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » [1] .

وقال أيضًا : « إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته : علمًا علمه ونشره ، وولداً صالحًا تركه ، أو مصحفًا ورثه ، أو مسجداً بناه ، أو بيتًا لابن السبيل بناه ، أو نهراً أجراه ، أو صدقة أخرجها من ماله فى صحته وحياته ، تلحقه من بعد موته » [2] .

وبهذا يعيش العالم عمراً طويلاً بعد عمره المحدود ، وبخاصة من كتب وصنف ، فإن عمر المكتوب أطول ، وأثره أبقى .

ألا ترى أننا اليوم ننتفع بتراث علمائنا السابقين ، وندعو لهم ، ونترحم عليهم ، وبيننا وبينهم أزمان وقرون تندق فيها أعناق المطى .

قال يحيى بن أكثم : قال الرشيد يومًا : ما أنبل المراتب ؟

قلت : يا أمير المؤمنين ما أنت فيه . قال : فتعرف من هو خير منى ؟ قلت : لا ، قال : لكنى أعرفه . رجل يقول : حدثنا فلان عن فلان عن رسول الله ﷺ .

قال : قلت يا أمير المؤمنين : أهذا خير منك وأنت ابن عم رسول الله ﷺ ، وولى عهد المؤمنين ؟

قال : نعم ، ويلك ! هذا خير منى ، لأن اسمه مقترن باسم رسول الله - ﷺ - لا يموت أبداً . ونحن نموت ونفنى والعلماء باقون ما بقى الدهر[3] .

---

(١) رواه مسلم فى الوصية (١٦٣١) .

(٢) رواه ابن ماجة بإسناد حسن فى المقدمة (٢٤٢) وقال فى الزوائد : إسناده غريب وقد رواه ابن خزيمة فى صحيحه بنحوه .

(٣) ذكره ابن القيم فى « مفتاح دار السعادة » جـ ١ / ١٦٥ طبعة دار الكتب لبنان .

وما أبلغ ما قال الإمام على – رضى الله عنه – لكميل بن زياد : « العلم خير من المال : العلم يحرسك ، وأنت تحرس المال ، والعلم يزكو على الإنفاق ، والمال تنقصه النفقة ، والعلم حاكم والمال محكوم عليه » .

« العلم يكسب العالم الطمأنينة فى حياته ، وجميل الأحدوثة بعد وفاته ، وصنيعة المال تزول بزواله ، مات خُزان الأموال وهم أحياء ، والعلماء باقون ما بقى الدهر ، أعيانهم مفقودة ، وأمثالهم فى القلوب موجودة »[1].

الاشتغال بالعلم أفضل ما يتطوع به :

وهذه الأحاديث وما جاء فى معناها ، وما جاء في فضل العلم عامة – هى التى جعلت كثيراً من السلف يعدون العلم أفضل ما يتطوعون به متقربين لله تعالى .

فعن ابن مسعود قال : الدراسة صلاة .

وعن أبى الدرداء قال : مذاكرة العلم ساعة خير من قيام ليل .

وعن ابن عباس : تذاكر العلم بعض ليلة أحب إلىَّ من إحيائها .

وعن أبى هريرة : لأن أجلس ساعة فأفقه فى دينى أحب إلىَّ من أن أحيى ليلة إلى الصباح .

وقال قتادة : باب من العلم يحفظه الرجل لعلاج نفسه ، وصلاح من بعده، أفضل من عبادة حول .

وقال الثورى : ليس بعد الفرائض أفضل من طلب العلم .

وعنه أيضاً : ما أعلم اليوم شيئاً أفضل من طلب العلم ، قيل له : ليس لهم نية ! قال : طلبهم له نية .

وقال ابن وهب : كنت عند مالك قاعداً أساله ، فجمعت كتبى لأقوم .

---

(١) قال ابن القيم : ذكره أبو نعيم فى الحلية وغيره . وقال أبو بكر الخطيب : هذا حديث من أحسن الأحاديث وأشرفها لفظاً . المصدر السابق ص ١٢٣ .

قال مالك : أين تريد ؟ قال : قلت : أبادر إلى الصلاة . قال : ليس هذا الذى أنت فيه دون ما تذهب إليه ، إذا صح فيه النية .

وقال الزهرى : ما عبد الله بمثل الفقه .

وقال مطرف بن عبد الله بن الشخير : حظ من علم أحب إلىَّ من حظ من عبادة .

وقال الشافعى : طلب العلم أفضل من صلاة النافلة (١) .

وقد نقل عن أبى حنيفة مثل ما نقل عن الشافعى ومالك وسفيان من تفضيل العلم على سائر النوافل (٢) .

هؤلاء هم أئمة الفقه وأصحاب المذاهب المتبوعة .

وبهذا يتضح أن المفاضلة بين العلم والعبادة لا تعنى المفاضلة بين العلم المفروض والعبادة المفروضة ، ولا بين نفل العلم وفرض العبادة ، ولا العكس ، فإنه لا مفاضلة بين فريضتين لا زمتين .

فلا يجوز أن يشغل شئ عن العبادة المفروضة كالصلاة ، والمحافظة عليها وأدائها فى وقتها ، ولو كان هو طلب العلم .

ولا يتصور من ذى علم أن يجيز لنفسه أو غيره الاشتغال بالعلم عن أداء الفرائض المكتوبة .

ولهذا لما نقل المحقق ابن القيم حديث عائشة ، « فضل العلم خير من نفل العمل » ، قال : وهذا الكلام هو فصل الخطاب فى المسألة ، فإنه إذا كان كل من العلم والعمل فرضاً فلا بد منهما كالصوم والصلاة ، فإذا كانا فضلين - وهما النفلان المتطوع بهما - ففضل العلم ونفله خير من فضل العبادة ونفلها ، لأن العلم يعم نفعه صاحبه والناس معه ، والعبادة يختص نفسها لصاحبها ، ولأن العلم تبقى فائدته ، ولما مر من الوجوه السابقة (٣) .

---

(١) انظر : « جامع بيان العلم » لابن عبد البر جـ ١ / ٢٥ باب تفضيل العلم على العبادة .

(٢) انظر : « مفتاح دار السعادة » لابن القيم جـ ١ / ١١٩ .

(٣) المصدر نفسه ص ١٢٠ .

فضل العلم على الجهاد :

ويندرج فى فضل العلم على العبادة فضله على الجهاد الذى هو ذروة سنام الإسلام الذى استفاضت فى بيان فضيلته آيات القرآن وأحاديث الرسول .

يقول الصحابى الجليل عبد الله بن مسعود أحد أوعية العلم ، ومصابيح الهدى : والذى نفسى بيده ، ليودَّنَّ رجال قتلوا فى سبيل الله شهداء أن يبعثهم الله علماء ، لما يرون من كرامتهم [١] أى : من كرامة العلماء .

ويقول الفقيه الداعية المربى الحسن البصرى : يوزن مداد العلماء بدماء الشهداء ، فيرجح مداد العلماء .

ذلك أن الجهاد لا يعرف فضله إلا بالعلم .

ولا تتضح شروطه وحدوده إلا بالعلم .

ولا يتبين الجهاد المشروع من القتال غير المشروع إلا بالعلم .

ولا يتميز النفل فيه عن الفرض إلا بالعلم .

ولا يعرف فرض الكفاية فيه من فرض العين إلا بالعلم .

وكم رد النبى ﷺ من مسلم جاءه يجاهد معه ، لأنه رأى أنه ترك واجبًا يخصه ألزم من الجهاد ، فعن عبد الله بن عمرو قال : جاء رجل إلي النبى - ﷺ - فاستأذنه فى الجهاد ، فقال : « أحيٌّ والداك » ؟

قال : نعم ، قال : « ففيهما فجاهد » [٢] .

وفى رواية : أن الرجل قال : يا رسول الله ، جئت أريد الجهاد معك ، ولقد أتيت وإن والدى يبكيان . قال : « فارجع إليهما فأضحكهما كما أبكيتهما »[٣] .

---

(١) « مفتاح دار السعادة » ص / ١٢١ .

(٢) متفق عليه : اللؤلؤ والمرجان (١٦٥٣) .

(٣) قال فى « المنتقى » : رواه أحمد ، وأبو داود ، وابن ماجه . وقال فى « النيل » أخرجها أيضًا النسائي وابن حبان ، وأخرجها أيضًا مسلم وسعيد بن منصور من وجه آخر فى نحو هذه القصة وهى فى أحمد (٢ / ٢٠٤) وأبى داود فى الجهاد (٢٥٢٨) وابن ماجه فى الجهاد (٢٧٨٢) قال : ارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما « نيل الأوطار » جـ ٨ / ٣٧ ، ٣٨ والترغيب جـ ٧ حديث ٣٥٨٤ .

وعن أبي سعيد : أن رجلاً هاجر إلى النبي ﷺ من اليمن ، فقال : « هل لك أحد باليمن ؟ فقال : أبواى ، فقال : أذنا لك ؟ فقال : لا ، قال : ارجع إليهما فاستأذنهما ، فإن أذنا لك فجاهد ، وإلا فبرهما » [1] .

وفي حديث آخر أنه - ﷺ - قال لمن جاء يستشيره في الغزو معه : هل لك من أم ؟ قال : نعم ، فقال : « الزمها فإن الجنة عند رجليها » [2] .

وبهذه الأحاديث استدل العلماء على وجوب استئذان الأبوين فى الجهاد ، وبذلك قال الجمهور ، وجزموا بتحريم الجهاد إذا منع عنه الأبوان أو أحدهما ، لأن برهما فرض عين ، والجهاد فرض كفاية ، فإذا صار الجهاد فرض عين فلا إذن ، لأن تركه معصية ، ولا طاعة لبشر فى معصية الله تعالى .

وهذا بشرط أن يكون الأبوان مسلمين ، لأن الكافرين لا يرضيان يومًا بالجهاد لنصرة الإسلام وخذلان دينهما .

وكل هذه الحدود والفوارق الدقيقة إنما تعرف بالعلم ، فمن أعرض عن العلم ، واشتغل بالجهاد كان حريًا أن يقع فى الخطأ ، أو ينحرف عن سواء الصراط وهو لا يدرى .

وكم من أناس فى الماضى حملوا سيوفهم على عواتقهم يقاتلون من عصم الله دماءهم وأموالهم يزعمون أنهم بذلك يجاهدون ، فيقتلون أهل الإسلام ، ويدعون أهل الأوثان ! أولئك هم الخوارج الذى صح الحديث فى ذمهم من عشرة أوجه كما قال الإمام أحمد بن حنبل ، وأيده ابن تيمية .

وما ذلك إلا لأنهم تعبدوا قبل أن يتعلموا ، وجاهدوا قبل أن يتفقهوا ، وتعجلوا العمل قبل العلم ، فضل سعيهم ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا .

وكم من شباب فى زمننا دفعهم الحماس الكثير فى صدورهم ، مع العلم

---

(١) رواه أبو داود فى الجهاد (٢٥٣٠) وصححه ابن حبان كما فى الاحسان (٤٢٢) .

(٢) رواه النسائى فى الجهاد (٣١٠٤) وابن ماجه فى الجهاد (٢٧٨١) ، والحاكم وقال : صحيح الإسناد قاله المنذرى فى الترغيب حديث (٣٥٩١) .

القليل فى رؤوسهم ، والإعجاب المزهو برأيهم ، إلي رفض أمتهم ، وتكفير جماهيرها ، واعتبار أوطانها ديار كفر لا دار إسلام ، فاستحلوا بذلك ما حرم الله، وأسقطوا ما أوجب الله ، اتباعاً لمتشابه النصوص ، وابتغاء الفتنة ، وابتغاء تأويله .

ولو تعلموا وفقهوا ، وتلقوا العلم من أهله ، وعرفوه من مناهله ، لوقف بهم العلم عند حدودهم ، وعرفهم حقيقة الجهاد : كيف يكون ؟ ومتى يكون ؟ ولمن يكون ؟

وهذا ما نصح به الإمام الحسن البصرى - رضي الله عنه - حيث يقول : العامل على غير علم كالسالك على غير طريق ، والعامل على غير علم يفسد أكثر مما يصلح . فاطلبوا العلم طلباً لا يضر بالعبادة واطلبوا العبادة طلباً لا يضر بالعلم ، فإن قوما طلبوا العبادة وتركوا العلم حتى خرجوا بأسيافهم على أمة محمد - ﷺ - ولو طلبوا العلم لم يدلهم على ما فعلوا [١] .

على أن الجهاد الذى جاء به الإسلام ليس كله جهاداً بالسيف ، فهناك جهاد بالقلب واللسان ، والحجة والبيان ، أي جهاد بالعلم . وهو المذكور فى قوله تعالى : ﴿ **فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ** - أى القرآن - **جِهَاداً كَبِيراً** ﴾ [الفرقان : ٥٢]

فلم يكتف القرآن بتسميته جهاداً ، بل سماه « جهاداً كبيراً » وهذا في مكة قبل أن يُشرع القتال .

وهو جهاد المنافقين في قوله سبحانه : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ** ﴾ [التوبة : ٧٣] و [التحريم : ٩] .

فجهاد الكفار أخص باليد ، وجهاد المنافقين أخص باللسان . ولا تعجب إذا جاء فى الحديث « من خرج فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتي يرجع » [٢] .

---

(١) « مفتاح دار السعادة » طبعة / ٨٢ .

(٢) أخرجه الترمذى فى كتاب العلم برقم (٢٦٤٩) من حديث أنس وقال : حديث حسن غريب ورواه بعضهم ولم يرفعه وأخرجه أيضا الضياء فى المختارة ، وقال المناوى فى الفيض (٦ / ١٢٤) : فيه خالد بن يزيد اللؤلؤى ، قال العقيلى : لا يتابع على كثير من حديثه ، ثم ذكر له هذا الخبر ، وله شاهد بمعناه من حديث أبى هريرة أخرجه ابن ماجه رقم ٢٧٧ بلفظ « من جاء مسجدى هذا لم يأته إلا لخير يتعلمه أو يعلمه فهو بمنزلة المجاهد فى سبيل الله » وقال فى الزوائد : إسناده صحيح على شرط مسلم وصححه الحاكم على شرطهما ووافقه الذهبى (١ / ٩١) .

قال الإمام ابن القيم : « إنما جعل طلب العلم في سبيل الله ، لأن به قوام الإسلام كما أن قوامه بالجهاد . فقوام الدين بالعلم والجهاد . ولهذا كان الجهاد نوعين : جهاد باليد والسنان . وهذا المشارك فيه كثير . والثانى الجهاد بالحجة والبيان . وهذا جهاد الخاصة من أتباع الرسل ، وهو جهاد الأئمة ، وهو أفضل الجهادين ، لعظم منفعته ، وشدة مؤنته . وكثرة أعدائه . قال تعالى في سورة الفرقان ، وهى مكية ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيراً * فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَاداً كَبِيراً ﴾ [٥١ ، ٥٢] . فهذا جهاد لهم بالقرآن وهو أكبر الجهادين . وهو جهاد المنافقين أيضًا ، فإن المنافقين لم يكونوا يقاتلون المسلمين بل كانوا معهم فى الظاهر ، وربما كانوا يقاتلون عدوهم معهم . ومع هذا فقد قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ . ومعلوم أن جهاد المنافقين بالحجة والقرآن . قال : والمقصود أن « سبيل الله » هى الجهاد ، وطلب العلم ، ودعوة الخلق به إلى الله ، ولهذا قال معاذ رضي الله عنه : عليكم بطلب العلم ، فإن تعلمه لله خشية ومدارسته عبادة ، ومذاكرته تسبيح ، والبحث عنه جهاد . ولهذا قرن – سبحانه – بين الكتاب والميزان والحديد الناصر، كما قال تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحديد : ٢٥] .

فذكر الكتاب والحديد ، إذ بهما قوام الدين . كما قيل :

فما هو إلا الوحى أوحد مُرْهَفٍ ... تميل ظباه اخدعى كل مائل

فهذا شفاء الداء من كل عاقل ... وهذا دواء الداء من كل جاهل

والمقصود أن كلاً من الجهاد بالسيف والحجة يسمى (سبيل الله) وفسر الصحابة رضى الله عنهم قوله تعالى : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ [النساء : ٥٩] – بالأمراء والعلماء فإنهم المجاهدون فى سبيل الله : هؤلاء بأيديهم وهؤلاء بألسنتهم .

فطلب العلم وتعلمه من أعظم سبيل الله عز وجل .

قال كعب الأحبار : طالب العلم كالغادى الرائح فى سبيل الله عز وجل .

وجاء عن بعض الصحابة رضى الله عنهم : إذا جاء الموت طالب العلم ، وهو على هذا الحال ، مات وهو شهيد .

وقال سفيان بن عيينة : من طلب العلم فقد بايع الله عز وجل .

وقال أبو الدرداء : من رأى الغدو والرواح إلي العلم ليس بجهاد ، فقد نقص فى عقله ورأيه [1] .

العلم ينفع فى الدنيا قبل الآخرة :

ومن فضائل العلم ومزاياه : أن نفعه لأهله لا يقتصر على ثواب الآخرة وحدها ، بل ينفعهم فى الدارين ، ويجمع لهم بين الحسنيين ، ويرفع درجاتهم عند الله وعند الناس ، فثمراته معجلة ، وقطوفه دانية .

قال الإمام الحسن البصرى في تفسير قوله تعالى : ﴿ **رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً** ﴾ [البقرة : ٢٠١] هى العلم والعبادة ﴿ **وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً** ﴾ : هى الجنة .

قال الإمام ابن القيم : وهذا من أحسن التفاسير فإن أجل حسنات الدنيا : العلم النافع والعمل الصالح [2] .

ومن أجمل ما ورد فى ذلك قصة ابن أبزى . ذلك أن نافع بن عبد الحارث لقى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بعُسفان – وكان عمر ولاه على مكة فسأله : من استخلفت على أهل الوادى ؟ فقال : ابن أبزى . قال : ومن ابن أبزى ؟ قال : مولى من موالينا . قال : فاستخلفت عليهم مولى ؟ قال : إنه قارئ لكتاب الله عز وجل وإنه عالم بالفرائض (المواريث) قال عمر : أما إن نبيكم – ﷺ – قد قال : « إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع آخرين » [3] .

---

(١) « مفتاح دار السعادة » جـ ١ /٧٧ و ٧١ .

(٢) « مفتاح دار السعادة » ١ /٧٧ .

(٣) أخرجه مسلم فى صلاة المسافرين (٨١٧) وأحمد (١ /٣٥) – الفتح الربانى (١ /١٤٦) .

وقال إبراهيم الحربي :

— « كان عطاء بن أبى رباح عبداً أسود لامرأة من مكة ، قال : وجاء سليمان ابن عبد الملك – أمير المؤمنين – إلى عطاء هو وابناه ، فجلسوا إليه وهو يصلى ، فلما صلى انفتل إليهم ، فما زالوا يسألونه عن مناسك الحج ، وقد حول قفاه إليهم ! ثم قال سليمان لابنيه : قوما، فقاما . فقال : يا بنى لاتنيا في طلب العلم، فإنى لا أنسى ذلنا بين يدى هذا العبد الأسود ! (١) .

ضياع العلم مؤذن بخراب الدنيا :

وقد نبهت الأحاديث الصحيحة إلى حقيقة مهمة ، وهى : أن الحياة بغير علم لا تستحق البقاء ، وأن ضياعه أو إضاعته نذير بخراب الدنيا ، وأن الساعة على الأبواب .

روى البخارى عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « إن من أشراط الساعة أن يُرفع العلم ، ويثبت الجهل ، (وفى رواية : يقل العلم ويكثر الجهل) ويشرب الخمر ، ويظهر الزنى » (٢) .

قال العلامة الكرمانى فى شرحه للبخارى : إنما كان اختلال هذه الأمور مؤذنًا بخراب العالم ، لأن الخلق لا يتركون هملاً ، ولا نبى بعد نبينا – ﷺ – فيتعين ذلك (٣) .

والمراد بالعلم هنا : علم الدين الموروث عن النبوة ، فهو الذى يهدى الناس إلى الله ، ويقفهم عند حدوده ، ويعرفهم أمره ونهيه ، وحلاله وحرامه .

ولا يبعد أن يضيع الناس هذا العلم وإن وصلوا فى علم الدنيا إلى غزو الفضاء والصعود إلى الكواكب ، فقد يفعلون ذلك وهم بالله جاهلون ، وعنه غافلون ، كعامة الغربيين اليوم ، إلا من رحم ربك ، فهم كالذين وصفهم الله

---

(١) « مفتاح دار السعادة » جـ ١ / ١٦٥ .

(٢) البخارى : كتاب « العلم » (٨٠) .

(٣) فتح البارى جـ ١ ص ١٨٩ .

تعالى فى كتابه بقوله : ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ * يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ [الروم : ٦ ، ٧].

فانظر كيف نفى الله عنهم العلم بقوله : ﴿ لا يَعْلَمُونَ ﴾ ثم قال : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ ولا يناقض هذا الإثبات ذلك النفى ، لأن هذا النوع وهذا المستوى من العلم - العلم بظاهر من الدنيا مع الغفلة عن المصير - هو علم أشبه بالجهل . فلا عجب أن يوصف أصحابه بأنهم لا يعلمون .

ولكن كيف يرفع العلم ويذهب ؟ إنه يذهب بذهاب أهله الذين يُرجَعُ إليهم فى المعضلات ، ويُحتكم إليهم عند الخلاف ، الذين إذا استفتوا أفتوا بعلم، وإذا استقضوا قضوا بحق ، وإذا دعوا كانت دعوتهم علي بصيرة .

وفي الصحيحين عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « إن الله لا يقبض العلم انتزاعا من العباد (أى : محوا من الصدور) ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء ، حتى إذا لم يبق عالم ، اتخذ الناس رؤوساء جهالاً ، فسُئلوا ، فأفتوا بغير علم ، فضلوا وأضلوا »[1] .

وكان تحديث النبى - ﷺ - بذلك فى حجة الوداع ، كما رواه أحمد والطبرانى من حديث أبي أمامة ، قال : لما كان فى حجة الوداع قال النبى - ﷺ - : « خذوا العلم قبل أن يُقبض أو يُرفع . فقال أعرابى : كيف يُرفع ؟ فقال: ألا إنّ ذهاب العلم ذهاب حملته » ثلاث مرات[2] .

ومن هنا كان موت العلماء الثقات مصيبة يحزن لها المؤمنون ، ويسألون الله الصبر عليها ، والعوض عنها ، حتى روى عن عمر قوله : لموت ألف عابد ، قائم النهار ، صائم الليل ، أهون من موت عالم ، بصير بحلال الله وحرامه »[3] .

---

(١) هو في صحيح البخارى . فى العلم (١٠٠) . وفى صحيح مسلم كتاب العلم حديث رقم (٢٦٧٣) .

(٢) ذكره الحافظ فى « الفتح » جـ ١ ص ٢٠٥ .

(٣) ذكره الغزالى فى الإحياء .

ولما مات زيد بن ثابت كاتب الوحى ، وقارئ القرآن ، وعالم الأنصار ، قال عبد الله بن عباس : من سره أن ينظر كيف ذهاب العلم ، فهكذا ذهابه .

وقال الحسن : موت العالم ثلمة ، (أى : ثغرة وخلل فى البناء) فى الإسلام، لا يسدها شئ ما أطرد الليل والنهار .

وقال ابن عباس أيضًا : لا يزال عالم يموت ، وأثر للحق يُدرس ، حتى يكثر أهل الجهل ، وقد ذهب أهل العلم ، فيعملون بالجهل ، ويدينون بغير الحق ، ويضلون عن سواء السبيل .

وكان أبو الدرداء يقول : مالى أرى علماءكم يذهبون ، وجهالكم لا يتعلمون ؟ تعلموا قبل أن يُرفع العلم ، فإن رفع العلم ذهاب العلماء [١] .

كذلك كان حرصهم على طلب العلم وتعليمه وتدوينه ، حتى لا يأتى وقت يفقدون فيه من يحمله ، ويقوم بحقه .

كتب عمر بن عبد العزيز فى خلافته إلي أبي بكر بن حزم – واليه على المدينة – يقول له : انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ فاكتبه ، فإنى خفت دروس العلم وذهاب العلماء ، ولا يقبل إلا حديث النبي ﷺ وليُفْشوا العلم ، وليجلسوا ، حتى يعلم من لا يعلم ، فإن العلم لا يهلك حتى يكون سرًا [٢] .

فهو بهذا يرفع شعار : العلم للجميع .

قال الحافظ فى « الفتح » : وقد روى أبو نعيم : فى « تاريخ أصبهان » هذه القصة بلفظ : « كتب عمر بن عبد العزيز إلى الآفاق : انظروا حديث الرسول – ﷺ – فاجمعوه » [٣] .

* * *

---

(١) روى هذه الآثار كلها ابن عبد البر فى جامع بيان العلم – باب ما روى فى قبض العلم وذهاب العلماء .

(٢) ذكر ذلك البخارى معلقًا بصيغة الجزم . كتاب العلم باب (٣٤) .

(٣) الفتح جـ ١ ص ٢٠٤ .

الرَسُول وَالعِلم التجريبى

العلم الذى دعا إليه الإسلام ، وحث عليه القرآن والسنة : هو كل معرفة مستندة إلي استدلال . ولهذا لا يعد علماء المسلمين التقليد علماً ، لأنه اتباع لقول الغير بلا حجة .

وعلي هذا يشمل العلم فى الإسلام مجالات عدة تقصر عن الدلالة عليها كلمة « العلم » بمفهومها الغربى الحديث .

فيشمل العلم مجال « ما وراء الطبيعة » مما جاء به الوحى ، فكشف به عن حقائق الوجود الكبرى ، وأجاب به عن الأسئلة الخالدة التى حيرت الإنسان منذ فكر وتفلسف وهى : من أين ؟ وإلى أين ، ولم ؟

بالجواب عن هذه الأسئلة عرف الإنسان مبدأه ومصيره ورسالته ، عرف نفسه وعرف ربه واطمأن إلي غايته .

وهذا أولى ما يطلق عليه لفظ « العلم » بل هو كما يسميه الإمام ابن عبد البر (العلم الأعلى) .

ويشمل العلم مجال (الإنسان) وما يتعلق به من دراسات ، تبحث عن جوانب حياته ، وعلاقاته المكانية ، والزمانية ، والنفسية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ، والسياسية ، وغير ذلك مما تهتم به العلوم الإنسانية والاجتماعية .

ويشمل العلم مجال (الماديات) المبثوثة فى الكون علويه وسفليه ، وهى تتضمن علوم الطبيعة ، والكيمياء ، والأحياء ، والفلك ، والطب ، والهندسة وغيرها ، مما يقوم على الملاحظة والتجربة .

وهذا المعنى أو هذا المجال ، هو الذي يقف عنده الغربيون اليوم ، لا يجاوزونه إذا تحدثوا عن « العلم » لأنه وحده الذى يخضع للاختبار والقياس ، وتحكم عليه المشاهدة والتجربة ، ويمكن إدخاله « المعمل » أو « المختبر » .

وأقول : إن الإسلام لا يقف عقبة فى سبيل هذا النوع من « العلم » الذى

تعتبر المادة موضوعًا له ، ولا يعده مقابلاً للإيمان ، أو معاديًا له ، كما اعتبرت ذلك أديان أخرى فى مراحل تاريخية معينة .

بل أقول بكل صراحة واعتزاز : إن تعاليم القرآن والسنة قد هيأت المناخ النفسى والعقلى الذى ينبت فيه هذا العلم ، بحيث ترسخ أصوله ، وتمتد فروعه، ويؤتى أكله بإذن ربه .

ومن هذه التعاليم :

١- تكوين العقلية العلمية :

فهناك عقلية عامية أو خرافية تُصدق غالبًا كل ما يقال لها ، وتقبل كل ما يلقى إليها ، وخصوصًا إذا جاء ممن تعظمه من الآباء أو الكبراء ، وتنقاد لما عليه جمهور الناس صوابًا كان أو خطأً ، ولا تمتحن أفكارها ، ولا تخضع معلوماتها لمناقشة أو اختبار ، شعارها : « هذا ما وجدنا عليه آباءنا » أو « نحن مع الناس أحسنوا أو أساؤوا » .

وفي مقابل هذا اللون : « العقلية العلمية الموضوعية » التى لا تقبل نتائج بغير مقدمات ، ولا تخضع إلا للحجة والبرهان ، ولا تحكم العواطف والظنون فى مقام يطلب فيه اليقين المجرد ، والعلم المحقق ، وقد وضح القرآن والسنة المعالم الأساسية التى تقوم عليها هذه العقلية العلمية ، ونستطيع أن نوجزها فى النقاط التالية :

(١) : ألا تُقبل دعوى بغير دليل مهما يكن قائلها ، والدليل هو : البرهان النظرى فى العقليات **﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾** [النمل : ٦٤] ، والمشاهدة أو التجربة في الحسيات **﴿ وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ﴾** [الزخرف : ١٩] ، وصحة الرواية وتوثيقها فى النقليات **﴿ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾** [الأحقاف : ٤] .

(٢) : رفض الظن فى كل موضع يطلب فيه اليقين الجازم ، والعلم الواثق — ولذا رد القرآن مزاعم المشركين فى آلهتهم بقوله : **﴿ وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾** [النجم : ٢٨] .

ورد مزاعم اليهود والنصارى في صلب المسيح فقال : ﴿ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴾ [النساء : ١٥٧].

وجاء في الحديث الصحيح : « إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث »(١).

(٣) : رفض العواطف ، والأهواء والاعتبارات الشخصية حيث يطلب الحياد ، والموضوعية ، وحيث يكون التعامل مع طبائع الأشياء وقوانين الوجود ، أيًا كانت نتائجها . يقول القرآن منكرًا علي المشركين : ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ ﴾ [النجم : ٢٣] وقال في خطاب داود : ﴿ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [ص : ٢٦] وفي خطاب الرسول ﷺ ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ﴾ [القصص : ٥٠] .

(٤) : الثورة على الجمود والتقليد والتبعية الفكرية للآخرين ، سواء كانوا من الآباء والأجداد ، أم من السادة والكبراء ، أم من العامة والجماهير ، وفي القرآن إنكار شديد علي الذين يقولون ، ﴿ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ وهو رد عليهم بقوله : ﴿ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة : ١٧٠] وفي القرآن كذلك نعى شديد على موقف الأتباع الذين أطاعوا سادتهم وكبراءهم فأضلوهم السبيل ، وبيان تبرئهم يوم القيامة بعضهم من بعض، وتحميل الفريقين تبعة ما هم فيه من ضلال ، قال : ﴿ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٨].

وفي الحديث أيضًا تحذير من اتباع الجمهور وإن كانوا علي خطأ ، وإدانة لعقلية من يرضى لنفسه أن يكون تابعًا ، وقد خلقه الله سيدًا . « لا يكن أحدكم إمعة ، يقول : أنا مع الناس ، إن أحسنوا أحسنت ، وإن أساؤوا أسات ، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا ، وإن أساؤوا ألا تظلموا »(٢) .

---

(١) متفق عليه عن أبي هريرة . كما في اللؤلؤ والمرجان (١٦٦٠) .

(٢) رواه الترمذي في البر والصله (٢٠٠٨) بنحوه وقال : حسن غريب .

وهذا الموقف الأخلاقى الذى يتميز باستقلال الشخصية فى السلوك ، يدعو إلي مثله فى الفكر أيضاً .

(٥) الاهتمام بالنظر والتفكير والتأمل : ﴿ فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾ [الأعراف : ١٨٥] . وفى الإنسان نفسه فهو عالم وحده ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات : ٢١] ، وفى سير التاريخ البشرى ، ومصاير الأمم ، وسنن الله فى الاجتماع الإنسانى ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٧].

٢- محاربة الأمية :

ومن هذه التعاليم التى تهيئ تربة المجتمع لظهور التفكير ، والبحث العلمى : نشر التعليم ومطاردة الأمية ، ولهذا حرص النبى ﷺ على محاربة الأمية التى كانت منشرة بين العرب ، حتى كانوا يعرفون بين الأمم بـ« الأميين » ، وهكذا أسماهم القرآن ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ ﴾ [الجمعة : ٢] وقال عليه الصلاة والسلام معبراً عن الواقع القائم حينذاك « نحن أمة أمية لا نكتب ولا نحسب »[١] .

والرائع هنا أن هذا النبى الأمى فى هذه الأمة الأمية ، كان أول من مجد « القلم » وعمل على إشاعة الكتابة ، ومحو الأمية بين أتباعه ، بكل سبيل .

ولا غرو ، فإن أول آيات أنزلت عليه من ربه ، تضمنت التنويه بالقراءة والقلم والتعليم ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ وثاني سورة نزلت من القرآن العظيم سميت سورة (القلم) وفي مطلعها أقسم الله بهذه الأداة الصغيرة فى حجمها ، الكبيرة فى أثرها (القلم) فقال ﴿ نَ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ . وحينما أتيحت للرسول - ﷺ - ، فرصة لتعليم بعض المسلمين الكتابة ، لم يدعها تفوت دون أن يستفيد منها وذلك فى غزوة بدر ، حيث كان

---

(١) رواه البخارى فى الصوم (١٩١٣) .

بعض أسرى قريش ممن يعرفون الكتابة ، فجعل فداء الواحد منهم من أسره ، أن يعلم عشرة من أبناء المسلمين الكتابة .

وذكر ابن سعد عن عامر الشعبى قال : أسر رسول الله ﷺ يوم بدر سبعين أسيراً ، وكان يفادى بهم على قدر أموالهم ، وكان أهل مكة يكتبون وأهل المدينة لا يكتبون . فمن لم يكن له فداء دفع إليه عشرة غلمان من غلمان المدينة فعلمهم ، فإذا « حذقوا » فهو فداؤه [١] .

وذكر أن زيد بن ثابت – أحد كتاب الوحى – كان ممن علمه أسرى قريش. ومعنى هذا أن خطة النبى ﷺ لم تكن قائمة على مجرد « فك الخط » كما يقولون ، بل لابد من درجة « الحذق » والإتقان ، حتى لا ينسى ويرتد إلى الأمية من جديد .

ولم يمنع النبى ﷺ اختلاف الدين أن يأخذ من المشركين خير ما عندهم ، ولا سيما أن مجرد تعلم الكتابة لا يحمل – في العادة – فكراً ولا ثقافة ، ولا يتلون بلون العلم .

ولم يقف حث النبى ﷺ علي تعلم الكتابة عند الرجال فقط بل شمل النساء أيضاً [٢]، وقد علمت الشفاء بنت عبد الله أم المؤمنين حفصة بنت عمر الكتابة [٣] .

٣- تعلم اللغات عند الحاجة :

ومن هذه التعاليم المهمة لإيجاد مناخ علمى : تعلم لغات الآخرين عند

---

(١) « طبقات ابن سعد » : جـ ١ ص ٢٢ طبعة بيروت .

(٢) أما الحديث الذى رواه الحاكم فى المستدرك جـ ٢ ص ٣٩٦ عن عائشة مرفوعًا « لا تنزلوهن الغرف ولا تعلموهن الكتابة – يعنى النساء – وعلموهن المغزل وسورة النور » وقال الحاكم صحيح الإسناد فقد تعقبه الذهبى وقال : بل موضوع .

(٣) أحمد (٦ / ٣٧٢) ، أبو داود في الطب (٣٨٨٧) وسكت عنه هو والمنذرى ورجال إسناده رجال الصحيح إلا إبراهيم بن مهدى البغدادى المصيصى . وهو ثقة كما فى « نيل الأوطار » جـ ٩ ص ١٠٣ طبعة دار الجيل – لبنان .

الحاجة إليها وخصوصاً إذا كان عندهم علم يؤخذ ، أو حكمة تقتبس فلا سبيل إلى الانتفاع بما عند غيرك إذا جهلت لغته . ولم يمنع الإسلام من تعلم لغات الآخرين ، بل دعا إليها باعتبارها وسيلة لنشر دعوته فى العالم .

وذلك أن رسالته – ﷺ – ، رسالة عالمية ، فهو – وإن كان عربياً ، والكتاب المنزل عليه عربى ، وقد أرسله الله بلسان قومه ليبين لهم – قد بُعث للناس كافة ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً ﴾ [الفرقان : ١] ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ﴾ [الأعراف : ١٥٨].

فلا بد من ترجمة بينه وبين أرباب اللغات الأخرى ، حتى يمكنه تبليغ الدعوة إليهم ، وتلقى الإجابة منهم ، وقد كان عنده – ﷺ – من أصحابه من يعرف الفارسية والرومية والحبشية ، ويكفيه هم الترجمة منها وإليها ، ولكن لم يكن عنده من يعرف اللغة السريانية التى يكتب بها يهود ، فأمر بذلك كاتب وحيه الأنصارى النابغة زيد بن ثابت – رضي الله عنه – ليتقنها قراءة وكتابة ويستغنى بها عن الوسطاء من اليهود فى ذلك .

قال زيد : أمرنى رسول الله ﷺ ، فتعلمت له كتاب يهود بالسريانية وقال : إنى والله ما آمن يهود على كتابى ، فما مر لى نصف شهر حتى تعلمته وحذقته ، فكنت أكتب له إليهم ، وأقرأ له كتبهم [١] ولعله كان على شئ من المعرفة بها من قبل (لمجاورة الأنصار لليهود) حتى أمكنه أن يحذقها فى هذه المدة القصيرة . ومن هنا حرص كثير من المسلمين على معرفة اللغات ، فترجموا منها وإليها وقال فى ذلك الشاعر :

بقدر لغات المرء يكثُر نفعه ... فتلك له عند الملمات أعوان

فاقبل على درس اللغات وحفظها ... فكل لسان فى الحقيقة إنسان

---

(١) رواه البخارى معلقاً فى الأحكام (٧١٩٥) ، وأبو داود فى العلم (٣٦٤٥) ، والترمذى فى الاستئذان (٢٧١٦).

٤- استخدام أسلوب الإحصاء :

وإذا كان عصرنا يعتبر استخدام أسلوب الإحصاء من أبرز دلائل الطريقة العلمية في معالجة الأمور ، وهو فارق مميز بين العلميين والعشوائيين ، أو الغوغائيين من الناس فإن النبى ﷺ . قد بادر إلي الانتفاع بالإحصاء منذ عهد مبكر من إقامة دولته بالمدينة .

فقد روى البخارى ومسلم عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه ، قال : كنا مع رسول الله ﷺ ، فقال : «احصوا لى كم يلفظ الإسلام » .

وفى رواية للبخارى أنه قال : « اكتبوا لى من يلفظ بالإسلام من الناس » قال حذيفة : فكتبنا له ألفًا وخمسمائة رجل [١] .. الحديث .

فهو إحصاء كتابى يراد تدوينه وتثبيته ، وذلك ليعرف عليه الصلاة والسلام مقدار القوة البشرية الضاربة التى يستطيع بها أن يواجه أعداءه المتربصين به ، ولهذا كان الإحصاء للرجال فقط ، أى القادرين على القتال .

والإحصاء الذى تم فى عهد مبكر من حياة الدولة المسلمة ، وتم بأمر من الرسول نفسه فى سهولة ويسر ، يرينا إلى أى حد يرحب الإسلام باستخدام الوسائل العلمية .

وفى مقابل هذا نجد فى « العهد القديم » : أن أحد أنبياء بنى إسرائيل أراد أن يعمل لهم إحصاء فنزلت عقوبة سماوية بهم ! كأنما (الإحصاء) يمثل تحديا للقدر أو للإرادة الإلهية وهذا ما استنبط منه الفيلسوف المعاصر الشهير « برتراند راسل » أن « التوراة » والكتاب المقدس لا يتيح مناخًا مناسبًا لإنشاء عقلية علمية .

٥- التخطيط :

وإذا كان الإحصاء من دلائل الطريقة العلمية فالتخطيط كذلك ، بل هو أوضح دلالة عليها ، والتخطيط إنما يعتمد على الإحصاء ، ويراد بالتخطيط وضع خطة لمواجهة احتمالات المستقبل ، وتحقيق الأهداف المنشودة .

---

(١) متفق عليه : اللؤلؤ والمرجان (٩٠) .

ومن الناس من يتصورون أو يصورون الدين فى موقف المعارض أو المناقض لفكرة التخطيط العلمى للمستقبل . وهذا من أثر الفكرة القديمة التى جعلت العلم مقابلاً للإيمان ، فهما ضدان لا يجتمعان ، أو خطان متوازيان لا يلتقيان .

والحقيقة أن فكرة الدين في جوهرها قائمة على أساس التخطيط للمستقبل. ففيه يأخذ المرء المتدين من يومه لغده ، وبعبارة أخرى من حياته لموته، ومن دنياه لآخرته ، ولا بد له أن يخطط حياته ، ويضع لنفسه منهاجًا يوصله إلى الغاية ، وهى رضوان الله ومثوبته .

وفى القرآن الكريم قصة جعلها الله عبرة لأولى الألباب ، وهى قصة نبى الله يوسف عليه السلام وفيها يذكر القرآن لنا مشروع تخطيط للاقتصاد الزراعى لمدة خمسة عشر عامًا ، لمواجهة أزمة غذائية عامة . عرف يوسف – بما ألهمه الله ، وعلمه من تأويل الأحاديث – أنها ستصيب المنطقة كلها ، وقد اقترح يوسف عليه السلام مشروع الخطة . ووكل إليه تنفيذها ، وكان فيها الخير والبركة على مصر وما حولها ، قال : ﴿**قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ**﴾ [يوسف : ٤٧ – ٤٩] .

ويظن آخرون أن التخطيط للغد ينافى التوكل على الله ، أو الإيمان بقضائه ، وقدره ، ولهذا يستبعدون كل الاستبعاد أن يقبل الدين فكرة التخطيط ، فضلاً عن أن يوجه إليه ، أو يحث عليه .

والحق أن الذى يتعمق فى دراسة كتاب الله ، وسنة رسوله يتبين له أنهما يرفضان الارتجال والعشوائية ، وترك الأمور تجرى فى أعنتها بغير ضابط ، ولا رابط ولا نظام . وبين الرسول ﷺ أن التوكل على الله لا يعنى اطراح الأسباب أو إغفال السنن ، التى أقام الله عليها نظام هذا الوجود ، ولا يكاد مسلم يجهل قصة

الأعرابى الذي جاء إلى النبى ﷺ ، وترك ناقته أمام المسجد قائلا : يا رسول الله، أأعقل ناقتى وأتوكل أم أطلقها وأتوكل ؟ فقال له : «اعقلها وتوكل»[1] .

وقال الإمام الطبرى يرد على من زعم أن تعاطى الأسباب يؤثر فى كمال التوكل : الحق أن من وثق بالله، وأيقن أن قضاءه عليه ماض، لم يقدح فى توكله تعاطيه الأسباب، اتباعا لسنته وسنة رسوله، فقد ظاهر - ﷺ - بين درعين ولبس على رأسه المغفر، وأقعد الرماة على فم الشعب، وخندق حول المدينة وأذن فى الهجرة إلى الحبشة، وإلى المدينة، وهاجر هو، وتعاطى أسباب الأكل والشرب، وادخر لأهله قوتهم، ولم ينتظر أن ينزل عليه من السماء وهو كان أحق الخلق أن يحصل له ذلك[2] .

ومن قرأ سيرته عليه الصلاة والسلام، وجد أنه كان يعد لكل أمر عدته، ويهيئ له أسبابه وأهميته، آخذاً حذره، مقدراً كافة الاحتمالات، واضعًا ما أمكنة من الاحتياطات مع أنه كان أقوى المتوكلين على الله تعالى .

فهو حين أمر أصحابه - بعد أن اشتد إيذاء قريش لهم - بالهجرة إلى الحبشة، لم يكن هذا الأمر اعتباطًا، أو رمية من غير رام، بل كان نتيجة معرفة بالظروف الجغرافية، والدينية والسياسية للحبشة فى ذلك الوقت .

فلم يكن من الحكمة ولا من حسن الخطة أن يأمرهم بالهجرة إلى مكان - مهما بعد - فى شبه جزيرة العرب - فإن قريشاً - بما لها من نفوذ دينى وأدبى - تستطيع أن تلاحقهم .

ولم يكن من الحكمة ولا من حسن الخطة أن يذهبوا إلى بلد تحت سيطرة الفرس أو الروم، حيث يحكمها أباطرة لا يقبلون مثل هذه الدعوة الجديدة .

---

(١) رواه الترمذى فى صفة القيامة (٢٥١٩) من حديث أنس، وقال: غريب أى ضعيف، وأنكره يحيى القطان لكن أخرجه ابن حبان فى صحيحه من حديث عمر بن أمية الضمرى، وإسناده - كما قال الزركشى - صحيح - ورواه عنه أيضا ابن خزيمة فى صحيحه بلفظ: «قيدها وتوكل» وإسناده - كما قال الزين العراقى: - جيد - انظر: فيض القدير ص ٧ حديث ١١٩١ .

(٢) نقله الشوكانى فى نيل الأوطار ج ٩ ص ٩٢ طبعة دار الجيل بيروت.

ولم يكن من الحكمة ولا من حسن الخطة أن يذهبوا بعيدا إلى بلاد مثل الهند والصين، حيث تنقطع أخبارهم، وتكون الهجرة مهلكة لهم.

ولقد كانت الحبشة هي المكان المناسب جغرافيا، فهو ليس جد بعيد، ولا جد قريب، بل بينه وبين قريش بحر.

وكانت الحبشة هي المكان المناسب دينيًا، فقد كانوا أهل كتاب من النصارى الذين يعدون أقرب مودة للمسلمين.

وكانت الحبشة هي المكان المناسب سياسيًا، فقد كان يحكمها رجل اشتهر بالعدل والنصفة، ولهذا قال الرسول لأصحابه: «إن بها ملكًا أرجو الا تُظلموا عنده».

وهذا يدلنا على أن الرسول وأصحابه لم يكونوا فى عزلة عن العالم من حولهم، رغم صعوبة المواصلات بين الأقطار بعضها وبعض.

ويدل على ذلك أيضًا موقفهم من حرب الفرس والروم، وما كان من جدل بين المسلمين والمشركين فى هذا، مما نزلت فيه أوائل سورة الروم ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ [الروم: ٢، ٣]

وهكذا ... فقد كانوا – وهم فى فجر الدعوة ورغم الضعف والاضطهاد – على صلة بالصراع العالمى بين الدولتين العظميين فى ذلك العصر، أو المعسكرين الكبيرين: الشرقى والغربى.

وأوضح من ذلك موقفه ﷺ فى هجرته إلى المدينة، ففيها يتجلى التخطيط العلمى، والتوكل الإيمانى جنبًا إلى جنب.

فلقد أعد عليه الصلاة والسلام من جانبه كل ما يستطيع البشر إعداده من الوسائل والاحتياطات والمعينات.

ولقد اطمأن إلى المهجر الذى سينتقل إليه، بعد أن بايع المؤمنين من الأوس والخزرج بيعة العقبة الأولى والثانية، واشترط لنفسه أن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وذراريهم.

واطمأن إلى الرفيق الذى سيصحبه فى رحلته الجاهدة بما فيها من أخطار، وما تحمله من مفاجآت، ولم يكن هناك أفضل من أبى بكر رفيقًا.

واطمأن إلى الفدائى الذى سيبيتُ مكانه، معرضًا نفسه لاحتمالات الخطر وغدرات المتربصين، ولم يكن ثم أفضل من على ابن عمه أبى طالب فارس الإسلام لهذه المهمة.

ورتب الدليل الخريت الذى يدله على الطريق، وما فيه من منعطفات ومخابئ يمكن أن تضلل عنه أعين الطالبين، فكان مشركًا أمينًا، وهو عبد الله ابن أريقط. وهو ما أخذ منه الفقهاء جواز الاستعانة بالخبرة الفنية غير الإسلامية، مع الاطمئنان والأمان.

وهيأ الرواحل التى سيمتطيها هو وصاحبه، ودليله فى سفرهم الطويل، واتفقوا على المكان الموعود الذى يستقلون به الركائب.

وتخير المخبأ الذى يختفى فيه أيامًا معدودة، حتى تخف حدة الطلب. ويتملك القوم اليأس، واختاره فى غير طريق المدينة، زيادة فى التعمية على القوم، فكان غار «ثور».

وأعد فريق الخدمة الذى يأتى بالزاد، والأنباء، خلال أيام الاختفاء، فكانت أسماء وعبد الله بن أبى بكر، ومن بعدهما عامر بن فهيره مولى أبى بكر يأتى بغنمه فيحلبون منها ويعفِّى على آثار أسماء وعبد الله.

خطة محكمة الحلقات، متقنة التدبير، ولم تُترك فيها فجوة دون أن تُملأ، ولا ثغرة دون أن تُسد، ووضع فيها كل جندى فى دوره المناسب لظروفه وقدراته، فدور أبى بكر، غير دور على، غير دور أسماء، وكل فى موقعه الصحيح.

ومع هذا الإحكام الدقيق، كادت الخطة تخفق، واستطاع المشركون أن يصلوا إلى الغار، ويقفوا على بابه، وكان يكفى لكشف الأمر وإفساد الخطة، أن ينظر أحد القوم تحت قدميه، ليرى الرسول وصاحبه فى الغار، وهذا ما خشيه

أبو بكر، وصرح به للرسول ﷺ حين قال: لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا، فقال له كلمته المؤمنة الواثقة: «ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما»؟ ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]

وهنا تجلى دور «التوكل» الحق، فبعد أن يبذل الإنسان ما فى وسعه ويتخذ من الأسباب والخطط ما يقدر عليه، ويدع ما لا يقدر عليه من مفاجآت القدر، لله وحده. وهنا تقع «إن الله معنا» موقعها وتؤتى أكلها.

٦ - إقرار منطق التجربة فى الأمور الدنيوية:

ولعل أظهر ما يميز «العلم» بالمفهوم العصرى أو الغربى: أنه لا يقوم على المنطق الشكلى أو الصورى أو القياسى الذى ينسب إلى أرسطو، وإنما يقوم على منطق الملاحظة والتجربة ويخضع فى نتائجه لما تأتيان به. ولهذا يسمى «العلم التجريبى» ويسمى منهجه «المنهج التجريبى».

وهنا أيضا نجد الرسول - عليه الصلاة والسلام - سبق إلى إقرار مبدأ التجربة فى الأمور الدنيوية الفنية، مثل أمور الزراعة والصناعة والطب وما شاكلها، فما أثبتت التجربة نفعه فى هذا فهو مطلوب شرعًا، وما أثبتت ضرره فهو مرفوض شرعًا.

وأوضح مثال لهذا المبدأ: موقفه عليه الصلاة والسلام من قضية تأبير النخل، حيث رأى أصحابه من الأنصار يفعلون ذلك، ولم يكن له بذلك عهد؛ حيث نشأ بمكة وهى واد غير ذى زرع، فقال لهم كلمة من باب الظن والتخمين، يشير بها إلى أن هذا العمل لا ضرورة له. وفهم الأنصار منها أنها من أمر الوحى والدين الذى لا يجوز مخالفته. فتركوا التأبير فى ذلك الموسم، فخرج التمر رديئا.

فلما علم ذلك عليه الصلاة والسلام بين لهم أن كلمته لم تكن من باب الوحى الإلهى، بل من باب المشورة الدنيوية. حسب ظنه الناشئ عن خبراته البيئية المحدودة، ثم قال لهم فى النهاية: «أنتم أعلم بأمر دنياكم» فهذه الشؤون الدنيوية الفنية المحض، متروكة لعقولهم ومعارفهم، يدبرونها

وفقا لمصلحتهم. وليس من شأن الوحى أن يتدخل فيها، فهم بها أدرى وأعلم.

والقصة في صحيح مسلم، ومسند أحمد وغيرهما، رواها عدد من الصحابة منهم طلحة بن عبيد الله، ورافع بن خديج، وعائشة، وأنس رضى الله عنهم.

ففى المسند عن طلحة رضي الله عنه قال: مررت مع النبى - ﷺ - فى نخل المدينة، فرأى أقواما فى رؤوس النخل، فقال: ما يصنع هؤلاء؟ قال يأخذون من الذكر فيحطون فى الأنثى يلقحون به فقال: «ما أظن ذلك يغنى شيئا. فبلغهم، فتركوه ونزلوا عنها، فلم تحمل تلك السنة شيئًا. فبلغ ذلك النبى ﷺ، فقال: إنما هو ظن ظننته، إن كان يغنى شيئًا فاصنعوا، فإنما أنا بشر مثلكم، والظن يخطئ ويصيب، ولكن ما قلت لكم: قال الله عز وجل: فلن أكذب على الله» [1].

وفى صحيح مسلم [2] من رواية رافع بن خديج أنه قال لهم: «إنما أنا بشر إذا أمرتكم بشئ من دينكم فخذوا به، وإذا أمرتكم بشئ من رأيى، فإنما أنا بشر».

وفيه [3] من رواية عائشة وأنس: أنه ﷺ قال لهم بعد أن خرج التمر شيصاً - بسراً رديئًا - ما لنخلكم؟!. قالوا: قلت كذا وكذا. قال: «أنتم أعلم بأمر دنياكم».

فالقانون الذى يجب الخضوع له هنا: هو القانون الذى تنتجه الخبرة والممارسة، أو المشاهدة والتجربة. ويكفى العقل الإنسانى فى هذه الأمور هادياً

---

(١) رواه الإمام أحمد فى مسند طلحة حديث رقم (١٣٩٩) قال الشيخ شاكر إسناده صحيح وقد جاء فى المسند مختصرا برقم (١٣٩٥) ورواه مسلم فى الفضائل (٢٣٦١).

(٢) رواه مسلم من حديث رافع بن خديج فى الفضائل (٢٣٦٢).

(٣) رقم ٢٣٦٣.

ودليلاً. أما الوحى فحسبه أن يضع للناس القيم والمبادئ العامة والضوابط. ثم يدع البشر يتصرفون تبعًا لما يعلمون. وحسبهم هذه الكلمة الجليلة: «أنتم أعلم بأمر دنياكم».

٧ - النزول عند رأى الخبراء وأهل المعرفة:

ومن دلائل العقلية العلمية الحقة: النزول عند رأى الخبراء، وأهل الذكر، والمعرفة فى كل فن من الفنون أو خبرة من الخبرات. وهذا ما هدى إليه القرآن فى مثل قوله ﴿فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً﴾ [الفرقان: ٥٩] ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤]

ففى الأمور الحربية، يجب الوقوف عند رأى الخبراء العسكريين، وفى الاقتصاد يؤخذ برأى الاقتصاديين، وفى الصناعة تحترم توصيات الصناعيين ... وهكذا.

وفى معركة بدر الكبرى، حيث التقى الرسول والمسلمون بالمشركين من قريش، ونزلت قريش بالعدوة القصوى من الوادى، وخرج الرسول يبادرهم إلى الماء، حتى جاء أدنى ماء بدر فنزل به.

وهنا يتقدم الحباب بن المنذر الأنصارى إلى النبى ﷺ، باقتراح يقول فيه: يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل: أمنزل أنزلكه الله، ليس لنا أن نتقدمه ولا أن نتأخر عنه، أم هو الرأىَ والحرب والمكيدة؟! قال: «بل هو الرأى والحرب والمكيدة» قال: يا رسول الله، إن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم فننزله، ثم نغور ما وراءه من القلب [١]، ثم نبنى عليه حوضًا، فنملأه ماء، فنشرب ولا يشربون، فقال رسول الله ﷺ: «لقد أشرت بالرأى» [٢].

---

(١) نغور: ندفن ونطمس، القلب بضم القاف واللام: جمع قليب وهو البئر.

(٢) الحديث فى سيرة ابن هشام ج٢ ص ٢٧٢ عن ابن إسحاق قال: فحدثت عن رجال من بنى سلمة أنهم ذكروا أن الحباب ... إلخ .. قال الشيخ الألبانى فى تخريج «فقه السيرة» للغزالى: وهذا سند ضعيف لجهالة الواسطة بين ابن إسحاق والرجال من بنى سلمة (وايضا هؤلاء الرجال مجهولون، ولا يدرى أعاصروا الحباب أم لا) ووصل الحاكم هذا الخبر فى المستدرك (ج ٣/ ٤٢٧)، ولكنه لم يصححه، وأنكره الذهبى. ولكن وصله ابن حجر فى الإصابة ج ١/ ٤٢٧ من طريق ابن إسحاق فى السيرة، قال: حدثنى يزيد بن رومان عن عروة وغير واحد فى قصة بدر =

يريد الحباب بسؤاله أن يستوضح عن اختيار النبى ﷺ للمكان الذى نزل به: أهو بوحى من الله، فلا يسعه إلا السمع والطاعة والتنفيذ بكل دقة، أم هو من التدابير العسكرية التى يتخذها النبى ﷺ بوصفه قائدا للمعركة وإماما للمسلمين؟ وفى هذه الحالة يستطيع أن يدلى بدلوه، ويشير برأيه، وبخاصة أنه خبير بالمنطقة، عالم بها وبقلبها كما ذكر ابن سعد [١].

وقدم الحباب مشروعه إلى النبى ﷺ فرحب به، ونزل عن رأيه الأول إليه، وقال بكل شجاعة ووضوح: «لقد أشرت بالرأى» ... ووضع الاقتراح موضع التنفيذ.

واقترح عليه سعد بن معاذ بناء عريش له، يكون فيه، ويشرف على المعركة من بعيد فأثنى عليه خيراً، ونفذ اقتراحه [٢].

وفى غزوة الأحزاب روى أن سلمان الفارسى أشار على رسول الله ﷺ بحفر الخندق حول المدينة، فقبل النبى مشورته وبادر بتنفيذها.

ولهذا لما أقبل فرسان المشركين تسرع بهم خيولهم حتى وقفوا على الخندق فلما رأوه قالوا: والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها [٣].

ولا عجب أن يقتبس المسلمون من أساليب الفرس أو الروم أو غيرهم ما يمتنعون به من عدوهم، وما يمكنهم من النصر عليه، وكل ما يعود عليهم بالخير فى حياتهم، فالوسائل لا حكم لها فى ذاتها، وإنما لها حكم مقاصدها.

= فذكر قول الحباب ... إلخ وهذا السند إلى عروة صحيح، إلا أن الحباب مات فى خلافة عمر وعروة ولد فى أواخرها، فلم يدركه. فالحديث مرسل، ولكنه بعضده شهرة القصة بين الصحابة الذين أدركهم عروة، وهم كثرة، والذين كانوا يروون أنباء الغزوات لأبنائهم - كما أن للحديث شاهدا بإسناد ضعيف عند ابن شاهين كما فى الإصابة أيضا، وقد نقلت كتب السيرة خبر الحباب، وتلقته بالقبول.

(١) طبقات ابن سعد ج ٢ ص ١٥ طبعة بيروت.

(٢) «سيرة ابن هشام» ج ٢ ص ٢٧٢ - ٢٧٣ طبعة دار إحياء التراث العربى - بيروت.

(٣) «سيرة ابن هشام» ج ١ ص ٢٣٥.

٨ - اقتباس كل علم نافع :

ويحث النبي ﷺ، على اقتباس كل علم ينفع الإسلام وأهله ولو كان من عند غير المسلمين ، كما رأينا كيف استفاد من أسرى المشركين في بدر في تعليم أولاد المسلمين الكتابة، كما جاء في الحديث الذي أخرجه الترمذي وابن ماجة :

« الكلمة الحكمة ضالة المؤمن، أنى وجدها، فهو أحق بها » [١].

وقال علي رضى الله عنه : العلم ضالة المؤمن، فخذوه ولو من أيدي المشركين [٢].

وينطبق هذا أكثر ما ينطبق على نتائج العلوم المادية المحضة التي لا يصطبغ بعقائد أصحابها ولا بأفكارهم، لأنها قوانين كونية عامة يدين بها المؤمن والكافر، ويخضع لسنتها البر والفاجر.

ومن هنا لم يجد المسلمون حرجًا في اقتباس العلوم الكونية من الطب والكيمياء، والفلك، والبصريات، والرياضيات، وغيرها من أمم الحضارات القديمة مثل اليونان، والفرس، والروم، ولا سيما اليونان .

وهذا بخلاف الدراسات الأخرى التي تتصل بالدين والقيم والمفاهيم، وتؤثر في وجهة نظر دارسها إلى الله والطبيعة والإنسان والتاريخ والمجتمع .

ومن هنا أنكر النبي ﷺ على عمر حين رآه يقرأ شيئا من صحائف أهل الكتاب من اليهود، لأن الله قد أغنى بالقرآن المحفوظ عن كتب أصابها التحريف والتبديل، واختلطت فيها كلمات الله بأوهام البشر، وأهواء الخلق، ففقدت الثقة بعصمتها، والدين لا يجوز أن يؤخذ إلا من مصدر إلهي معصوم، ثابت النسبة إلى الله تعالى .

روى الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله، أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه

---

(١) الحديث ضعيف الإسناد، ولكن معناه صحيح رواه الترمذي في العلم (٢٦٨٨) وقال حديث غريب، وابن ماجه في الزهد (٤١٦٩) .

(٢) « جامع بيان العلم » ج ١ / ١٢١ .

أتى النبى ﷺ، بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فرآه النبى ﷺ فغضب فقال: «أمتهوكون [1] فيها يا ابن الخطاب؟ والذى نفسى بيده، لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شئ فيخبرونكم بحق فتكذبوا به أو بباطل فتصدقوا به. والذى نفسى بيده لو كان موسى حيًا ما وسعه إلا أن يتبعنى» [2].

وإنما غضب النبى ﷺ، وتغير وجهه واشتد فى إنكاره، لأن الأمر هنا أمر دين لا يؤخذ إلا من الصادق المصدوق.

أما علوم الحياة وفنونها، وما يهتدى إليه الناس بعقولهم وتجاربهم فهو ملك عامة البشر، نأخذه من أى وعاء خرج، ونلتمسه من الشرق أو الغرب، ونقتبسه من المسلم والمشرك، كما رأيناه ﷺ، يستفيد من أسرى المشركين فى محو الأمية ويأخذ بفكرة حفر الخندق حول المدينة وهى من أساليب الفرس، ويستخدم المنجنيق فى حصار الطائف، ويخطب على المنبر وهو صنعة نجار رومى.

ونرى خلفاءه الراشدين يسنون للأمة أمورًا لم يكن للعرب بها عهد، وإنما اقتبسوها من غيرهم من الأمم، إذ رأوا فيها صلاحًا ونفعًا، فها نحن نرى عمر يستجيب لمقترحات بعض أصحابه فيأخذ بفكرة التاريخ، وفكرة تدوين الدواوين.

بل ذهب بعض الباحثين إلى أن التدوين قد بدأ منذ عهد النبى ﷺ، أخذا مما ذكرناه من قبل من الأمر بالإحصاء الكتابى للمسلمين بعد الهجرة [3].

---

(١) متهوكون: أى متحيرون، يعنى هل أنتم متحيرون، أو مترددون فى عقيدتكم حتى تأخذوا العلم من غير كتابكم ونبيكم؟.

(٢) رواه أحمد كما فى «ترتيب المسند» للشيخ أحمد عبد الرحمن البنا - كتاب العلم - رقم ٦٢ ونقل فى تخريجه عن صاحب «التنقيح» أن رجاله رجال الحسن، وهو عند أحمد. وابن ماجة عن ابن عباس، وإسناده حسن، وعند ابن حبان عن جابر أيضا باسناد صحيح. وفى الباب عن عبد الله بن ثابت الأنصارى عند أحمد وابن سعد والحاكم فى «الكنى» والطبرانى فى الكبير، والبيهقى فى شعب الإيمان، وعن جابر عند الدارمى (١/ ٤٤١).

الفتح الربانى ج ١ ص ١٧٥

(٣) انظر: «التراتيب الإدارية» أو نظام الحكومة النبوية للكتانى ج ١ ص ٢٢٧، ٢٢٨.

٩ - الحملة على الأوهام والخرافات:

وأهم من هذا كله، الحملة المشددة المتكررة على الأوهام، والخرافات، والشعوذات، التى كان لها فى الجاهلية سوق نافقة، ولها فى ظل كثير من الديانات السماوية المحرفة والوضعية سماسرة ودعاة، يقولون فيسمعون ويأمرون فيطاعون، ويدعون فيجابون، أولئك هم الكهنة والعرافون، والسحرة والمنجمون، الذين يزعمون أنهم قادرون على خرق سنن الكون، وهتك أستار الغيب، وكشف مكنونات الصدور.

وجاء الإسلام فأغلق - بقوة - هذه السوق المخربة، وحجر على تجارها المحترفين، وسماسرتها المخادعين، وصادر بضاعتها الزائفة، وأعلن فى وضوح مشرق أن سنن الله فى الكون لا تتبدل، وأن الغيب لا يعلمه إلا الله، وأن الخير كل الخير فى احترام السنن، ورعاية قانون الأسباب والمسببات.

ولا غرو أن نقرأ فى كتب السنة المشرفة مثل هذه الأحاديث عن رسول الله ﷺ، روى البخارى عن المغيرة بن شعبة. قال: كسفت الشمس يوم مات إبراهيم (ابن النبى - ﷺ - من مارية القبطية) فقال الناس: انكسفت لموت إبراهيم: فقال رسول الله - ﷺ - : «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته». وبذلك طارد الأوهام التى شاعت عند الناس فى الجاهلية أن كسوف الشمس أو القمر إنما يحدث لموت عظيم أو نحو ذلك. وأثبت أنها آية من آيات الله، تجرى على سنن الله.

وهذه جملة أخرى من الأحاديث النبوية: «اجتنبوا السبع الموبقات». قالوا: وما هن يا رسول الله؟ قال: «الشرك بالله، والسحر ... الحديث» [١].

«ومن عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر، ومن سحر فقد أشرك، ومن علق شيئًا وكل إليه» [٢]، أى: علق على نفسه تميمة أو حرزًا، أو نحوه، مما يزعمون أنه يقى من الجن أو العين أو المرض.

---

(١) رواه الشيخان من حديث أبى هريرية اللؤلؤ والمرجان (٥٦).

(٢) رواه النسائى من رواية الحسن عن أبى هريرة، فى تحريم الدم (٤٠٧٩)، وقد ذكرنا أن الراجح ثبوت سماعه منه.

« ليس منا من تطير أو تُطير له أو تكهن أو تُكهن له، أو سحر أو سُحر له ومن أتى كاهنا فصدقه بما يقول، كفر بما أنزل على محمد ﷺ »[1].

« من أتى عرافًا أو كاهنًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد »[2].

« ومن أتى عرافًا فسأله عن شئ فصدقه، لم تقبل له صلاة أربعين يومًا »[3].

وعن ابن مسعود موقوفًا « من أتى عرافًا أو ساحرًا أو كاهنًا يؤمن بما يقول، كفر بما أنزل على محمد ﷺ »[4].

والكاهن: هو الذى يخبر عن بعض المضمرات، فيصيب بعضها ويخطئ اكثرها، ويزعم أن الجن تخبره بذلك، والعراف: كالكاهن، وقيل: هو ساحر. وقال البغوى: العراف: هو الذى يدعى معرفة الأمور بمقدمات وأسباب يستدل بها على مواقعها، كالمسروق: من الذى سرقه؟ ومعرفة مكان الضالة، ونحو ذلك.

---

(١) رواه البزار بإسناد جيد من حديث عمران بن حصين، ورواه الطبرانى من حديث ابن عباس - دون قوله: - ومن أتى - الخ، بإسناد حسن كما فى الترغيب المنتقى (١٨٥٣)، وقد روى البزار الجملة الأخيرة من حديث جابر بإسناد جيد قوى ترغيب (المنتق: ١٨٥٤) وقال الهيثمى: رواه البزار ورجاله رجال الصحيح، وفى ص (١٠٣، ١٠٤) قال: وثقه أبو حاتم وضعفه عمرو بن على خلا إسحاق بن الربيع وهو ثقة (٥ /١١٧) وفى إسناده كلام ذكره الألبانى فى (غاية المرام) ولكنه ارتقى بالحديث إلى الحسن بحديث ابن عباس المشار إليه.

(٢) رواه أبو داود فى الطب (٣٩٠٤)، الترمذى فى الطهارة (١٣٥) ابن ماجه فى الطهارة (٦٣٩). وفى أسانيدهم كلام ذكره المنذرى فى مختصر السنن والحاكم، وقال: صحيح على شرطيهما.

(٣) رواه مسلم فى السلام (٢٢٣٠).

(٤) قال الهيثمى رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط وكذلك البزار ورجالهم ثقات المجمع ٥/ ١١٨.

ومثل الكاهن والعراف: المنجم - وهو الذى يدعى معرفة الغيوب المستقبلة عن طريق النجوم وما لها من أسرار وتأثيرات فى العالم الأرضى، وبعضهم يسمى المنجم كاهناً.

وفى الحديث «من اقتبس علماً من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر، زاد ما زاد» [1].

وليس المراد بعلم النجوم هنا: علم الفلك أو الهيئة - كما يسمى من قبل - والذى نبغ فيه كثير من علماء المسلمين، والذى اتسعت بحوثه وامتدت جذوره فى هذا العصر، فهذا علم قائم على الملاحظة، والتجربة والقياس واستخدام الآلات، وبه استطاع الإنسان فى عصرنا أن يصل إلى القمر، ويجلب منه بعض الأتربة والصخور ليحللها ويستفيد من ورائها.

وليس فى هذا أى منافاة لحقيقة دينية، أو لقاعدة شرعية، أو لنص ثابت فى قرآن أو سنة.

ولست أستدل لذلك بقوله تعالى فى سورة الرحمن: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ﴾ [الرحمن: ٣٣]. ولا أفسر السلطان هنا بالعلم كما ذهب إلى ذلك بعض علماء العصر.

فالواضح أن سياق الآية يدل بوضوح أن الخطاب فى الآخرة لا فى الدنيا، وهو خطاب تعجيز للثقلين من الجن والإنس: أنهم لا يستطيعون الفرار من قبضة العدالة الإلهية إلا إذا خرجوا من ملك الله، وأنى لهم أن يخرجوا منه، وأين يذهبون؟ فمعنى «لا تنفذون إلا بسلطان» أى: لا تنفذون مطلقاً، لأنه لا سلطان لكم أمام سلطان الله تعالى.

---

(١) أبو داود فى الطب (٣٩٠٥)، وابن ماجه فى الأدب (٣٧٢٦) وأحمد (١/ ٣١١) من حديث ابن عباس. وقال النووى فى «الرياض» والذهبى فى «الكبائر» إسناد أبى داود صحيح الفيض (٦/ ٨٠).

أما الصعود إلى القمر فليس نفاذا من أقطار السموات والأرض، كيف، وهو لا يزال في إطار المجموعة الشمسية، بل في أقرب كوكب منها إلى الأرض، وهو القمر؟ فإذا اعتبرنا الصاعد إلى القمر خارجا من قطر الأرض كما هو الظاهر - حيث جعل القرآن القمر في السماء ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴾ [الفرقان: ٦١] فإنه لم يخرج لحظة من أقطار السماء.

وأولى من ذلك الاستدلال بآيات التسخير للكون عامة وللشمس والقمر والنجوم خاصة. وهي كثيرة في القرآن الكريم.

والمقصود: أن علم النجوم المحرم الذي يعد شعبة من السحر هو: علم تأثيرها لا علم تسييرها كما قال العلماء [١].

هذه التعاليم التي ذكرناها، جديرة بأن تهيئ أفضل مناخ نفسي وعقلي واجتماعي، لقيام فكر علمي وحياة علمية. وهذا ما رأينا مصداقه في الحضارة الإسلامية الشامخة المتوازنة، التي وصلت الأرض بالسماء، وجمعت بين العلم والإيمان، ومزجت بين المادة والروح.

١٠ - الطب نموذجًا لعناية الرسول بالعلم التجريبي:

وإذا أردنا أن نتخذ مثلاً أو نموذجًا لعناية الإسلام عامة والرسول خاصة بالعلم القائم على التجربة، فلن نجد أفضل من الطب نموذجًا يتجسد فيه موقف القرآن والسنة من هذه العلوم.

وحسبي أن أسجل في هذه السطور أهم المبادئ الأساسية التي جاء بها الإسلام، ووضع بها حجارة الأساس لقيام صرح مشيد لطب علمي سليم.

أولاً: قرر قيمة البدن وحقه على صاحبه «إن لبدنك عليك حقًا» وإذا كان حقه عليه أن يطعمه إذا جاع، ويريحه إذا تعب، وينظفه إذا اتسخ، فإن حقه عليه كذلك أن يداويه إذا مرض. ومعنى هذا أنه حق واجب لا يجوز أن يهمل أو

---

(١) انظر: فيض القدير ج ٣ ص ٢٥٦، ج ٦ ص ٨٠.

ينسى لحساب حقوق أخرى منها حق الله عز وجل، كما بينت ذلك الأحاديث التى دعت إلى الاعتدال، وبينت أنه منهج الإسلام وسنة نبيه «فمن رغب عن سنتى فليس منى».

وبهذا أبطل الإسلام الفكرة السائدة فى المذاهب الزهدية - مقاومة البدن وتعذيبه لترقيه الروح - معتبراً أن كيان الإنسان بشقيه: الروح والبدن معًا.

ثانيا: حل مشكلة الإيمان بالقدر الذى كان يعتقده كثير من الناس منافيًا للتداوى، وطلب العلاج، وهنا نجد أن النبى ﷺ، حين سُئل عن الأدوية التى تؤخذ للعلاج، والأسباب التى تتخذ للوقاية: هل ترد من قدر الله شيئًا؟

فكان جوابه البين الحاسم «هى من قدر الله» [١].

فبين بهذا الجواب أن الله يقدر الأسباب والمسببات جميعًا، فكما يقدر أن الداء ينتج من كذا أو كذا، يقدر أن دواءه يكون بكذا وكذا، وأن اتقاءه يكون بكذا وكذا، والمؤمن الفقيه من يدفع قدر الله بقدر الله كما يفر من قدر الله إلى قدر الله.

ثالثا: فتح باب الأمل أمام الأطباء والمرضى معًا - فى إمكان الشفاء من أى مرض كان، وقضى على اليأس المحطم للنفوس. ورفض فكرة الأمراض المستعصية على الشفاء. وجاء فى ذلك جملة من الأحاديث:

«ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء» رواه البخارى عن أبى هريرة.

«لكل داء دواء، فإذا أصاب دواء الداء برئ بإذن الله» رواه مسلم وأحمد عن جابر.

وجاء أعرابى فقال: يا رسول الله أنتداوى؟ قال: «نعم، فإن الله لم ينزل داء

---

(١) رواه من حديث أبى خزامه الترمذى فى الطب (٢٠٦٦) وقال: حسن صحيح، وابن ماجه الطب (٣٤٣٧)، وأحمد (٣ / ٤٢١) والحاكم، وصححه، ووافقه الذهبى، مع أن فى إسناده ابن أبى خزامة، وهو مجهول، وباقى رجاله ثقات.

الا أنزل له شفاء. علمه من علمه وجهله من جهله » رواه أحمد عن أسامة ابن شريك.

فالدواء موجود فيما خلق الله، وما على أهل الاختصاص إلا أن يبحثوا ويجتهدوا، ولا يلقوا سلاحهم يأسًا، فسيصلون يومًا إلى ما يريدون.

قال الإمام الشوكانى: فى الحديث دليل على انه لا بأس بالتداوى لمن كان به داء، قد اعترف الأطباء بأنه لا دواء له وأقروا بالعجز عنه ».

رابعا: اعترف بسنة الله فى العدوى، فقال ﷺ: « فر من المجذوم فرارك من الأسد » وامتنع عن مبايعة مجذوم بوضع اليد فى اليد. بل اعترف بالعدوى فى عالم الحيوان أيضًا، فقال: « لا يوردن ممرض على مصح » والممرض صاحب الإبل المريضة بالجرب يجب أن يجنبها الاختلاط بالسليمة من الإبل ساعة ورود الماء.

وأما حديث « لا عدوى »: فمعناه ان الأشياء لا تعدى بطبعها وذاتها بل بتقدير الله تعالى وما وضع من سنن فى خلقه.

كما سبق بإقرار مبدأ الحجر الصحى، أو العزل الصحى حين قال عن وباء الطاعون: « إذا سمعتم به بأرض، فلا تدخلوا عليه، وإذا وقع وأنتم بأرض فلا تخرجوا منها فرارًا منه ». متفق عليه.

خامسًا: قاوم ما يسمى (الطب الروحانى) طب الكهنة والسحرة، وأمثالهم من المتاجرين بعمل التعاويذ والتمائم والودع وغيرها مما شاع فى الجاهلية، وكانت له سوق نافقة، أبطلها رسول الله ﷺ، واعتبرها من الشرك، وأعلن عليها حربًا لا هوادة فيها، ولم يسمح من الرقى إلا بما فيه ذكر الله تعالى وأسمائه الحسنى، لأن هذا مجرد دعاء، وهو مشروع محمود.

سادسًا: كان النبى ﷺ بقوله وعمله وتقريره أسوة حسنة فى الهداية إلى الطب الصحيح، القائم على العلم والتجربة، لا على التهويل والادعاء.

فهو ﷺ تداوى لنفسه وأمر بالتداوى، لأن الذى خلق الداء خلق الدواء.

وأرسل طبيبًا إلى أبى بن كعب، فقطع له عرقًا وكواه عليه [١]، أى أنه أجرى له عملية جراحية. وأمر آخر أن يأتى الحارث بن كلدة الطبيب العربى المشهور من ثقيف. قال ذلك لسعد بن أبى وقاص [٢].

ولم يثبت إسلام الحارث. ولهذا استدل العلماء بما ذكر على جواز الاستعانة بأهل الكفر في الطب [٣]، وإن كان الأولى أن يعالج المسلم مسلم مثله ولا سيما أن هناك أحكامًا شرعية كجواز الفطر في رمضان ونحوه تترتب على حكم الطبيب.

وأصيب أحد الصحابة بجرح فاحتقن الدم، فدعا النبى ﷺ رجلين من بنى أنمار فنظروا إليه فسألهما رسول الله: «أيكما أطب، (أى: أحذق وأمهر؟)» فقالا: أوفى الطب خير يا رسول الله؟ فقال: «أنزل الدواء الذى أنزل الداء»[٤].

قال ابن القيم: فى هذا الحديث إنه ينبغى الاستعانة فى كل علم وصناعة بأحذق من فيها، فإنه إلى الإصابة أقرب [٥].

سابعًا: جاء عنه ﷺ: «من تطبب ولم يُعلم عنه الطب فهو ضامن» [٦] وبهذا طارد الأدعياء الذين يتزيون بهيئة أهل الطب وليسوا من أهله، وحملهم مسؤولية أخطائهم فى التشخيص والعلاج، واحترام أهل الاختصاص والخبرة. فلكل علم رجاله ولكل صناعة أهلها، ولا ينبئك مثل خبير.

وفى هذه المبادئ السبعة ما يكفى لإلقاء الضوء على موقف الرسول من الطب وهو موقف سبق عصر النهضة فى الغرب بقرون، وقام على أساسه فى عالم الإسلام طب نظرى وعملى، كانت كتبه مراجع لأوروبا وغيرها عدة قرون، ويكفى فى ذلك كتاب «القانون» لابن سينا، و«الحاوى» للرازى، و«الكليات» لابن رشد.

---

(١) رواه مسلم فى السلام (٢٢٠٧). (٢) رواه أبو داود. فى الطب (٣٨٧٥).

(٣) التراتيب الإدارية للكتانى ج ١/٤٥٧. (٤) رواه مالك فى الموطأ (٥٧٥٧).

(٥) زاد المعاد ج ٣/٢٢٥.

(٦) رواه أبو داود فى الديات (٤٥٨٦) والنسائى (٤٨٣٠) وابن ماجه فى الطب (٣٤٦٦) والحاكم من حديث عبد الله بن عمرو. وقال الحاكم: صحيح، واقره الذهبى (انظر: فيض القدير ج ٦/١٠٦).

أخلاقيّات العلْم

إن العلم فى نظر الإسلام ليس مجرد حشو الرؤوس بالمعلومات، مهما تكن قيمة هذه المعلومات من جلالة القدر فى موضعها، أو فى طريقة ثبوتها، حتى العلم المقتبس من طريق النبوة - الذى هو العلم الأعلى - لا يكفى فيه محض اكتسابه وتحصيله، بل لا بد لصاحب العلم من الالتزام بالقيم الخلقية التى يفرضها العلم على أهله، والتى جعلتهم أهلاً لأن يكونوا خلفاء الأنبياء، وسنخص بالحديث هنا أبرز هذه الفضائل التى يجب أن يتخلق بها أهل العلم.

١ - الشعور بالمسؤولية:

وأولى هذه القيم: الشعور بالمسؤولية أمام الله، فالعلماء ورثة الأنبياء، ولا رتبة أعلى من رتبة النبوة، ولا درجة أعظم من درجة الوارثين لهذه الرتبة وعلى قدر المنزلة تكون المسؤولية.

عن معاذ بن جبل - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ - : «لن تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع خصال: عن عمره فيم أفناه؟ وعن شبابه فيم أبلاه؟ وعن ماله: من أين اكتسبه؟ وفيم أنفقه؟ وعن علمه: ماذا عمل به [١]؟».

وكلما اتسعت دائرة علم الإنسان كلما عظمت مسؤوليته. فليس من علم مسألة كمن علم عشراً أو مئة، وكما أن من كثر ماله كثر حسابه، وطال سؤاله، وعسر جوابه. فكذلك من كثر علمه واستبحرت معارفه، كانت مسؤوليته أكبر، وتبعته أثقل.

فهو مسؤول عن علمه من عدة جوانب:

---

(١) رواه البزار والطبرانى بإسناد صحيح واللفظ له كما فى الترغيب حديث (١٥٦٤) ومجمع الزوائد (١٠ / ٣٤٦).

مسؤول عن صيانته وحفظه حتى يبقى، ومسؤول عن تعميقه وتحقيقه حتى يرقى، ومسؤول عن العمل به حتى يثمر، ومسؤول عن تعليمه لمن يطلبه حتى يزكو، ومسؤول عن بثه ونشره حتى يعم نفعه، ومسؤول عن إعداد من يرثه ويحمله حتى يدوم اتصال حلقاته، وقبل ذلك كله، مسؤول عن إخلاصه في علمه لله حتى يقبله منه.

وعن مالك بن دينار عن الحسن البصرى قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من عبد يخطب خطبة إلا الله عز وجل سائله عنها - أظنه قال - ما أراد بها؟».

وكان مالك بن دينار إذا حدث بهذا الحديث بكى حتى ينقطع ثم يقول: تحسبون أن عيني تقر، وأنا أعلم أن الله عز وجل سائلي عنه يوم القيامة: ما أردت به [١]؟

وكان أبو الدرداء الصحابى الفقيه الزاهد - رضى الله عنه - يقول: إنما أخشى من ربي يوم القيامة أن يدعوني على رؤوس الخلائق، فيقول لي: يا عويمر [٢]، فأقول: لبيك رب! فيقول: ما عملت فيما علمت [٣]؟

٢ - الأمانة العلمية:

ومن أخلاقيات العلم الأمانة فهي من لوازم الإيمان، ولا إيمان لمن لا أمانة له. قال تعالى في وصف المؤمنين: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾ [المؤمنين: ٨]

كما أن الخيانة من لوازم النفاق، فمن آيات المنافق البارزة: أنه إذا اؤتمن خان [٤].

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «تناصحوا في

---

(١) رواه ابن أبى الدنيا والبيهقى بإسناد جيد.

(٢) اسم أبى الدرداء: عامر، وعويمر تصغير له.

(٣) رواه البيهقى. كما فى الترغيب ج ١ حديث (٢١٥).

(٤) متفق عليه من حديث أبى هريرة، اللؤلؤ والمرجان: (٣٨).

العلم، فإن خيانة أحدكم فى علمه أشد من خيانته فى ماله، وإن الله سائلكم يوم القيامة [١] ».

وما ذلك إلا لأن الخيانة فى المال – مهما عظمت – محدودة الضرر ، أما الخيانة فى العلم فقد تدمر مجتمعا بأسره .

ومن أمانة العلم أن ينسب القول لمن قاله ، والفكرة لصاحبها ، ولا يستفيد من الغير ثم يسند الفضل إلى نفسه ، فإن هذا لون من السرقة وضرب من الغش والتزوير .

وفى هذا قال سلفنا : من بركة القول أن يسند إلى قائله . ولهذا نجد كتب السلف المتقدمين موثقة بالأسانيد التى عن طريقها وصلت الآراء والأقوال فى مختلف العلوم . ولم يكن الإسناد فى الحديث وعلوم الدين وحدها ، بل شمل علوماً أخرى كالتاريخ واللغة والأدب وغيرها .

ومن أمانة العلم أن يقف الإنسان عندما يعلم ، وأن يقول لما لا يعلم : لا أعلم ، فليس فى العلم خجل ولا كبرياء ، وأن يتقبل أي حقيقة أو فائدة علمية تأتيه ، ولو على يد من هو أقل منه علماً ، أو أصغر سناً ، أو أدنى منزلة .

وحسبه أن رسول الله – ﷺ – سئل أمام الملأ من الناس عن الساعة ، فقال بصريح العبارة : « ما المسؤول عنها بأعلم من السائل » وذلك فى حديث جبريل المشهور . وعن أبى هريرة ،أن رسول الله ﷺ قال « أحب البلاد إلى الله مساجدها وأبغض البلاد إلى الله أسواقها » [٢] .

فهذا هو موقف العالم الأمين : ألا يعيب من سأله ، ولا يفتى من استفتاه إلا بما يستيقنه ويتبينه .

أما من أفتى بغير علم ، أو أشار على من يستشيره بغير ما يعتقد ، فقد

---

(١) رواه الطبرانى فى الكبير ورواته ثقات إلا أبا سعد البقال – أحد رواته – فيه خلاف ، انظر : مجمع الزوائد : ١ / ١٤١ ، والترغيب جـ ١ جديث ٢٠٦ .

(٢) مسلم فى المساجد (٦٧١) وإنما بغضت الأسواق لما يكثر فيها من الطمع والغش والحلف بغير الله ، واللهو عن ذكر الله لا لكراهية التجارة أو البيع والشراء .

خان الأمانة ، واستحق من الله العقوبة . وفى الحديث : « من أفتى (بصيغة المبنى للمجهول) بغير علم كان اثمه على من أفتاه . ومن أشار على أخيه بأمر يعلم أنّ الرشد في غيره فقد خانه » (١) .

وهكذا تعلم أصحابه - ﷺ - ومن تبعهم بإحسان من علماء الأمة ، فلم يهابوا أن يقولوا : لا ندرى فيما لا يدرون ، وأن يردهم من دونهم إلي الصواب ، فيرجعوا جهرة غير متأففين ، ولا مستكبرين ، وأن يغيروا فتواهم إذا تغير اجتهادهم غير خزايا ولا متحرجين .

يقول الإمام محمد بن سيرين : لم يكن أحد بعد النبى - ﷺ - أهيب لما لا يعلم من أبى بكر ، ولم يكن أحد بعد أبى بكر أهيب لما لا يعلم من عمر ، وإن أبا بكر نزلت به قضية فلم يجد لها من كتاب الله تعالى أصلاً ، ولا فى السنة أثرًا ، فقال : أجتهد رأيى ، فإن يكن صوابًا فمن الله ، وإن يكن خطأ فمنى ، وأستغفر الله (٢) .

وهذا عمر أمير المؤمنين ترده امرأة ، وهو يخطب على المنبر فى شأن صداق النساء ، فلا يستنكف أن يخطئ نفسه على مرأى ومسمع من الناس قائلا : كل الناس أفقه من عمر (٣) !

وأفتى عمر فى المسألة المعروفة في الميراث بـ (الحمارية) ، أو (المشتركة) فى سنة فلم يشرْك فيها ، فلما كان العام المقبل شرك فيها ، فلما قيل له فى ذلك قال : تلك على ما قضينا ، وهذى على ما نقضى . رواه الترمذى .

وهذا أمير المؤمنين (على) أقضى الأمة ، وحلاَّل المعضلات ، والبحر الذى لا تكدره الدلاء ، يقول : لا يستحيى أحدكم إذا لم يعلم أن يتعلم ، وإذا سئل عما لا يعلم أن يقول لا أعلم .

---

(١) رواه أبو داود فى العلم (٣٦٥٧) والحاكم عن أبي هريرة .

(٢) ابن سعد وابن عبد البر فى العلم كما فى كنز العمال جـ ١ حديث رقم (١٤١٩) .

(٣) ذكرها ابن كثير فى التفسير (١ /٤٦٧ طبعة الحبى) ونسبها إلى أبى يعلى وقال : إسناده جيد وقوى .

وسئل يومًا عن مسالة فقال : لا علم لى بها . ثم قال : وابردها على الكبد، سئلت عما لا أعلم ، فقلت : لا أعلم [١].

وساله رجل عن مساله فأجابه ، فقال الرجل : ليس هكذا يا أمير المؤمنين ، ولكن كذا وكذا ، فقال علي :أصبت وأخطأت « وفوق كل ذى علم عليم» [٢].

٣- التواضع :

ومن أخلاق العلماء : التواضع .

فالعالم الحق لا يركبه الغرور ، ولا يستبد به العُجْب ، لأنه يدرك بيقين أن العلم بحر لا شطآن له ، ولا يصل أحد إلى قراره ، وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [الإسراء : ٨٥].

كما أنه يعلم أن قافلة العلم والعلماء مديدة طويلة ، ضاربة فى أغوار الماضى ، موصوله بالحاضر ، ممتدة فى المستقبل ، وليس هو إلا واحداً منها ، فلا ينبغى له أن يغمط فضل السابقين ، أو ينكر جهد اللاحقين .

وليس هناك من أحاط بكل شئ علما إلا الله تعالى . أما الإنسان فهو يعرف شيئًا وتغيب عنه أشياء ، ويعرف اليوم ما كان يجهل بالأمس ، ويعرف اليوم ما ينساه فى الغد ، ويعرف الظاهر من الأشياء دون الباطن ، والحاضر دون المستقبل.

وأكثر الناس ادعاء للعلم والمعرفة هم أنصاف المتعلمين ، وأشباههم الذين لا يعرفون من العلم إلا القشور دون اللباب ، والسطوح دون الأعماق .

وأما من اتسع أفقه ، وعمق إدراكه ، فهو يكتشف مع كل حقيقة جديدة أنه يجهل أكثر مما يعلم ، وأن العلم أكبر من أن يحاط به ، وكفى بهذا الاعتراف علماً .

يقول الإمام الشافعي :

كُلَّما أدبنَى الدهـــــر أرانى نقص عقلى
أو أرانى ازددت علماً زادنى علمى بجهلى!

---

(١) كنز العمال جـ ١ حديث رقم (١٤٣٧).

(٢) نفسه رقم (١٤٣٦) وقال : رواه ابن جرير وابن عبد البر فى العلم .

ذكر الحافظ المنذرى فى كتابه « الترغيب والترهيب » تحت عنوان (الترهيب من الدعوى فى العلم والقرآن) ما رواه الشيخان عن أبى بن كعب عن النبى ﷺ قال : « قام موسى عليه الصلاة والسلام خطيباً فى بنى إسرائيل ، فسئل : أى : الناس أعلم فقال : أنا أعلم ، فعتب الله عليه ؛ إذ لم يرد العلم إليه ، فأوحى الله إليه : أن عبداً من عبادى بمجمع البحرين هو أعلم منك . قال : يا رب : كيف به ؟ فقيل له : احمل حوتاً فى مكتل [1] فإذا فقدته فهو ثم ... فذكر الحديث في اجتماعه بالخضر ... إلى أن قال : فانطلقا يمشيان علي ساحل البحر ، ليس لهما سفينة ، فمرت بهما سفينة فكلموهم أن يحملوهما فعرف الخضر فحملوهما بغير نول [2] ... فجاء عصفور فوقع على حرف السفينة ، فنقر نقرة أو نقرتين في البحر ، فقال الخضر : يا موسى ، ما نقص علمى وعلمك من علم الله إلا كنقرة هذا العصفور فى هذا البحر » ! والعلم فى هذه العبارة الأخيرة بمعنى المعلوم .

وهذا ما أراد عبد الله الخضر أن يؤكده لكليم الله موسى عليه السلام : أن علم البشر لا يعد شيئًا يذكر بالنسبة إلي علم الله تعالي .

وهذا ما جعل فحول العلماء من فرسان علم الكلام ، الذين حصلوا أفكار المتقدمين والمتأخرين ، والذين حاولوا يوماً ما الغوص إلي كنه الحقائق الكبرى ، فلم يحصلوا فى النهاية على طائل ، وهلك منهم الظهر ، وانقطع بهم الطريق ، وقال في ذلك قائلهم وهو فخر الدين الرازى إمام المتكلمين فى عصره ، وصاحب التفسير الكبير ، والكتب المشهورة فى الكلام والأصول :

العلم للرحمن جل جلاله وسواه فى جهلاته يتغمغم

ما للتراب وللعلوم ، وإنما يسعى ليعلم أنه لا يعلم ؟

وقد روى مثل هذا عن عدد من الكبار مثل الباقلانى وإمام الحرمين والشهرستانى وغيرهم .

---

(١) مكتل بوزن منبر – وعاء يشبه الزنبيل يسع ١٥ صاعاً .

(٢) أى بغير أجر ينال ويعطى .

وقد جاء فى الحديث ذم أولئك المدعين المغرورين المنتفخين بما قرؤوا ، أو حصلوا من علم . ولو كانوا علماء حقًا لعرفوا قدر أنفسهم . وأنهم لم يؤتوا من العلم إلا قليلا . بل أقل من القليل .

عن عمر بن الخطاب قال : قال رسول الله - ﷺ - : « يظهر الإسلام حتى تختلف التجار فى البحار ، وحتى تخوض الخيل فى سبيل الله ، ثم يظهر قوم يقرؤون القرآن يقولون : من أقرأ منا ؟ من أعلم منا ؟ : من أفقه منا ؟ » ثم قال لأصحابه : « هل فى أولئك من خير ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال أولئك منكم من هذه الأمة ، أولئك هم وقود النار [1] » .

وإذا رزق العالم التواضع ، وقف عند حده ، وأنصف غيره ، وعرف له حقه، ولم يتطاول على الناس بالادعاء الباطل .

روى أبو عمر بن عبد البر عن إمام دار الهجرة مالك بن أنس قال : لما حج أبو جعفر المنصور دعانى ، فدخلت عليه فحدثته ، وسأل فأجبته ، فقال : إنى قد عزمت أن آمر بكتبك هذه التى وضعتها - يعنى الموطأ - فتنسخ نسخًا .، ثم أبعث إلى كل مصر من أمصار المسلمين منها نسخة ، وآمرهم أن يعملوا بما فيها ، لا يتعدوها إلى غيرها ، ويدعوا ما سوى ذلك من هذا العلم المحدث ، فإنى رأيت أصل هذا العلم رواية أهل المدينة وعلمهم .

قال : فقلت : يا أمير المؤمنين لا تفعل ، فإن الناس قد سبقت إليهم أقاويل، وسمعوا أحاديث ، ورووا روايات ، وأخذ كل قوم بما سبق إليهم ، وعملوا به ، ودانوا به ، من اختلاف الناس : أصحاب رسول الله - ﷺ - وغيرهم، وإن ردهم عما اعتقدوه شديد ، فدع الناس وما هم عليه ، وما اختار كل بلد لأنفسهم .

---

(١) قال المنذرى فى الترغيب حديث رقم (٢٢٩) : رواه الطبرانى فى الأوسط ، والبزار بإسناد لا بأس به وعزاه الهيثمى إلى الطبرانى فى الأوسط والبزار ورجال البزار موثقون مجمع الزوائد : (١ / ١٨٦) . ورواه أبو يعلى والبزار والطبرى أيضًا من حديث العباس بن عبد المطلب . وذكر المنذرى حديثًا آخر عن ابن عباس مرفوعا يعد شاهدًا له . وقال فيه : رواه الطبرانى فى الكبير وإسناده حسن إن شاء الله تعالى .

فقال أبو جعفر : لعمرى لو طاوعنى علي ذلك لأمرت به ، قال أبو عمر بعد ذكر هذه القصة : وهذا غاية فى الإنصاف لمن فهم [١].

وروى بسنده إلي عبد الرحمن بن القاسم أنه قال لمالك : ما أعلم أحداً أعلم بالبيوع من أهل مصر . فقال له مالك : وبم ذلك ؟ قال : بك . قال : فأنا لا أعرف البيوع فكيف يعرفونها بى ؟! [٢].

هذا هو موقف العلماء حقًا : تواضع لله ، وإنصاف من النفس ، وتقدير لموقف الآخرين ، والتماس الأعذار لهم .

روي مسلم عن أبى هريرة أن النبى - ﷺ - قال : « إذا سمعت الرجل يقول هلك الناس ، فهو أهلكُهم » [٣].

وذلك إذا دلت حاله على أنه يقول ذلك إعجاباً بنفسه ، وتيهًا بعلمه أو عبادته ، واستصغاراً لشأن الآخرين ، وازدراء لما هم عليه .

وقد رويت كلمة (أهلكهم) بضم الكاف وفتحها ، ومعناها علي الضم ، أنه أشدهم هلاكًا ، أو أحقهم بالهلاك ، أو أقربهم إليه ، لذمّه للناس وذكره عيوبَهم ، ونسيانه عيوب نفسه ، وتكبره عليهم . وأما بالفتح فهو فعل ماض « أهلكهم » ، أى جعلهم هالكين لا أنهم هلكوا حقيقة ، أو أهلكهم ، لأنه أقنطهم من رحمة الله ، وأيأسهم من غفرانه .

قال الغزالى : إنما قاله ، لأن هذا القول يدل على أنه مزدر لخلق الله ، مغتر بالله آمن من مكره ، غير خائف من سطوته ، وقهره ، حيث رأى الناس هالكين ورأى نفسه ناجيًا ، وهو الهالك تحقيقًا مهما رأى ذلك . ويكفيه شراً احتقار الغير . فالخلق يدركون النجاة بتعظيمهم إياه لله ، فهم يتقربون إلي الله بالدنو منه، وهو متمقت إلى الله بالتنزه والتباعد منهم ، بأنه يترفع عن مجالستهم ، فما أجدره بالهلاك [٤].

---

(١) « جامع بيان العلم » جـ١ ص ١٥٩ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) رواه مسلم فى البر والصلة (٢٦٢٣) .

(٤) فيض القدير : ١ /٣٧٨

٤- العــــزة :

ومن أخلاق العلماء : العزة التى هى من أخص فضائل المؤمنين ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المنافقون : ٨] ، والعلماء هم صفوة المؤمنين .

والعزة شئ غير الغرور أو العجب أو الكبر ، وهى لهذا لا تنافى فضيلة التواضع التى تحدثنا عنها .

هى عزة فى مواجهة المستكبرين بالسلطان ، أو المتعالين بالثروة ، أو المزهوين بالقوة ، أو المفاخرين بالنسب ، أو المكاثرين بالعدد ، أو غير ذلك من أعراض الدنيا .

فهى عزة بالعلم والإيمان ، وليست عزة الإثم والعدوان ، عزة تلتمس من الله ولا تطلب من الناس ، ولا عند أبواب السلاطين ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ [فاطر : ١٠].

سأل الحجاج خالد بن صفوان : من سيد البصرة ؟ فقال له : الحسن البصرى فقال : وكيف وهو مولى ؟ أى ليس من قبائل العرب ذوى الحسب . فقال : احتاج الناس إليه فى دينهم ، واستغنى عن الناس فى دنياهم ، وما رأيت أحداً من أشراف أهل البصرة إلا وهو يروم الوصول فى حلقته إليه . يستمع قوله ويكتب علمه قال : هذا والله السؤدد [١] .

والاستغناء شعور قبل أن يكون ملْكًا لأشياء ، فإن من الناس من يملك القناطير المقنطرة ، وهو فقير النفس ، ممدود اليد إلى الغير ، وآخر صفر اليدين ، وهو يشعر بأنه أغنى من قارون . وفى الحديث : « ليس الغنى عن كثرة العرض ، إنما الغنى غنى النفس »[٢] . وهو الذى عبر عنه أبو فراس الحمدانى فى قصيدة له حين قال :

إن الغنى هو الغنى بنفسه ... ولو أنه عارى المناكب حاف!

ما كل ما فوق البسيطة كافيا ... وإذا قنعت فبعض شئ كاف!

---

(١) « جامع بيان العلم » جـ ١ / ٧٤ و ٧٥ .

(٢) متفق عليه من حديث أبى هريرة . اللؤلؤ والمرجان : (٦٢٤).

هذا الغنى النفسى هو الذى صوره الإمام الشافعى فى أبيات رائعة من شعره القوى العميق حيث يقول :

أمطرى لؤلؤاً جبال سرنديب وفيضى آبار تبريز تبرا!

أنا إن عشت لست أعدم قوتًا وإذا مت لست أعدم قبرا!

همتى همة الملوك ، ونفسى نفس حر ترى المذلة كفرا!

وإذا ما قنعت بالقوت عُمْرى فلماذا أهاب زيداً وعمرا؟!

ولما دخل أبو حازم على الخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك بطلب منه وساله فأجابه بقوة المؤمن ، وعزة العالم ، دون مجاملة فى الحق ، ولا مداهنة فى الدين ، فأعجب به الرجل ، وقال له :

هل لك أن تصحبنا – يا أبا حازم – فتصيب منا ونصيب منك ؟ قال : أعوذ بالله ! قال له سليمان : ولم ذاك ؟ قال : أخشى أن أركن شيئًا قليلاً ، فيذيقنى الله ضعف الحياة ، وضعف الممات ... وقال له سليمان : ارفع إلينا حوائجك – قال : تنجينى من النار وتدخلنى الجنة ! قال : ليس ذلك إلىّ . قال : فما لى إليك حاجة غيرها [1] .

هذه هى عزة العلماء ! عزتهم لأنهم يحفظون فى صدورهم كلمات الله ، ويحملون فى أيديهم مصابيح الهداية ، ويملكون فى خزائن قلوبهم أغلى الكنوز، وأثمن الثروات ، وأشرف المواريث ، وهو تراث النبوة ، التى بغيرها يعيش الخلق فى تيه المادية ، وظلام الجاهلية ، وضلالات الأهواء والأوهام . فمن أقوم منهم قيلاً ، وأهدى سبيلاً ؟

ولهذا روى فى الحديث : « من قرأ القرآن ثم رأى أن أحداً أوتى أفضل مما أوتى فقد استصغر ما عظم الله تعالى »[2] .

---

(١) أخرجه الدارمى فى سننه جـ ١ /١٢٥ .

(٢) قال العراقى فى تخريج أحاديث الإحياء : أخرجه الطبرانى من حديث عبد الله بن عمر بسند ضعيف .

وإذا كانت النبوة أشرف المواريث التى تنقطع دونها أمانى الخلق ، فإن المرتبة التى تليها فى الشرف والفضل هى رتبة وارثيها ، وهم العلماء .

ويقول عمرو بن العاص : من قرأ القرآن ، فقد أدرجت النبوة بين جنبيه ، إلا أنه لا يوحى إليه !

ومفهوم كلمة «قرأ القرآن» في الحديث ، وفى عرف الصحابة والقرون الأولى لا يعنى مجرد استظهاره ، وحفظ كلماته وحروفه دون تدبر له ، ولا فهم لمعانيه وأسراره ، وأحكامه ، إنما تعنى القراءة : العلم والفقه ، ولهذا كان العلماء يسمونهم (القراء) :

وقال أبو الأسود : ليس شئ أعز من العلم ، الملوك حكام علي الناس والعلماء حكام على الملوك .

أخذ هذا المعنى أحد الشعراء فقال :

إن الأكابر يحكمون على الورى   وعلى الأكابر يحكم العلماء!

وهذا هو الوضع الصحيح للعلماء : أن كلمتهم هى العليا ، لأنها قبس من كلمة الله ، هم الموجهون للحياة وللناس ، إلا إذا انقلبت الأوضاع ، ورضى العلماء أن يسيروا فى ركاب الأمراء . ورحم الله القاضى الجرجانى الذى قال :

ولو أن أهل العلم صانوه صانَهم   ولو عظموه فى النفوس لعُظِّما

ولكن أهانوه فهان ، ودنسوا   محياه بالأطماع حتى تجهما

٥- العمل بمقتضى العلم :

ومن أخلاقيات العلم الأصيلة فى الإسلام : العمل بمقتضى العلم ، علي معنى أن يكون هناك صلة بين العلم والإرادة ، فإن آفة كثير من الناس أن يعلم ولا يعمل ، أو يعمل بضد ما يعلم .

كالطبيب الذي يعرف ضرر مأكول أو مشروب علي صحته ، ولا يفتأ يتناوله استجابة لداعى الشهوة أو العادة . كالأطباء الذين يحاضرون فى أضرار التدخين ، وهم مسرفون فى تعاطيه !

وعالـم الأخلاق الذى يرى سلوكًا معينًا رذيلة وهو مقيم عليه ، متماد فيه، وعالم الديـن الذى يـرى عـمـلاً مـا منكرًا ، وقـد ينهى الناس عنه ، وهو يقترفه!

إن هذا النوع من العلم النظرى البحت لا يرضى عنه الإسلام . وربما كان الجهل فى تلك الحال خيراً منه .

إن العلم الحق هو الذى ينير بصيرة صاحبه ، ويجسم أمام عينيه الجزاء ، فيبدو البعيد قريبًا . والغائب حاضراً ، والآجل ناجزاً ، فتقوى عزيمته على البر والتقوى ، وتضعف رغبته فى الإثم والفجور .

وقد جاء فى حديث أبى كبشة الأنمارى عن النبى - ﷺ - قال :

« إنما الدنيا لأربعة نفر :

١- عبد رزقه الله مالاً وعلمًا ، فهو يتقى فيه ربه ، ويصل فيه رحمه ، ويعلم لله فيه حقًا فهذا بأفضل المنازل .

٢- وعبد رزقه الله علمًا ولم يرزقه مالاً ، فهو صادق النية ، يقول : لو أن لى مالاً لعملت بعمل فلان ، فهو بنيته ، فأجرهما سواء .

٣- وعبد رزقه الله مالاً ولم يرزقه علمًا : يخبط فى ماله بغير علم ، ولا يتقى فيه ربه ولا يصل فيه رحمه ، ولا يعلم لله فيه حقًا ، فهذا بأخبث المنازل .

٤- وعبد لم يرزقه الله مالاً ولا علمًا ، فهو يقول : لو أن لى مالاً لعملت فيه بعمل فلان ، فهو بنيته ، فوزرهما سواء »[١] .

وهنا نرى أثر العلم واضحًا فى سلوك صاحبه فى ماله ، فهو « يتقى فيه ربه، ويصل فيه رحمه ، ويعلم لله فيه حقًا » فهذا هو الغنى الشاكر ، وهو بأفضل المنازل كما جاء فى الحديث .

---

(١) رواه أحمد (٤ / ٢٣١) والترمذى فى الزهد (٢٣٢٦) واللفظ له وقال : حديث حسن صحيح . الترغيب حديث رقم (٢٠).

فإذا حرم المال ورزق العلم عاش والخير ملء جوانحه ، لا يمارسه عملاً ، ولكن يعيشه نية وأملاً . فهو بنيته ، فاجره وأجر الغنى الشاكر سواء .

فأما من حرم العلم ، سواء رزق المال أم لا ، فعاقبته ما ذكر الحديث الشريف : أخبث المنازل . سواء عاش فى السوء أم بنيته .

والعلم هنا ليس تحصيل معلومات سطحية من هنا وهناك ، ولكنه نور يقذفه الله فى قلب عبده ، فيمنحه اليقين والرسوخ ، ويبعده عن القلق والاضطراب ، وهذا هو العلم النافع .

العلم النافع حقًا هو الذى يرى الناس أثره على صاحبه : نوراً فى الوجه، وخشية فى القلب، واستقامة فى السلوك، وصدقًا مع الله، ومع الناس، ومع النفس .

أما مجرد التشدق بالكلام المزوق، والثرثرة بالقول المعسول من طرف اللسان، دون أن يصدق القول العمل، فهذا هو شأن المنافقين الذين يقولون مالا يفعلون، ويأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم، وهم يتلون الكتاب، ويقرؤون الأحاديث .

وهو ما أنكره القرآن على بنى إسرائيل : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : ٤٤] .

كأنما يشير القرآن أن مناقضة العلم للعمل، والقول للفعل، ضرب من الجنون، أو لون من الفصام الذى لا يليق بالعقلاء . وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف : ٢، ٣]

ومن قرأ الأحاديث النبوية فى هذا الباب ينخلع قلبه من هول الوعيد الذى يتهدد هذا الصنف من حملة العلم، الذين سماهم الإمام الغزالى : « علماء الدنيا » .

عن أسامة بن زيد أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « يجاء بالرجل يوم القيامة

فيلقى فى النار، فتندلق أقتابه [1]، فيدور بها كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع أهل النار عليه، فيقولون: يا فلان، ما شأنك؟ ألست كنت تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر؟! فيقول: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه وأنهاكم عن الشر وآتيه » [2].

وعن أنس: وإنى سمعته يقول - يعنى النبى ﷺ - « مررت ليلة أسرى بى بأقوام تقرض شفاهم بمقاريض من نار. قلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: خطباء أمتك الذين يقولون ما لا يفعلون » [3].

هؤلاء الذين يُحسنون الكلام ولا يحسنون العمل، وينتسبون إلى العلم ولا يقومون بحقه. يكونون فتنة على الأمة، لأنهم موضع القدوة.

وهناك صنفان إذا صلحا صلح الناس، وإذا فسدا فسد الناس، الأمراء والعلماء [4]. ورحم الله الشاعر الذى قال:

يا أيها العلماء يا ملح البلد ما يصلح الملحَ إذا الملحُ فسد؟!

وهذا ما كان يخافه النبى ﷺ على أمته، فقد قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب: حذرنا رسول الله - ﷺ - كل منافق عليم اللسان [5].

وعن عمران بن حصين عن النبى ﷺ: « إن أخوف ما أخاف عليكم بعدى كل منافق عليم اللسان » [6].

وعن على بن أبى طالب مرفوعًا: « إنى لا أتخوف على أمتى مؤمنًا ولا مشركًا. فأما المؤمن فيحجره إيمانه، وأما المشرك فيقمعه كفره،

---

(١) أقتابه: أمعاؤه ... وتندلق: تخرج من مكانها.

(٢) متفق عليه، اللؤلؤ والمرجان (١٨٨٢). (٣) رواه أحمد (٣/ ١٢٠).

(٤) روى هذا مرفوعا من حديث ابن عباس بسند ضعيف، أخرجه ابن عبد البر، وأبو نعيم فى الحلية، كما قال العراقى فى تخريج الإحياء.

(٥) قال الهيثمى فى « المجمع » (١/ ١٨٧): رواه الزار، وأحمد، وأبو يعلى ورجاله موثقون. وقال الشيخ شاكر: إسناده صحيح. انظر: الحديث (١٤٣) و(٣١٠) من المسند.

(٦) رواه الطبرانى فى الكبير، والبزار ورواته محتج بهم فى الصحيح المجمع (١/ ١٨٧) كما فى « الترغيب » حديث (٢٢٤).

ولكن أتخوف عليكم منافقًا عالم اللسان. يقول ما تعرفون ويعمل ما تنكرون »[1].

وعن جابر قال: قال رسول الله - ﷺ - « العلم علمان: علم في القلب، فذلك العلم النافع، وعلم على اللسان، فذلك حجة الله على ابن آدم »[2].

فعلم المرء إما حجة له - وذلك إذا عمل به - وإما حجة عليه إذا أصبح مجرد حامل له شأن اليهود الذين حُمِّلوا التوراة كلامًا، ولم يحملوها عملاً والتزامًا، فكانوا كما قال تعالى: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾ [الجمعة: ٥] أو كذلك الذى آتاه الله آياته فانسلخ منها، ولم يرتفع بها من حضيض المادية فى التفكير والحيوانية فى السلوك، ﴿ وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

ومن ثم كان رسول الله - ﷺ - يستعيذ بالله من العلم الذى لا ينفع وهو العلم الذى ينفصل عن الأخلاق، لأنه يصبح وبالاً على صاحبه، وقد يكون وبالاً على من حوله كذلك.

فعن زيد بن أرقم أن رسول الله - ﷺ - كان يقول: (اللهم إنى أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها »[3].

هذا النوع من العلماء الذين تكذب أفعالهم أقوالهم، وسريرتهم

---

(١) قال فى (الترغيب) رقم (٢٢٣)، رواه الطبرانى فى الصغير، والأوسط من رواية الحارث وهو الأعور - وقد وثقه ابن حبان وغيره. اهـ، والحارث ضعيف ولكن يشهد له الحديثان قبله.

(٢) قال فى الترغيب (١٣٩): رواه الحافظ أبو بكر الخطيب بإسناد حسن. وابن عبد البر فى كتاب العلم عن الحسن مرسلاً بإسناد صحيح.

(٣) رواه مسلم فى الزهد والدعاء والتوبة (٢٧٢٢).

علانيتهم، يمثلون فتنة لجمهور الناس، لأن الناس يتأثرون بالحال أكثر من التأثر بالمقال، حتى قيل: حال رجل فى ألف رجل أبلغ من مقال ألف رجل فى رجل.

ومهما حاولت أن تقول للناس: خذوا من العالم علمه، ودعوا عمله. أو كما قال الشاعر:

اعمل بعلمى وإن قصرت فى عملى ... ينفعك علمى ولا يضررك تقصيرى!

فإن الناس لن يسمعوا لك.

وفى هذا روى عن الإمام على رضى الله عنه قوله: «قصم ظهرى رجلان: جاهل متنسك، وعالم متهتك. ذاك يغرهم بتنسكه، وهذا يضلهم بتهتكه!» ويزداد خطر هذا الصنف إذا أصبحوا أبواقًا لأمراء السوء، وحكام الجور، يزينون لهم قبيح ما يصنعون، ويجرئونهم بفتاويهم على التمادى فيما هم فيه سائرون.

وهذا ما أفسد الأديان من قبل، وما شكى منه المخلصون المصلحون من بعد يقول الإمام عبد الله بن المبارك:

وهل أفسد الدينَ إلا الملوكُ ... وأحبار سوء ورهبانها

لقد رتع القوم فى جيفة ... يبين لذى اللب إنتانها

وفى حديث رواه أبو الدرداء مرفوعًا:

«أنزل الله فى بعض الكتب، أو أوحى إلى بعض الأنبياء: قل للذين يتفقهون لغير الدين، ويتعلمون لغير العمل، ويطلبون الدنيا بعمل الآخرة، يلبسون للناس مسوك الكباش (جلود الضأن) وقلوبهم كقلوب الذئاب، ألسنتهم أحلى من العسل، وقلوبهم أمر من الصبر. إياى يخادعون، وبى يستهزؤون: بى حلفت لأتيحن لهم فتنة تذر الحليم فيهم حيران [1]».

---

(١) «جامع بيان العلم» ج ١ ص ٢٣١/٢٣٢.

الحرص على نشر العلم:

ومن أخلاق العلماء: الحرص على نشر العلم وتبليغه ونفع الناس به، فلا خير في علم يكتم، كما لا خير في مال يكنز، فإنما جعل العلم لينشر، كما جعل المال لينفق.

وكان النبي - ﷺ - يحض أصحابه على تبليغ ما يسمعونه منه، لينتفع به من بعدهم زمانًا، ومن وراءهم مكانًا ، ففي حجة الوداع ألقى بيانه العظيم عن الإسلام ثم قال في ختامه: «ليبلغ الشاهد منكم الغائب»، (متفق عليه من حديث أبي بكرة).

وفي حديث عبد الله بن عمرو، عن النبي - ﷺ -: «بلغوا عني ولو آية» رواه البخاري في صحيحه باب ما ذكر عن بني إسرائيل.

وروى ابن مسعود مرفوعًا «نضر الله امرءًا سمع منا شيئًا فبلغه كما سمعه فرب مبلغ أوعى من سامع» [1].

وعن زيد بن ثابت مرفوعًا: «نضر الله امرءًا سمع منا حديثًا فبلغه غيره، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ورب حامل فقه ليس بفقيه» [2].

وهذه الأحاديث وما في معناها هي التي جعلت الصحابة - رضي الله عنهم - يحرصون على تبليغ ما يحملون في صدورهم من علم النبوة، حتى إن أبا ذر نهاه الخليفة الثالث عثمان عن الفتيا، ولكنه - رغم إيمانه بوجوب طاعة الإمام - رأى أن طاعته في هذا الأمر خاصة غير ملزمة، لأن أمر الرسول بالتبليغ أقوى من نهي الإمام عن الفتيا.

---

(١) رواه الترمذي في العلم (٢٦٥٩) وقال: حديث حسن صحيح، وابن حبان في صحيحه كما في الإحسان (٦٦) ومعنى نضره: جملة وزينه من النضرة وهي البهجة والحسن كما في الترغيب حديث ١٥٠ .

(٢) رواه أبو داود في العلم (٣٦٦٠) والترمذي في العلم (٢٦٥٨) وقال: حديث حسن وابن حبان في صحيحه كما في الإحسان (٦٧).

ولما اجتمع عليه الناس في موسم الحج يستفتونه وقف عليه رجل من قريش، ثم قال له: ألم تُنه عن الفتيا؟

فرفع رأسه إليه فقال: أرقيب أنت عليّ؟ لو وضعتم الصمصامة (يعني السيف الصارم الذي لا ينثني) على هذه - وأشار إلى قفاه - ثم ظننت أني أنفذ كلمة سمعتها من النبي - ﷺ - قبل أن تجهزوا عليّ لأنفذتها »[1].

ويقوى موقف أبي ذر: الآيات والأحاديث التي حذرت أبلغ التحذير من كتمان العلم، واحتجازه عمن ينتفع به من الناس وخصوصا عند الطلب والسؤال.

وكان أبو هريرة يقول: إن الناس يقولون: أكثر أبو هريرة، ولولا آيتان في كتاب الله ما حدثت حديثا. ثم يتلو: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ١٥٩، ١٦٠].

ومثلهما قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

وروى أبو هريرة عن النبي - ﷺ - قال: « من سُئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار »[2].

---

(١) رواه البخاري معلقا في كتاب العلم من صحيحه. وقال الحافظ في الفتح ١ / ١٧٠: رويناه موصولاً في مسند الدارمي وفي الحلية. ومعلوم أن ما علقه البخاري بصيغة الجزم له حكم الصحة لدى جمهور العلماء.

(٢) رواه أبو داود في العلم (٣٦٥٨) والترمذي في العلم (٢٦٥١) وحسنه، وابن ماجه في المقدمة (٢٦١) وابن حبان في صحيحه كما في الإحسان (٩٥)، الترغيب / حديث (١٩٩).

ونحوه من حديث ابن عباس أيضاً [١].

ومن حديث عبد الله بن عمرو: «من كتم علمًا ألجمه الله ...» الحديث[٢].

قال الإمام ابن الأثير في «جامع الأصول»:

الممسك عن الكلام ممثَّل بمن ألجم نفسه بلجام.

والمعنى: أن الملجم نفسه عن قول الحق والإخبار عن العلم، يعاقب في الآخرة بلجام من نار.

وذلك في العلم الذي يلزمه تعليمه إياه، ويتعين عليه فرضه، كما رأى كافرًا يريد الإسلام فيقول: علموني: ما الإسلام؟ وما الدين؟ وكمن جاء مستفتيًا في حلال، أو حرام، فيقول: أفتوني، أرشدوني، فإنه يلزم في مثل ذلك أن يعرف الجواب، فمن منعه استحق الوعيد، وليس الأمر كذلك في نوافل العلم التي لا يلزم تعليمها [٣].

وإنما قال ابن الأثير ما قال، لأن وقت العالم وجهده لا يتّسعان لتبليغ كل علم وإجابة كل سائل ، فحاجة المتعلم، وأهلية العالم، وطاقته، وأهمية الموضوع، ووجود من يقوم بالأمر عداه أو عدمه، كل هذا يحدد: متى يجب الجواب ومتى لا يجب.

وإني ألمح في الحديث أن الوعيد إنما هو لمن ألجم نفسه عن الكلام، أي:

---

(١) رواه أبو يعلى، ورواته ثقات يحتج بهم في الصحيح والطبراني في الكبير والأوسط بسند جيد الترغيب (٢٠١) كما قال الهيثمي في المجمع (١/١٦٣) ولم يذكر الأوسط.

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه كما في الإحسان (٩٦) والحكام وقال: صحيح لا غبار عليه. الترغيب حديث ١٠٠ وذكر المنذري أن حديث الوعيد على كتمان العلم قد روى عن جماعة من الصحابة غير من ذكر منهم.

(٣) جامع الأصول ج ٨ ص ١٢ حديث رقم (٥٨٣٧).

تعمد السكوت طمعًا أو خوفًا من الناس وبهذا يكتم الشهادة ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٤٠].

وهذا ما أنكره القرآن على أهل الكتاب ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

على أن نوافل العلم أيضًا يلزم نشرها، وتبليغها لأهلها بأى وسيلة من وسائل النشر والتبليغ شفاهًا أو كتابة، فالقلم أحد اللسانين، ولا سيما إذا جاء من يطلبها حرصًا عليها ورغبة فيها، فلا يسع من يحملها إلا أن يؤديها كما أديت إليه، حتى يتوارث العلم ويحيا.

وهذا من فروض الكفاية.

وقد يتعين على بعض العلماء لأهليته الخاصة للإفادة.

ولهذا كان بعض الصحابة يبلغون بعض أحاديث سمعوها من رسول الله ﷺ وخشوا أن يفهمها الناس على غير وجهها، فيخبرون بها فى اللحظات الأخيرة من حياتهم تأثما، وتحرجًا، أن يموتوا فتموت الحقيقة العلمية معهم. فعن أبى أيوب الأنصارى أنه قال حين حضرته الوفاة: كنت كتمت عنكم حديثًا سمعته من رسول الله - ﷺ - وسوف أحدثكموه وقد أحيط بنفسى سمعته يقول «لولا أنكم تذنبون لذهب الله بكم وخلق خلقًا يذنبون فيغفر الله لهم»[1].

وعن أنس بن مالك أن رسول الله - ﷺ - ومعاذ رديفه على حمار قال: «يا معاذ بن جبل»: قال: لبيك يا رسول الله وسعديك - ثلاثًا - قال: «ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صدقًا من قلبه إلا حرمه الله على

---

(١) أخرجه مسلم فى التوبة حديث رقم (٢٧٤٨)، والترمذى فى كتاب الدعوات (٣٥٣٣) وروى مسلم نحوه من حديث أبى هريرة أيضًا رقم (٢٧٤٩).

النار». قال: يا رسول الله، أفلا أخبر به الناس فيستبشروا؟ قال: «إذن يتكلوا...» وأخبر بها معاذ عند موته تأثماً»[1].

وهكذا كان تلاميذ الصحابة ومن تبعهم بإحسان أحرص الناس على نشر العلم وتعليمه ومدّ أشعته في الناس، فإذا لم يجدوا من يأخذ عنهم ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم، أو فكروا في الرحيل إلى بلد آخر.

قال عطاء: دخلت على سعيد بن المسيب وهو يبكي فقلت: ما يبكيك؟ قال: ليس أحد يسألني عن شئ!

وحكوا عن سفيان الثوري: أنه لما قدم عسقلان مكث لا يسأله إنسان ... فقال: اكروا لي، (أي راحلة) لأخرج من هذا البلد. هذا بلد يموت فيه العلم.

وذكر ذلك الغزالي في «الإحياء» ثم قال: إنما فعل ذلك حرصاً على فضيلة التعليم واستبقاء العلم به.

مسائل وملاحظات تتعلق بكتمان العلم ونشره:

وهنا عدة مسائل «تتعلق» بكتمان العلم ونشره، ينبغي لنا أن نعرض لها، ونلقي بعض الضوء عليها.

متى يجوز حجب بعض المعلومات؟

الأولى: إن من حق العالم أن يحجب بعض المعلومات عن بعض الناس، لمصلحة يراها ولو سئل عنها، لما يترتب على بثها من ضرر أكبر من نفع العلم بها.

وقد يدع الجواب عن مسألة تأديباً للسائل المتعنت، أو إرشاداً له إلى الاشتغال بما هو أهم وأنفع، أو غير ذلك من الاعتبارات.

---

(١) متفق عليه، اللؤلؤ والمرجان: (٢٠).

وفى الصحيح: «كفى بالمرء إثما أن يحدث بكل ما سمع» [1].

وعن أبى هريرة قال: حفظت من رسول الله - ﷺ - وعائين فأما أحدهما فبثثته، وأما الآخر فلو بثثته قطع هذا البلعوم [2] يكنى بذلك عن القتل.

قال الحافظ ابن حجر: حمل العلماء الوعاء الذى لم يبثه على الأحاديث التى فيها تعيين أسامى أمراء السوء وأحوالهم وزمنهم.

وقد كان أبو هريرة يكنى عن بعضه ولا يصرح به خوفًا على نفسه منهم كقوله: «أعوذ بالله من رأس الستين، وإمارة الصبيان» يشير إلى خلافة يزيد، وقد استجاب الله له فمات قبلها بسنة [3].

حكم إعارة الكتب:

الثانية: قال بعض العلماء: يشمل الوعيد - على كتمان العلم - حبس الكتب عن الطالب لا سيما عند عدم التعدد. قال: والابتلاء بهذا كثير [4] اهـ.

ومقتضى هذا وجوب إعارة الكتب لطلاب العلم إذا احتاجوا إليها، ذلك

---

(١) رواه مسلم فى مقدمة صحيحه (٥). (٢) رواه البخارى فى كتاب العلم (١٢٠).

(٣) نقل الحافظ أيضا عن ابن المنير قوله: جعل الباطنية هذا الحديث ذريعة إلى تصحيح باطلهم، حيث اعتقدوا أن للشريعة ظاهراً وباطناً، وذلك الباطن إنما حاصله الانحلال من الدين، قال: وإنما أراد أبو هريرة بقوله: «قطع ...» أى قطع أهل الجور رأسه إذا سمعوا عيبه لفعلهم، وتضليله لسعيهم، ويؤيد ذلك أن الأحاديث المكتومة لو كانت من الأحكام الشرعية، ما وسعه كتمانها، لما ذكره فى الحديث الأول من الآية الدالة على ذم من كتم العلم وقال غيره: يحتمل أن يكون أراد - مع الصنف المذكور - ما يتعلق بأشراط الساعة وتغير الأحوال والملاحم فى آخر الزمان، فينكر ذلك من لم يألفه، ويعترض عليه من لا شعور له به» أ هـ «الفتح» ج ١ /٢٢٧ طبعة الحلبى.

(٤) نقله العلامة القارى فى شرح «المشكاة» عن السخاوى فى «المقاصد الحسنة» انظر المرقاة ج ١/٢٣٥.

لأن منعها - فيما أرى - يدخل أيضًا فى باب منع الماعون، المتوعد عليه بالويل فى كتاب الله. وهو أيضًا أشبه بكنز المال، وعدم الإنفاق منه فى سبيل الله، وفيه من الوعيد ما فيه. ولكن وجوب هذا فى رأيى مقيد بشروط:

(١) أن يكون طالب الكتاب فى حاجة حقيقية إليه لا يغنى عنه غيره.

(٢) ألا توجد مكتبات عامة يمكنه استعارة الكتاب منها خارجيًا أو داخليًا.

(٣) ألا يستطيع شراء الكتاب، لعدم وجوده فى السوق، أو لعجزه عن شرائه.

(٤) ألا يكون معروفًا بالإهمال وإضاعة الكتب أو تعريضها للتلف.

(٥) ألا يكون صاحب الكتاب فى حاجة إليه، لأن حاجته مقدمة على حاجة غيره. وفى الحديث: «ابدأ بنفسك» وفى آخر «ابدأ بمن تعول».

حق التأليف والنشر:

الثالثة: ذهب بعض العلماء فى عصرنا إلى أن من موجب الكتمان المحرم أن يمنع المؤلف نشر كتابه إلا بإذن منه، وتعاقد معه، وأخذ أجرة عليه، وإنما يجب أن يمنحه لمن شاء طبعه، ونشره دون حجر ولا احتكار، وبغير مقابل.

وأنكروا ما اصطلح الناس فى عصرنا على تسميته حقوق التأليف أو النشر أو التوزيع وهذه قضية هامة وعامة، تحتاج إلى تمحيص وتحقيق، لم أفرغ له.

ويشبه الكلام فى هذا الموضوع - إلى حد كبير - ما ثار من جدل قديم بين الفقهاء حول القربات الدينية وأخذ الأجرة عليها مثل: الأذان والإمامة فى الصلوات، وخطبة الجمعة، والوعظ والتذكير بالمساجد، ونحوها، مما هو فى الأصل واجب دينى يجب على المسلم أن يفعله احتسابًا، ويقوم به من غير مقابل مادى، تقربًا إلى الله تعالى بأداء الواجب.

وقد انتهى هذا الجدل والخلاف باتفاق المتأخرين من علماء المذاهب على جواز أخذ الأجرة، لتغير الزمان، وخوفًا على هذه الأعمال الدينية أن تتعطل، ولا تجد من يتطوع للقيام بها، فاقتضت مصلحة الدين وعمارة بيوته واستمرار إقامة شعائره، إباحة أخذ الأجرة.

على أن مما يجب التنبيه عليه هنا جملة أمور:

أولاً: أن الكتاب ملك لمؤلفه، ولهذا ينسب إليه، ويحسب عليه، ويحاسب على أخطائه. وملكيته هنا ملكية علمية أدبية. وهو أمر اعترف به العالم كله في قوانينه المدنية.

ولا ريب أن من ملك شيئًا أصبح حر التصرف فيه، وأصبح من حقه الانتفاع بثمراته، وهذه من لوازم الملكية. فإذا كان من يملك بيتًا له الحق أن يسكنه أو يؤجره أو يبيعه، فكذلك من يملك كتابًا.

ثانيًا: أن الكتاب العلمي لا يأتي عفواً، وإنما هو ثمرة كفاح طويل، كون به صاحبه شخصيته العلمية، ثم هو نتيجة جهد جهيد، وسهر بالليل، وعرق بالنهار لا يعرفه إلا من عاناه، وربما استغرق الكتاب من صاحبه سنين حتى يبرز إلى حيز الوجود، أو قل حتى تأتي ساعة المخاض، فهو إذن كسب من وراء عمل طويل مختزن في كتابه، كما أن المصنع أو العمارة ثمرة جهد طويل. اختزنه فيها منشئ المصنع أو صاحب العمارة.

ثالثا: أن حياة العالم المؤلف ليست حياة سهلة، كحياة سائر الناس، إنها حياة تتطلب جهداً خاصًا زائداً على جهود العاديين من الناس، كما تتطلب نفقات خاصة زائدة أيضًا على نفقات الآخرين.

فالعالم المؤلف يحتاج إلى مكتبة غنية بالمصادر المهمة ويحتاج إلى من يساعده في النقل أو التبييض أو الطباعة، ويحتاج لمن يساعده في شؤون أسرته حيث لا يمكنه أن يتفرغ لأمورهم ورعايتهم، كما يتفرغ سائر الناس. وبدون هذا لا يستطيع أن ينتج علمًا حقيقيًا. فأنى له أن يغطي هذه النفقات، وإن كان

موظفًا فى جامعة أو وزارة أو مؤسسة، إن لم يكن له من مؤلفاته ما يعطيه بعض العوض؟.

رابعًا: أن المؤلف قد يصدر طبعة من كتاب، ثم يتراءى له بعد صدوره أشياء تقتضيه أن يضيف أو يحذف أو يعدل، بناء على اطلاع جديد أو تغير اجتهاد أو اقتراح مقبول، أو غير ذلك.

فإذا لم يعلم الطابع أو الناشر ماذا عند المؤلف من تعديلات، وتنقيحات فإنه سينشر الكتاب على ما كان عليه، ويلزم المؤلف ما لم يعد يلتزمه.

وقد كان علماؤنا قديمًا لا يستبيحون رواية كتاب عالم ما إلا (بإجازة) منه، وقد كان بعض العلماء يعطى بعض طلابه (إجازة خاصة) برواية كتاب معين. وأحيانا يمنحه (إجازة عامة) برواية كتبه كلها.

وهذه الإجازة تشبه حق الطبع أو النشر فى زمننا، أضيف إليها عنصر جديد وهو: أن المؤلف يتقاضى أجرًا على جهده فى التأليف، ويشارك الناشر فى جزء من الربح الذى يصيبه من وراء نشر الكتاب.

ولكن الأمر الذى يجب تأكيده والتشديد فيه حقًا هو ألا يستغل الناشرون والمؤلفون حاجة القراء إلى كتاب ما، فيغالوا فى سعره، كما فى كثير من الكتب الجامعية، والكتب التى يقبل عليها الجمهور، فزيادة الأسعار بما لا يتغابن الناس فى مثله غير مشروع.

* * *

التّعَلّم وآدابُه

ضرورة التعلم:

يولد الإنسان غفلاً من العلم، ولكن الله سبحانه وتعالى فطره على حُبٍّ المعرفة واستطلاع ما يجهل، ووهب له من أدوات العلم ما يستطيع به أن يعرف نفسه ويطل على الوجود من حوله، يقول الله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٨].

وبهذا استطاع الإنسان أن يتعلم، ويكتشف سنن الكون وحقائق الوجود عن طريق السمع والرواية، وعن طريق البصر والملاحظة، وعن طريق الفؤاد والتفكير. وهى الوسائل التى استودعها الله الإنسان، وسيسأل عنها أمام الله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦].

وبهذه الوسائل يتمكن الإنسان أن يكتسب علم الدنيا، وأن يحصل علم الدين، إذا شحذ همته لطلب العلم، ولم تشغله شواغل الدنيا عن التعلم.

هكذا قضت سنة الله: أن السماء لا تمطر على الإنسان علمًا، وهو قاعد فى بيته، إنما يدرك العلم مَن طلبه، وعانى فى تحصيله.

وهذا ما نطق به الحديث النبوى الشريف: «يا أيها الناس تعلموا. إنما العلم بالتعلم، والفقه بالتفقه، ومن يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين» (١).

---

(١) قال الحافظ فى «الفتح» ج ١ ص ١٧٠: أورده ابن أبى عاصم، والطبرانى من حديث معاوية وإسناده حسن، لأن فيه مبهماً، اعتضد بمجيئه من وجه آخر، وروى البزار نحوه من حديث ابن مسعود موقوفاً، ورواه أبو نعيم الأصبهانى مرفوعا. وفى الباب عن أبى الدرداء وغيره، فلا يغتر بقول من جعله من كلام البخارى ا هـ.

ولا يجوز للمسلم أن يعيش مقطوع الصلة بالعلم، فمن لم يكن عالمًا، فيكن متعلمًا، ومن لم يكن متعلمًا فليكن مستمعا، وإلا فليكن محبًا لهؤلاء، وذلك أضعف الإيمان.

عن أبى بكرة قال: سمعت النبى ﷺ يقول: «اغد عالما أو متعلمًا أو مستمعًا، أو محبًا، ولا تكن الخامسة فتهلك» قال عطاء: قال لى مسعر: «زدتنا خامسة لم تكن عندنا، والخامسة أن تبغض العلم وأهله» [1].

ما يجب على كل مسلم تعلمه:

حث الرسول ﷺ على التعلم أعظم الحث، ورغب فيه كل الترغيب، حتى جعله فريضة لازمة، وذلك في الحديث الذى اشتهر على الألسنة، حتى حفظه الكبير والصغير والخاص والعام: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»[2].

أى: على كل إنسان مسلم ذكرا كان أم أنثى، ولهذا يرويه جمهور الناس ... على كل مسلم ومسلمة، والمعنى صحيح، ولكن اللفظ لم يرد.

ولكن ما العلم الذى جعل الحديث طلبه فرضًا على كل مسلم؟

قد تباينت الأقوال وتناقضت الآراء، فى هذا العلم المفروض على نحو عشرين قولاً، كما يقول العلامة المناوى - فكل طائفة تقيم الأدلة على فرضية علمها هى، وكل لكل معارض، وبعض لبعض مناقض.

---

(١) رواه الطبرانى فى معاجمه الثلاثة والبزار ورجاله موثقون كما فى مجمع الزوائد ج ١/١٣٢.

(٢) رواه ابن ماجه فى المقدمه (٢٢٤)، وابن عبد البر فى العلم، والبيهقى فى شعب الإيمان من حديث أنس، ورواه الطبرانى فى الكبير عن ابن مسعود، وفى الأوسط عن ابن عباس، وأبى سعيد وغيرهم وفى طرقه كلها مقال، لذا ضعفه ابن القطان وابن عبد البر والنووى، وغيرهم لكن قال الأخيران: معناه صحيح، لكن قال الزركشى فى اللآلئ: روى من طرق تبلغ درجة الحسن، وكذا قال الحافظ المزى وقال السيوطى: جمعت له خمسين طريقا، وحكمت بصحته لغيره، ولم أصحح حديثًا لم أسبق لتصحيحه سواه. وقال السخاوى: له شاهد عند ابن شاهين بسند رجاله ثقات عن أنس. أنظر الجامع الصغير أحاديث ٥٢٦٤، ٥٢٦٧ وتعليق المناوى عليها فى فيض القدير ج ٤ ص ٢٦٧/٢٦٨.

فمن متكلم يحمل العلم هنا على علم الكلام، ويحتج لذلك بأنه العلم المتقدم رتبة لأنه علم التوحيد، الذى هو أساس البناء.

ومن فقيه يحمله على الفقه، إذ هو علم الحلال والحرام، وبه يعرف المسلم كيف يعبد الله، وكيف يعامل الناس، ويقول: إن ذلك هو المتبادر من إطلاق العلم فى عرف الشرع.

ومن مفسر يرى أن أولى ما يطلق عليه العلم هو العلم بالمراد من كلام الله تعالى بقدر الطاقة البشرية، وهذا هو علم التفسير.

ومن محدث يحمل العلم على معرفة السنن والآثار، والتى بها بيان القرآن، وفيها تفصيل ما أجمل، وتبيين ما أبهم، وتخصيص ما عمم، وتقييد ما أطلق، وهى مع القرآن - حبل النجاة.

ومن نحوى يحمله على علم العربية، إذ الشريعة إنما تتلقى من الكتاب والسنة، وقد قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم: ٤] فلا بد من إتقان العربية ليعرف البيان المشار إليه فى الآية الكريمة.

ومن متصوف يحمله على علم العبد بحاله، ومقامه من الله عز وجل، أو العلم بالإخلاص وآفات النفوس، ومداخل الشيطان إليها ... إلخ.

وقال أبو طالب المكى: هو العلم بما يتضمنه الحديث الذى فيه مبانى الإسلام «بُنى الإسلام على خمس ... إلخ» لأن الواجب هذه الخمس. فيجب العلم بكيفية العمل فيها، ويكفيه الوجوب [١].

وهكذا تعددت الآراء، واختلفت الأقوال، ولكل وجهة هو موليها والذى أراه أن العلم الواجب طلبه وتعلمه، عينًا - على المسلم هو ما لا بد له منه فى دينه أو فى دنياه.

أما فى دينه، فلا بد له أن يتعلم من علوم الشرع:

---

(١) انظر: الإحياء ج ١/ ١٤ وما بعدها وفيض القدير ج ٤/ ٢٦٧، ٢٦٨.

١ – ما يعرف به عقيدته معرفة يقينية صحيحة، سالمة من الشركيات والخرافات.

٢ – وما يصحح به عبادته لربه ظاهراً، بأن تكون على الصورة المشروعة، وباطنًا بأن تتوافر فيها النية الخالصة لله تعالى.

٣– وما يزكي به نفسه ، ويطهر به قلبه ، بأن يعرف الفضائل «المنجيات» ليتحراها ويتخلق بها ، ويعرف الرذائل «المهلكات» ليتجنبها ويتوقاها .

٤– وما يضبط به سلوكه في علاقته مع نفسه ، أو مع أسرته ، أو مع الناس، حكامًا ومحكومين مسلمين وغير مسلمين ، فيعرف في ذلك الحلال من الحرام ، والواجب من غير الواجب واللائق من غير اللائق . ولا يضيرنا أن يدخل هذا القدر اللازم تحت اسم «التوحيد» أو «الفقه» أو «التصوف» أو «الآداب الشرعية» أو الزهد أو غير ذلك .

فهذه التسميات مصطلحات محدثة ، ولم يتعبدنا الله بها ، وإنما يهمنا المضمون ، ولا عبرة بالأسماء والعناوين ، متى وضحت المسميات والمضامين .

وهذا القدر من العلم يجب أن يكون إلزامياً ، يتعلمه كل مسلم ومسلمة : بالقراءة في المدارس والمعاهد ، وبالسماع في المساجد ، وفي أجهزة الإعلام المختلفة.

وعلي كل دولة تنتسب إلي الإسلام ، أن توفر هذا القدر لأبنائها بكل وسيلة مستطاعة ، وأن تنتهز كل فرصة لتفقيه أبنائها ما يجب عليهم ، مثل فرصة التجنيد في الجيش أو في الشرطة .

ويجب على الآباء والأولياء أن يعلموا أولادهم ، ومن يلون عليهم ، أو يبعثوا بهم إلى المدارس والمساجد والأماكن يتلقون فيها العلم الواجب ، ولا يجوز لولي أن يدع موليه في ظلام الجهل بدينه ، دون أن يعلمه أو يهئ له من يعلمه ، فضلاً عن أن يمنعه من التعلم إذا أراد .

وذلك أن الحديث الشريف يقول : «مروا أولادكم بالصلاة لسبع ،

واضربوهم عليها لعشر »[1] فدل هذا على وجوب تعلم الصلاة – ومثلها الصيام لمن يطيقه – منذ تمام السابعة من العمر : لأن أداء الصلاة غير ممكن إلا بتعلمها بشروطها وأركانها وكيفيتها ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

فإذا قصر الأب أو الولى فى تعليم من ولاه الله رعايته ، ولم يعفه ذلك من وجوب التعلم وطلب العلم المفروض عليه ، حين يبلغ الحلم ، ويتحمل مسؤولية نفسه ، فقد رفع القلم عن الصبى حتى يبلغ .

يقول الإمام أبو محمد بن حزم بعد أن بين ما يلزم كل مسلم ومسلمة تعلمه من الطهارة والصلاة والصيام ، وما يحل له ويحرم عليه من المآكل ، والمشارب ، والملابس ، والفروج ، والدماء ، والأقوال والأعمال :

« فهذا كله لا يسع جهله أحداً من الناس ، ذكورهم وإناثهم ، أحرارهم وعبيدهم وإمائهم . وفرض عليهم أن يأخذوا في تعلم ذلك من حين يبلغون الحلم ، وهم مسلمون أو من حين يسلمون بعد بلوغهم الحلم .

قال : ويجبر الإمام (رئيس الدولة) أزواج النساء ، وسادات الأرقاء ، على تعليمهم ما ذكرنا ، إما بأنفسهم ، وإما بالإباحة لهم لقاء من يعلمهم ، وفرض على الإمام أن يأخذ الناس بذلك ، وأن يرتب أقواماً بتعليم الجهال »[2] .

وهذا القدر يجب أن يتعلمه المسلم بلغته التى يحسنها ، ولكن يجب عليه أن يتعلم من العربية ما يتلو به أم القرآن في صلاته وما يقرأ به من الآيات ، وما تقوم به الصلاة من التكبيرات والتسبيحات والسلام ، وما يفهم به الأذان والإقامة ونحوها . ومن لم يجد هذا القدر اللازم تعلمه موفوراً في بلده وجب عليه أن يرحل فى طلبه حتى يتعلمه من أهله ولو بالصين .

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٢ /١٨٧) ، وأبو داود فى الصلاة (٤٩٥) من حديث عمرو ابن شعيب عن أبيه عن جده . وحسنه النووى فى « الرياض » وصححه شاكر فى تخريج المسند برقم (٦٦٨٩) كما أخرجه الحاكم فى المستدرك ١ /١٩٧ .

(٢) انظر : الأحكام فى أصول الأحكام لابن حزم – الباب الحادى والثلاثون : في صفة التفقه فى الدين ، وما يلزم كل امرئ طلبه من دينه ص ٦٩ ط . مطبعة الإمام بالقاهرة .

على أن هذا القدر الواجب تعلمه إنما يمثل الحد الأدنى لمعرفة المسلم بدينه في كل بيئة وكل حال ، ثم هو يتسع ويزداد حسب الأحوال والموجبات الخاصة أو العامة ، فالفقير لا يجب عليه أن يتعلم تفاصيل أحكام الزكاة ، إلا أن يتعلم ما يباح له أخذه من مالها ، إنما يجب عليه أن يتعلم أحكامها إذا ملك مالاً تجب فيه الزكاة .

ولا يفترض عليه تعلم كل الأحكام لكل أموال الزكاة بل ما ملك نصاباً منه تعلم ما يتعلق به . فالتاجر يتعلم أحكام زكاة التجارة والنقود والديون ونحو ذلك : فيم تجب ؟ ومتى تجب ؟ وكم تجب ؟ ولمن تجب ؟ وليس عليه أن يتعلم زكاة الأنعام من إبل وبقر وغنم ، وما يجب فيه بنت مخاض أو بنت لبون ، إذ لا حاجة له فيها .

ومن لا مال له ، ولا استطاعة عنده ، لا يفرض عليه تعلم أحكام الحج ، بل يتعلمه من ملك الصحة الجسمية ، والقدرة المالية ، أى : على نفقات السفر ذهاباً وإياباً ، ونفقات الإقامة فى الأرض المقدسة ، ونفقات من يعوله حتى يعود ، فعندئذ يلزمه تعلم أساسيات الحج والعمرة ، وخاصة عندما يعقد النية، ويدخل في أشهر الحج . وإذا كان فى المذاهب الفقهية من يرى أن فرض الحج على التراخي ، فالأكثرون يرونه واجباً على الفور ، والحزم فى المبادرة والمسارعة إلى الخيرات .

وهكذا من كان له اختصاص بشئ ، وجب عليه أن يتعلم ما يتصل به من الأحكام ، فالتاجر يلزمه معرفة ما يحل وما يحرم من البيوع ، وأنواع المعاملات والمداينات التى تدخل في نطاق التجارة ، حتى لا يسقط فى هوة الحرام وهو لا يدرى . وجهله ليس عذراً له .

والطبيب يلزمه معرفة ما يتعلق بمهمته ، كتحريم التداوى بالخمر ، وتحريم الإجهاض ونحو ذلك . والذى تقتضيه مهنته السفر كربان السفينة والطيار ومضيف الطائرة يلزمه تعلم أحكام السفر ورخصه .

المهم أن كل من يحتاج إلى شئ ، لاختصاصه به أو ملابسته له ، يلزمه

تعلمه ومالا فلا . على أن كل إنسان لا يخلو من وقائع فى عبادته أو معاملاته ، تتجدد له ، ولا يعرف حكم الشرع فيها ، فهنا يلزمه السؤال عنها ، بل . ينبغى له المبادرة إلى تعلم ما يتوقع وقوعه على القرب غالبًا [1]، قال تعالى : ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : ٤٣] .

ففرض علي كل أحد طلب ما يلزمه .

هذا ما لا بد منه للمسلم فى دينه ، وتعلمه فرض عين عليه ، وأما ما لا بد له منه فى دنياه ، فيختلف باختلاف البيئات والأزمان . وأرى أن تعلُّم القراءة والكتابة والحساب وسائر ما يدرس فى المرحلة الابتدائية الآن - على الأقل - لازم لكل إنسان مسلم فى دنيا عصرنا حتى يكون عضواً نافعًا فى المجتمع ، ولا توصم أمتنا بالتخلف والأمية فى مواجهة الأمم الراقية المتعلمة .

ما يفترض تعلمه على سبيل الكفاية :

وهناك من العلوم ما يعد طلبه فرض كفاية على الجماعة ، بحيث إذا قام به واحد أو عدد كاف سقط الحرج عن باقى الجماعة ، وإلا أثمت الجماعة عامة ، وأولو الأمر فيها خاصة .

يقول الإمام ابن حزم : ثم فرض على كل جماعة مجتمعة فى قرية أو مدينة أو دسكرة أو حلة أعراب أو حصن ، أن ينتدب منهم - لطلب جميع أحكام الديانة أولها عن آخرها ولتعلم القرآن كله ، ولكتاب كل ما صح عن النبى ﷺ ، من أحاديث الأحكام أو لها عن آخرها وضبطها بنصوص ألفاظها ، وضبط كل ما أجمع المسلمون عليه ، وما اختلفوا فيه - من يقوم بتعليمهم ، وتفقيههم من القرآن ، والحديث ، والإجماع ويكتفى بذلك علي قدر قلتهم أو كثرتهم » .

يعنى أن الواجب طلب جميع ما ذكره ابن حزم ، إن لم يستوعبه جهد الطالب .

---

(١) انظر : الإحياء ، للغزالى ، والأحكام لابن حزم السابق ذكرها .

واستدل ابن حزم لما ذكره بقوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة:١٢٢] فالنفار المذكور فرض علي الجماعة كلها ، حتى يقوم بها بعضهم فيسقط عن الباقين . ثم قال : وفرض على جميع المسلمين أن يكون فى كل قرية أو مدينة أو حصن من يحفظ القرآن كله ، ويعلمه الناس ويقرئه إياهم ، لأمر رسول الله ﷺ بقراءته (١) .

والظاهر أن فرض الكفاية هنا : هو كل ما تحتاج إليه الجماعة المسلمة فى دينها أو دنياها ، من التبحر فى علوم الشرع أو التخصص فى علوم الكون : من طب ، وهندسة ، ورياضة ، وفلك ، وكيمياء ، وطبيعة ، وإحياء ، وجيولوجيا أو غيرها ، من كل ما تتطلبه حياة الناس الاجتماعية فى هذا العصر مدنيًا أو عسكريًا .

بل كل ما يحتاج إليه المسلمون من العلوم ، ليتحقق لهم التفوق على غيرهم ، وتكون لهم القوة علي عدوهم ، فهو فرض عليهم على الكفاية ، والتفريط فيه يصيب الأمة كلها بالحرج والإثم . وقد يتعين فرض الكفاية فى حق بعض الناس إذا دعاه إليه من له الأمر ولا عذر عنده أو كان عنده من الأهلية ما ليس عند غيره ، وعلم ذلك من نفسه ، ولم يحل دونه حائل .

والأصل فى ذلك : أن كل ما يؤدى إلي ضعف الأمة ، يجب دفعه قبل وقوعه ، ورفعه إن وقع . وأن كل ما يؤدى إلى قوة الأمة واستقرارها ، وحمايتها من الأخطار الداخلية والخارجية ، يجب تحصيله عليها بالتضامن ، وأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

ويقول الإمام الغزالى فى بيان العلم الذي هو فرض كفاية :

اعلم أن الفرض لا يتميز عن غيره إلا بذكر أقسام العلوم ، والعلوم بالإضافة إلي الغرض الذي نحن بصدده تنقسم إلى : شرعية وغير شرعية ، وأعنى بالشرعية

---

(١) الإحكام لابن حزم ص ٦٩٠ / ٦٩١ .

ما استفيد من الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه ، ولا يرشد العقل إليه مثل الحساب ، ولا التجربة مثل الطب ، ولا السماع مثل اللغة ، فالعلوم التى ليست بشرعية تنقسم إلى ما هو محمود ، وإلى ما هو مذموم ، وإلي ما هو مباح ، فالمحمود ما يرتبط به مصالح أمور الدنيا كالطب والحساب ، وذلك ينقسم إلي ما هو فرض كفاية وإلى ما هو فضيلة وليس بفريضة .

أما فرض الكفاية فهو كل علم لا يستغنى عنه فى قوام أمور الدنيا كالطب إذ هو ضرورى فى حاجة بقاء الأبدان ، وكالحساب ، فإنه ضرورى فى المعاملات ، وقسمة الوصايا ، والمواريث وغيرهما . وهذه هى العلوم التى لو خلا البلد عمن يقوم بها حرج أهل البلد . (أى : أثموا) ، وإذا قام بها واحد كفى وسقط الفرض عن الآخرين . فلا يتعجب من قولنا : إن الطب والحساب من فروض الكفايات ، فإن أصول الصناعات أيضاً من فروض الكفاية كالفلاحة ، والحياكة ، والسياسة بل الحجامة والخياطة . فإنه لو خلا البلد من الحجام تسارع الهلاك إليهم ، وحرجوا بتعريضهم أنفسهم للهلاك . فإن الذى أنزل الداء أنزل الدواء ، وأرشد إلى استعماله ، وأعد الأسباب لتعاطيه ، فلا يجوز التعرض للهلاك بإهماله . وأما ما يعد فضيلة . لا فريضة ، فالتعمق فى دقائق الحساب ، وحقائق الطب ، وغير ذلك مما يُستغنى عنه ولكنه يفيد زيادة قوة فى القدر المحتاج إليه .

وأما المذموم : فعلم السحر ، والطلسمات ، وعلم الشعوذة والتلبيسات .

وأما المباح منه : فالعلم بالأشعار التى لا سخف فيها ، والتواريخ والأخبار وما يجرى مجراه [1] . أ هـ .

وفى بعض ما ذكره الإمام أبو حامد هنا نظر ، بالنسبة لعصرنا . فإن اتساع نطاق العلوم اليوم ، وانقسام كل منها إلي فروع وكل فرع إلى تخصصات دقيقة، يخالف ما اعتبره الغزالى من باب التعمق المستغنى عنه فى دقائق الحساب ، وحقائق الطب ، وعده بذلك فضيلة لا فريضة .

---

(١) إحياء علوم الدين للغزالى – جـ ١ ص / ١٦ .

فالواقع أن هذا التعمق اليوم أصبح لازمًا لكل طب ناجحٍ ، أو محاسبة ناجحة ، وقد تطور علم الطب ، والعلوم التى تخدمه تطوراً كبيراً ، وكذلك علم الرياضيات ، وكذلك علوم الطبيعة التى ذكر الغزالى نفسه فى مقام آخر أنه لا حاجة إليها !! بخلاف الطب فإنه محتاج إليه [1] .

وربما كان الإمام الغزالى رحمه الله معذوراً فيما ذكره من العلوم والرياضيات في عصره ، فقد كانت ممزوجة بالفلسفة ، غير منفصلة عنها ، وكان للغزالى رأي فى تلك الفلسفة وقضاياها ، مسجلة فى كتابه المعروف « تهافت الفلاسفة » ، وقل من يقرأ الجانب العلمي والرياضى من الفلسفة دون أن يتأثر بالجانب الإلهى منها كما أشار إلي ذلك فى « المنقذ من الضلال » . والجانب الإلهى من تلك الفلسفة خليط من الوثنية اليونانية ومن شطحات العقل البشرى فيما لا تعرف حقيقته إلا بالوحى المعصوم .

وكذلك ما ذكره عن العلم بالأشعار التى لا سخف فيها ، وتواريخ الأخبار، وما يجرى مجراه ، حيث عدها من قسم المباح فحسب ، والذى يبدو لى أن معرفة الشعر والأدب العربى عامة ، ومعرفة التاريخ الإسلامى على الخصوص ، والإنسانى على العموم ، من الواجبات الكفائية فلا يجوز أن تخلو الجماعة المسلمة عمن يحسنها ويوجهها وجهة الحق ، ويرد على من يستخدمها فى سبيل الباطل ، كما نرى ذلك بين أتباع اليمين واليسار .

وهى كذلك سلاح من الأسلحة الثقافية للداعية [2] المسلم .

بل أرى أن واجبًا على الجماعة الإسلامية أن يكون فيها من يتخصص فى جميع ألوان الدراسات الإنسانية المختلفة (علم النفس ، والاجتماع ، والتربية ، والاقتصاد ، والسياسة وغيرها) ، حتى يدرسها ويعرضها من منطلق إسلامى أصيل ، وفى إطار إسلامى مأمون ، ولا سيما أن هذه العلوم الإنسانية

---

(١) الإحياء جـ ١ / ٢٢

(٢) انظر : كتابنا « ثقافة الداعية » فصول : الثقافة اللغوية والأدبية والتاريخية والإنسانية .

والاجتماعية ، هى التى تصنع فكر الأمة وذوقها ، وتلون اتجاهها وسلوك أفرادها بلونها ، فلا يجوز أن يعدها المسلمون مجرد مباح يجوز فعله وتركه ، إنما يجب عد ذلك من فروض الكفاية .

ولو رأى صاحب «الإحياء» رحمه الله ما رأينا من خطر هذه العلوم ، وتسلط حملتها على عقول الشباب ، واستغلال اليهود لها فى كثير من جامعات الغرب، ومراكز بحثه ، لغير رأيه واجتهاده ، وقضى بما قضينا ، ولكل عصر ظروفه وأحكامه .

تصحيح النية :

وأول ما يرجى من طالب العلم ، وبخاصة العلم الشرعى ، تصحيح النية ، وذلك أن يجاهد نفسه على الإخلاص والتجرد ، ويتحرى بعلمه وجه الله تعالى والدار الآخرة ، ولا يجعل همه ونيته مباهاة العلماء ، أو مماراة السفهاء ، أو مجاراة الأغنياء ، أو مداهنة الأمراء ، أو جمع المال ، أو الجاه ، أو غير ذلك مما يتطلع إليه الناس من متاع الحياة الأدنى ، فيبيعون باقيًا بفان ، وعظيما بحقير ، وملكًا كبيرًا بثمن قليل .

ولو جاز هذا فى طلب علوم الدنيا ، لم يجز فى طلب علوم الآخرة ، التى تحتاج أول ما تحتاج إلى تصفية السريرة ، وتجريد الهمة ، والإقبال بكلية القلب على الله تعالى .

ولقد جاء الحديث الصحيح يحمل الوعيد الشديد للثلاثة الذين أفسد الرياء أعمالهم ، ونقلهم من ديوان المخلصين الصادقين ، إلى ديوان المرائين الكاذبين فكانوا أول من تسعر بهم النار يوم القيامة .

ومن هؤلاء رجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتى به ، فعرفه نعمه ، فعرفها . قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلمته ، وقرأت فيك القرآن ! قال : كذبت ، ولكنك تعلمت ، ليقال عالم . وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ . فقد قيل . ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار [١] .

---

(١) رواه مسلم من حديث أبى هريرة فى الإمارة (١٩٠٥) .

وعن جابر قال ، قال رسول الله ﷺ « لا تعلموا العلم لتباهوا به العلماء ولا لتماروا به السفهاء ، ولا تَخَيَّروا به المجالس ، فمن فعل ذلك ، فالنار النار » [١].

وعن ابن مسعود أنه قال : « كيف بكم إذا لبستكم فتنة يربو فيها الصغير ويهرم فيها الكبير ، وتتخذ سنة ، فإن غيرت يومًا قيل : هذا منكر ! قيل : ومتى ذلك ؟ قال : إذا قلت أمناؤكم ، وكثرت أمراؤكم . وقلت فقهاؤكم ، وكثرت قراؤكم .. وتفقه لغير الدين ، والتمست الدنيا بعمل الآخرة »[٢] .

وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من تعلم علمًا ، مما يُبْتغى به وجه الله تعالى ، لا يتعلمه إلا ليصيب به عَرَضا من الدنيا ، لم يجد عَرْف الجنة يوم القيامة » أى : ريحها[٣].

وأى خسارة أكبر من أن يخسر الإنسان الجنة حتى إنه لا يجد عرفها وريحها ، وريحها يوجد من مسيرة كذا وكذا ؟!.

ومن رحمة الله تعالى - كما أفهمَ الحديثُ - أن الوعيد فيه إنما هو فيمن ليس له أى قصد أخروى ، لأنه جاء بهذا الحصر الحاسم « لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضًا من الدنيا » ومعنى هذا أن من قصد الآخرة بعلمه ، وأراد معها شيئًا من

---

(١) قال المنذرى : رواه ابن ماجه وابن حبان فى صحيحه والبيهقى ، كلهم من رواية يحيى بن أيوب الغافقى عن ابن جريج عن أبى الزبير عنه ، ويحيى هذا ثقة قد احتج به الشيخان وغيرهما ، ولا يلتفت إلي من شذ فيه . ورواه ابن ماجه بنحوه من حديث حذيفة - ترغيب رقم ١٧٩ . وقال العراقى في تخريج الإحياء : إسناد ابن ماجه صحيح . وقال البوصيرى فى زوائد ابن ماجه : رجال إسناده ثقات (الحديث (٢٥٤) من ابن ماجه) ورواه الحاكم ، وصحح إسناده وسكت عليه الذهبى (١ / ٨٥ - ٨٦) . وهى فى ابن حبان فى صحيحه كما فى الإحسان (٧٧).

(٢) رواه عبد الرزاق فى كتابه موقوفًا - ترغيب ١٨٥ .

(٣) قال المنذرى (ترغيب : ١٧٧) : رواه أبو داود وابن ماجه وابن حبان في صحيحه ، والحاكم وقال : صحيح على شرط البخارى ومسلم . وأقول : ووافقه الذهبى أيضًا (المستدرك جـ١ / ٨٥) وهى في أبى داود فى العلم (٣٦٦٤) وابن ماجه فى المقدمة (٢٥٢) وابن حبان فى صحيحه كما فى الاحسان (٧٨).

الدنيا ، فلا يتناوله الوعيد المذكور ، شأنه شأن الحاج الذى يقصد إلي الحج ، ويقصد بجواره شيئًا من التجارة ، وقد تحرج من ذلك بعض الصحابة فنزل قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [البقرة : ١٩٨].

فمدار الحكم على المقصد الأساسى : ما هو ؟ الآخرة أم الدنيا ؟ على أنهم قالوا : فرق بين من يأخذ الدنيا ليتفرغ لعمل الآخرة ، وبين من يعمل عمل الآخرة ليأخذ الدنيا . فتأمل فإنه موضع الزلل(١) .

والحديث إنما يذم من قصد بعلمه الدنيا ، لا من جاءته الدنيا بغير هذا القصد . وإنما ذم القرآن من ﴿ طَغَىٰ * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ [النازعات : ٣٧ ، ٣٨] وذم أيضًا من وصفه الله بقوله : ﴿ مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ [النجم : ٢٩] وكذلك ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ ﴾ في مقابل ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ [الإسراء : ١٨ ، ١٩].

فالدنيا ليست مذمومة لذاتها ، كيف وقد كان كثير من العلماء الكبار أغنياء مثل الليث بن سعد ، وأبى حنيفة وغيرهما ؟ بل كان فى كبار الصحابة أغنياء ذوو ثروات طائلة مثل عبد الرحمن بن عوف ، وعثمان بن عفان ، وطلحة والزبير ، من العشرة المبشرين بالجنة ، بل كان فى الأنبياء أغنياء مثل يوسف ، وداود وسليمان الذين آتاهم الله النبوة والملك معًا .

والدنيا إنما ذمت هنا ، لأنها أُريدت بعمل الآخرة ، وعلم الآخرة ، ولهذا قيده فى الحديث بقوله « علم مما يُبتغى به وجهُ الله تعالى » وهو علم الدين . وكيف تذم الدنيا فى حد ذاتها وقد صح فى الحديث : « نعم المال الصالح للرجل الصالح »؟ (٢)

وكيف تذم الدنيا لذاتها وهى مزرعة الآخرة ؟ . ولهذا قال العلامة القارى فى « المرقاة » : أفهم الحديث أن من أخلص قصده فتعلم لله ، لا يضره حصول

---

(١) المرقاة / شرح المشكاة جـ ١ ص / ٢٣٥ .

(٢) رواه أحمد (١ / ١٩٧) بسند جيد كما قال العراقى فى « تخريج الإحياء » .

الدنيا له من غير قصدها بتعلمه . بل من شأن الإخلاص بالعلم ، أن تأتى الدنيا لصاحبه راغمة ، كما ورد « من كان همه الآخرة ، جمع الله شمله ، وجعل غناه فى قلبه ، وتأتيه الدنيا وهى راغمة » [١] .

ومن المعروف أن معظم طلاب العلم فى عصرنا ، لا يتجهون إلى العلم بنية سابقة ، ورغبة مبيتة ، بل يوجههم إليه – فى صغرهم – آباؤهم وأولياء أمورهم ، أو يوجههم إليه – رغماً عنهم – مجموع درجاتهم في بعض المواد أو كلها ، أو توجههم ظروف خاصة بهم مثل ألا يكون فى البلد إلا لون معين من الدراسة يفرض عليهم ، رضوا أم سخطوا . ثم لا يلبثون إذا أدركوا ونضجوا أن يجدوا أنفسهم فى معهد دينى ، أو مدرسة شرعية ، ولو خُير اليوم ما اختار هذا الطريق فهذه دراسة بلا نية ، لأن صاحبها أجبر عليها ، ولم يكن له حق الاختيار ، وإنما النية مع الاختيار .

وينبغى لمن وضعته الأقدار فى هذا الموضع من تعلم الدين ودراسة علوم الشريعة ، أن يحاول من جديد إنشاء نية صالحة ، ورغبة صادقة ، وسيجد من العلم الذى يعيش فى ظلاله – علم القرآن والسنة – وصحبة أهل الخير فى سيرهم، ما يعينه على تصحيح النية ، وتجريد الإرادة لله جل شأنه .

وقد رووا عن مجاهد قال : طلبنا هذا العلم وما لنا فيه كبير نية ، ثم رزق الله النية [٢] .

وعن الحسن قال : لقد طلب أقوام العلم ما أرادوا به الله ولا ما عنده ، قال: فما زال بهم العلم حتى أرادوا به الله وما عنده [٣] .

وعن الثورى قال : طلبنا العلم للدنيا ، فجرنا إلى الآخرة [٤] .

وعن معمر قال : إن الرجل ليطلب العلم لغير الله ، فيأبى عليه العلم حتى يكون لله[٥] . وعلق الغزالى على هذا الأثر وأمثاله بأن هذا لا ينطبق على علم

---

(١) المرقاة شرح المشكاة ص ٢٣٦ وهو فى سنن ابن ماجه رقم (٤١٠٥) بنحوه ، وقال فى « الزوائد » : اسناده صحيح ، رجاله ثقات .

(٢) ، (٣) : سنن الدارمى جـ ١ ص/ ٨٥ .

(٤) ، (٥) : « جامع بيان العلم » جـ ٢ / ٢٨ .

الخلافيات في الفقه ، أو الجدل في الكلام ، بل على التفسير والحديث . لما لهما من صلة بالله واليوم الآخر ، ولما لكلام الله وكلام رسوله من أثر . يمكن أن ينتهي بصاحبه إلى الإخلاص ورجاء الآخرة ، وما عند الله عز وجل[1] .

استمرار التعلم :

والعلم بحر لا قرار له ، ولا شطآن له ، وكلما تعمق طالبه فيه ، تفتحت له فيه أبواب جديدة ، وتبينت له معالم كانت خافية ، وتحتاج إلي مزيد بحث ومزيد تحقيق .

من أجل هذا كان الواجب على حامل العلم أن ينشد الزيادة منه على الدوام ، وأن يستمر في طلبه ما عاش ، فالعلم يحتاج دومًا إلي تجديد ونماء .

وليس بعد أمر الله لرسوله بيان : ﴿ **وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا** ﴾ [طه : ١١٤] .

وقد قص علينا القرآن ، وقص علينا الرسول عليه الصلاة والسلام ، قصة موسى عليه السلام في طلبه علم ما لم يعلم ، عند عبد الله الخضر عليهما السلام، ولذا قال قتادة : لو كان أحد يكتفي من العلم بشئ لاكتفى موسى عليه السلام ، ولكنه قال : ﴿ **هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا** ﴾ [الكهف:٦٦][2]

ولا غرو أن شاع بين المسلمين هذه الحكمة «اطلب العلم من المهد إلى اللحد » وحكمة أخرى تقول : « لا يزال المرء عالمًا ما طلب العلم ، فإذا ظن أنه علم فقد جهل »[3] .

وقال ابن عباس : منهومان لا تنقضي نهمتهما : طالب علم ، وطالب دنيا وقيل لابن المبارك : إلى متى تطلب العلم ؟ قال : حتى الممات إن شاء الله .

وسئل أبو عمرو بن العلاء : حتى متى يحسن بالمرء أن يتعلم ؟ فقال : ما دامت تحسن به الحياة !

---

(١) الإحياء. (٢) « جامع بيان العلم » جـ ١ / ١٢٠ .

(٣) هذه من كلام سفيان بن عيينه وليست حديثًا كما ظنها بعض الناس .

وسئل سفيان بن عيينة : من أحوج الناس إلي طلب العلم ؟ قال : أعلمهم، لأن الخطأ منه أقبح!

وقيل للمأمون : أيحسن بالشيخ أن يتعلم ؟ فقال : إن كان الجهل يعيبه فالتعلم يحسن به .

وقال مالك بن أنس: لا ينبغي لأحد يكون عنده العلم أن يترك التعلم [1] .

هذا هو مسلك المسلم : حرص على زيادة المعرفة ، واستمرار فى طلب العلم، لا يشبع منه ، ولا يرغب عنه ، ولا يحول دون طلبه كبر سن ، ولا عظم قدر ، حتى الممات .

وكان سلف الأمة حريصين على ألا يمر يومٍ دون أن يكتبوا فيه شيئًا من العلم ، كثر أو قل وإلا عدوا هذا اليوم ضياعًا وغبنًا .

وفى هذا روى الأثر : «إذا أتى عليَّ يوم لم أزدد فيه علمًا يقربنى من الله عز وجل فلا بورك لى فى طلوع شمس ذلك اليوم» .

قال ابن القيم : وقد رفع هذا إلى رسول الله ﷺ ، ورفعه إليه باطل ، وحسبه أن يصل إلى واحد من الصحابة أو التابعين .

وفى مثله قال القائل :

إذا مر بى يوم ولم أستفد هدى ولم أكتسب علما فما هو من عمرى!

وخطب على رضى الله عنه ، خطبة قال فيها : واعلموا أن الناس أبناء ما يحسنون وقدر كل أمرئ ما يحسن ، فتكلموا فى العلم تتبين أقداركم .

قال الإمام ابن عبد البر : ويقال : إن قول على : « قيمة كل امرئ ما يحسنه » لم يسبقه إليه أحد .

وقالوا : ليس كلمة أحض على طلب العلم منها : قالوا : ولا كلمة أضر بالعلم وبالعلماء والمتعلمين من قول القائل : ما ترك الأول للآخر شيئًا [2] .

---

(١) هذه الآثار في « جامع بيان العلم » جـ ١ / ١١٤ ، ١١٥ .

(٢) « جامع بيان العلم » جـ ١ / ١١٩ .

الصبر على متاعب الطلب :

ومن أدب المتعلم في الإسلام : أن يوطن نفسه على احتمال المتاعب ، ومواصلة عناء النهار بسهر الليل ، والصبر على مشاق الارتحال في طلب العلم .

ولا يخفى على طالب علم ما ذكره القرآن العظيم ، وما نوه به الرسول الكريم من أمر موسى كليم الله ، ومصطفاه عليه السلام ، وارتحاله في طلب العلم عند عبد الله المعروف بـ «الخضر عليه السلام» ﴿ **وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا** ﴾ [الكهف : ٦٠] ، وقطع هو وفتاه ما قطعا من مفاوز ، ومسافات لا يعلم طولها إلا الله تعالى ، كان من أثرها ما عبر عنه موسى بقوله لفتاه : ﴿ **آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا** ﴾ (١) . وكان ما كان من عودتهما مرة أخرى قافلين إلى الموضع المنشود للقاء .

وقال ابن عباس : طلبت العلم ، فلم أجده أكثر منه في الأنصار ، فكنت أتى الرجل فأسأل عنه : فيقال لي : نائم ، فأتوسد ردائي ثم أضطجع حتى يخرج إلى الظهر ، فيقول : متى كنت ههنا يا ابن عم رسول الله ، فيقول : منذ زمن طويل فيقول : بئسما صنعت ، هلا أعلمتني ؟ فأقول : أردت أن تخرج إليّ وقد قضيت حاجتك » (٢) .

وكان ابن عباس يقول : ذللت طالبًا ، فعززت مطلوبًا .

وذكر ابن عبد البر وغيره : أن أبا أيوب الأنصاري رحل من المدينة إلى مصر ليسمع من عقبة بن عامر حديثًا سمعه من النبي ﷺ في ستر المسلم على المسلم، فلما سمعه منه أتى أبو أيوب راحلته فركبها وانصرف إلى المدينة ، وما حل رحله (٣) .

---

(١) القصة في سورة الكهف ، وفي صحيح البخاري « كتاب العلم » (٧٤) .

(٢) سنن الدارمي جـ ١ ص / ١١٤ .

(٣) رواه ابن عبد البر في « كتاب العلم » .

ونحو هذا حدث لجابر بن عبد الله الأنصارى . فقد رحل مسيرة شهر إلى عبد الله بن أنيس فى حديث واحد [1] .

وقال سعيد بن المسيب : إن كنت لأسير الليالى والأيام فى طلب الحديث الواحد . وحدث الشعبى رجلاً بحديث ثم قال له : خذها بغير شئ ، وقد كان الرجل يرحل فيما دونها إلي المدينة ، (وكان الشعبى بالكوفة بالعراق) .

وقال الشعبى : لو أن رجلاً سافر من أقصى الشام إلي أقصى اليمن ليسمع كلمة حكمة ، ما رأيت أن سفره قد ضاع [2] .

ورحلات المسلمين وبخاصة علماء الحديث فى طلب العلم لا يعرف التاريخ لها نظيراً ، ومن طالع رحلات الأئمة مثل الشافعى ، وابن حنبل ، والبخارى ، ومسلم وغيرهم ، عرف مبلغ ما عاناه هؤلاء الفحول فى طلب العلم .

لقد بذلوا فى طلبه النوم بالليل والراحة بالنهار ، وتحملوا الشظف والفقر فى سبيله غير ضجرين ولا متبرمين . فقد تلقوا عن شيوخهم هذه الحكمة : لا ينال العلم براحة الجسم . وكان الإمام مالك يقول : إن هذا الأمر لن ينال حتى يذاق فيه طعم الفقر ، وذكر ما نزل بربيعة من الفقر فى طلب العلم ، حتى باع خشب سقف بيته ، وحتي كان يأكل ما يلقى علي مزابل المدينة من الزبيب وعصارة التمر !

وقال شعبة لأصحابه : ليبلغ الشاهد منكم الغائب : من ألح في طلب العلم - أو قال فى طلب الحديث - أورثه الفقر .

وقال سحنون : لا يصلح العلم لمن يأكل حتي يشبع [3] .

---

(١) ذكره البخارى معلقًا مجزومًا به فى صحيحه باب الخروج فى طلب العلم . وذكر فى الفتح (١ / ١٨٣) له طرقًا بعضها عند أحمد ، وأبى يعلى والطبرانى في مسند الشاميين ولا تخلو من مقال ، وعند تمام فى فوائده من طريق إسنادها صالح .

(٢) « جامع بيان العلم » وباب الرحلة فى طلب العلم .

(٣) ذكر هذه الآثار ابن عبد البر فى : « جامع بيان العلم » باب الحض على استدامة الطلب والصبر على الأذى والنصب .

وليس المهم فى طلب العلم محض تعب البدن ، بل أهم منه تفريغ القلب له بالتقليل من شواغل الدنيا المادية ، وصوارف الحياة الاجتماعية ، فإن العلائق شاغلة وصارفة . وقد قال تعالي : ﴿ **مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ** ﴾ [الأحزاب : ٤]

ومهما توزعت الفكرة قصرت عن درك الحقائق . ولذلك قالوا : العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك ، فإذا أعطيته كلك فانت من إعطائه إياك بعضه على خطر .

قال الغزالى : والفكرة المتوزعة علي أمور متفرقة كجدول تفرق ماؤه ، فنشفت الأرض بعضه ، واختطف الهواء بعضه ، فلا يبقى منه ما يجتمع ويبلغ المزدرع .

فهذه نظرتهم للعلم ، وهذه كانت حياتهم في طلبه . وكانوا قريرى العين بها ، فإن لذة معرفة الحقيقة تنسى مشقة الحصول عليها . وقد قيل لأحد العلماء: فيم لذتك ؟ فأجاب فى حجة تتبختر اتضاحًا ، وفي شبهة تتضاءل افتضاحًا !

ومن الصبر المحمود ، والمطلوب لطالب العلم : أن يصبر على أستاذه ، ويحتمل شدته إن كان شديدًا ، وغضبه إن كان غضوبًا ، ويحترم صمته فيما لا يحب الكلام فيه . وخير مثل لذلك هو صبر موسى علي الخضر عليهما السلام ، قال له موسي : ﴿ **هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا * قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا * قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا * قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا** ﴾ [الكهف : ٦٦ - ٧٠].

فهذا صبر أشد من الصبر على نصب الأسفار ، ومتاعب الفقر والارتحال ، ولهذا صبر موسى على النصب في سفره الطويل ، ولم يطل صبره على هذا الأخير ، وقال له الخضر : ﴿ **قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا** ﴾ [الكهف : ٧٨].

توقير المعلم وإكرامه :

ومن أدب المتعلم الذي جاءت به السنة النبوية : توقير المعلم ، وإعطاؤه ما يستحق من التكريم والإكبار ، فإن المعلم لتلميذه بمنزلة الأب لولده . بل قال يحيى بن معاذ رحمه الله : العلماء أرحم بأمة محمد - ﷺ - من آبائهم وأمهاتهم . قيل له : وكيف ذلك ؟ قال : لأن آباءهم وأمهاتهم يحفظونهم من نار الدنيا ، والعلماء يحفظونهم من نار الآخرة .

وبهذا صار حق المعلم - كما يقول الغزالي - أعظم من حق الوالدين ، فإن الوالد سبب الوجود الحاضر ، والحياة الفانية ، والمعلم سبب الحياة الباقية . ولولا المعلم لانساق ما حصل من جهة الأب إلي الهلاك الدائم . وإنما المعلم هو المفيد للحياة الآخروية . أعنى معلم علوم الآخرة ، أو علوم الدنيا على قصد الآخرة(١) .

وفى المفاضلة بين المعلم والأب يقول الشاعر :

فهذا مربى الروح والروح جوهر   وذاك مربى الجسم والجسم كالصدف!

وقال الحسن : لولا العلماء ، - أي : المعلمون - لصار الناس مثل البهائم ! أى : أنهم بالتعليم يخرجونهم من حضيض البهيمية إلى أفق الإنسانية .

ومن أجل هذا جاءت الأحاديث بتوقير العلماء ، وإكرامهم حتي بعد موتهم . وعن جابر بن عبد الله أن النبى ﷺ ، كان يجمع بين الرجلين من قتلى أحد (يعنى في القبر) ثم يقول : أيهما أكثر أخذاً للقرآن ؟ فإذا أشير إلي أحدهما قدمه فى اللحد (٢) . وفى هذا التقديم رمز لتكريمه لفضل ما معه من قرآن أكثر .

وعن أبى موسى أن رسول الله ﷺ ، قال : « إن من إجلال الله إكرام ذى

---

(١) الإحياء : جـ ١ /٥٥ .

(٢) رواه البخارى فى الجنائز (١٣٤٣) - ترغيب ١٦٤ .

الشيبة المسلم ، وحامل القرآن غير الغالى فيه ، ولا الجافى عنه ، وإكرام ذى السلطان المقسط »[1] .

وعن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ ، قال : « ليس من أمتى من لم يجل كبيرنا ويرحم صغيرنا ، ويعرف لعالمنا »[2] ، أى : يعرف له حقه .

وحسبنا أن نذكر ونذكر هنا بقصة نبى الله وكليمه موسى بن عمران الذي اصطفاه الله برسالاته وبكلامه ، وآتاه التوراة فيها موعظة وتفصيل لكل شئ فى زمنه . فلما أعلمه الله بما عند الخضر من علم ليس عنده ، رحل موسي إليه كما أشرنا إلي ذلك من قبل واستعذب العذاب في سبيل ملاقاته والاستفادة منه ، فلما وجده ، قال له موسى فى أدب التلميذ وتواضع المتعلم : ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ . بهذه الصيغة الحاسمة « هل أتبعك » فهو اتباع وليس رفقة أو مصاحبة ، وهو يستأذنه فى هذا ، لأن المعلم المتطوع هو صاحب الحق في انتقاء طلبته : يقبل من يشاء ، ويرفض من يريد ، ولا معقب عليه . هذا على الرغم من فضل موسى عليه بيقين، فهو قد اختلف في نبوته . علي حين موسى من أولى العزم من الرسل ، ويكفى قوله تعالى : ﴿ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي ﴾ [الأعراف : ١٤٤] .

وقال ابن عباس : والله إن كنت لآتى الرجل منهم ، (أى : الأنصار) فيقال : هو نائم فلو شئت أن يوقظ لى ، فأدعه حتى يخرج ، لأستطيب بذلك حديثه[3] .

وعن الشعبى قال : صلى زيد بن ثابت على جنازة ، ثم قربت له بغلة ليركبها ، فجاء ابن عباس ، فأخذ بركابه توقيراً وتعظيماً لعلمه وفضله ، فقال له

---

(١) رواه أبو داود فى الأدب (٤٨٤٣) ترغيب ١٦٥ ، والمقسط العادل .

(٢) رواه أحمد (٥ / ٣٢٣) والطبراني وقال الهيثمي : إسناده حسن المجمع (١ / ١٢٧) والحاكم ، إلا أنه قال : ليس منا .

(٣) الدارمى : جـ ١ / ١١٥ .

زيد : خل عنك يا ابن عم رسول الله . فقال ابن عباس : هكذا نفعل بالعلماء والكبراء [1] .

وعن الزهرى قال : كنت آتى باب عروة فأجلس بالباب ، ولو شئت أن أدخل لدخلت ، ولكن إجلالاً له [2] .

وعن علي بن أبى طالب رضى الله عنه قال : إن من حق العالم : ألا تكثر عليه بالسؤال ولا تعنته فى الجواب ، وألا تلح عليه إذا كسل ، ولا تأخذ بثوبه إذا نهض ، (أي : تريد أن تستوقفه) ، ولا تفشين له سراً ، ولا تغتابن عنده أحداً ، ولا تطلبن عثرته ، وإن زل قبلت معذرته ، وعليك أن توقره وتعظمه لله ، مادام يحفظ أمر الله ، ولا تجلس أمامه ، (أى : تدير له ظهرك) ، وإن كانت له حاجة سبقت القوم إلى خدمته [3] .

ومن توقير المتعلم لمعلمه : أن يحسن الصمت فى موضعه ، كما يحسن الكلام أو السؤال فى موضعه .

قال الحسن بن على لابنه : يا بنى ، إذا جالست العلماء فكن على أن تسمع أحرص منك علي أن تقول ، وتعلم حسن الاستماع ، كما تتعلم حسن الصمت ،ولا تقطع على أحد حديثاً وإن طال حتى يمسك .

وقال شعبة : كل من سمعت منه حديثاً . فأنا له عبد !

وهذه الكلمة قد شاع معناها عند المسلمين حتى جرت مجرى المثل، وهى قولهم : «من علمنى حرفاً صرت له عبداً» ! وهذه غاية فى التكريم للعلماء والمعلمين ، لم ترق إليها أمة من الأمم .

---

(١) « جامع بيان العلم » جـ ١ /١٥٥ وقال العراقى في تخريج الإحياء : أخرجه الطبرانى فى الكبير وقال الهيثمى : رجاله رجال الصحيح غير رزين الرمانى وهو ثقة المجمع (٩ /٣٤٥) والحاكم والبهقى في المدخل ، وقال الحاكم : صحيح الإسناد علي شرط مسلم .

(٢) الدارمى : جـ ١ /١١٥ .

(٣) « جامع بيان العلم » جـ ١ /١٥٦ ، ١٥٧

ولم يشع بيت من الشعر في عصرنا كما شاع بيت شوقي في مطلع قصيدته الشهيرة في تكريم المعلم :

قُم للمعلم وَفِّه التبجيلا كاد المعلم أن يكون رسولا !!

أرأيت أعظم أو أجل من الذي يبني وينشئ أنفساً وعقولا ؟!

حسن السؤال :

وليس من توقير العالم أو المعلم ترك سؤاله فيما يشكل عليه حياء منه ، فإن هذا ليس من الحياء الشرعي المحمود ، الذي هو من الإيمان ، ولا يأتي إلا بخير. وإنما هو ضعف ومهانة ، ولهذا قال مجاهد : لا يتعلم العلم مستحيي ولا مستكبر [١] .

وقالت عائشة رضي الله عنها : نعم النساء نساء الأنصار ، لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين [٢] .

وروى البخاري عن أم سلمة رضي الله عنها ، قالت : جاءت أم سليم إلى رسول الله ﷺ ، فقالت : يا رسول الله ، إن الله لا يستحيي من الحق ، فهل علي المرأة من غسل إذا احتلمت ؟ (تعني إذا رأت في منامها أن رجلها يجامعها) . فقال النبي ﷺ : إذا رأت الماء .

وهنا نجد أم سلمة تغطي وجهها حياءً ، وعائشة تقول لها - كما في صحيح مسلم - فضحت النساء !! [٣] .

ومن غلبه الحياء في أمر ما ، فليدع غيره ليسأل له عما يريد ، كما فعل علي بن أبي طالب ، حين استحيا أن يسأل النبي ﷺ عن المذي ، لمكان رسول

---

(١) رواه البخاري معلقاً في صحيحه - كتاب العلم - باب (٥٠) الحياء في العلم - ووصله أبو نعيم في « الحلية » ، بإسناد صحيح ، كما في الفتح جـ ١ / ٢٣٩ .

(٢) رواه البخاري معلقاً أيضاً كتاب العلم باب (٥٠) ووصله مسلم كما في (الفتح نفسه) .

(٣) رواه البخاري في كتاب العلم (١٣٠) .

الله ﷺ ، من ابنته التى هى زوجته ، فأمر المقداد وعماراً ، فسألا له رسول الله ﷺ عن ذلك [1] .

ويقول الإمام ابن شهاب الزهرى : العلم خزائن ومفاتيحها السؤال . يعنى : أن الذى يستخرج ما فى صدور العلماء من العلم هو مساءلتهم . وفى هذا فائدة للعالم نفسه ، ليظهر المخبوء من علمه ويحيا وينتشر ، وفائدة للمتعلم ، ليعرف ما يجهل ، ويؤكد ما يعلم ، ويستوثق مما يستريب فيه .

وهذا شأن الطالب النابه ، لا يقرأ أو يسمع إلا ليعى ويفهم ، وإلا سأل وراجع . وروى البخارى عن ابن أبى ملكية : أن عائشة كانت لا تسمع شيئًا لا تعرفه إلا راجعت فيه حتى تعرفه [2] .

وقد سأل كثير من الصحابة عن أمور لهم لم يستبن لهم المراد منها ، حتى أجيبوا عنها ، كسؤالهم عن آية : ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ** ﴾ [الأنعام : ٨٢] قائلين : وأينا لم يظلم نفسه ؟ فأجيبوا : أن المراد بالظلم فى الآية الشرك . كقوله تعالى على لسان لقمان : ﴿ **إن الشرك لظلم عظيم** ﴾ .

وأمثال ذلك كثير ، ومن لم يسأل أضاع على نفسه علمًا كثيراً . يقول الشاعر :

إذا كنت لا تدرى ولم تك بالذى يسائل من يدرى ، فكيف إذن تدرى؟!

وقال عمر : من علم فليعلِّم ، ومن لم يَعْلَم فليسأل العلماء .

* * *

---

(١) رواه البخارى فى كتاب العلم (١٣٢) باب من استحيا فأمر غيره بالسؤال . الفتح ٢٤ .

(٢) رواه البخارى فى كتاب العلم (١٠٣) .

التَعْليم وَمَبَادئه وَقيمَه

بعد أن بينت السنة النبوية فضل التعليم وآدابه وحدوده، بينت فضل التعليم ومنزلته وما يجب له من شروط، وما ينبغى له من آداب، وغالت بالمعلم ورفعته مكاناً علياً.

يقول (ﷺ) : «خيركم من تعلم القرآن وعلمه» [1] .

كما غالت بالقيم التعليمية أو التربوية الأصلية التى يحسبها الناس من ثمار هذا العصر، أو من السلع المستوردة من أوروبا وأمريكا، شأن بقية السلع المادية الأخرى.

وسنتحدث فى هذا الفصل عن أهم هذه القيم أو المبادىء التى فصلتها السنة، وعُنى بها الصحابة وسلف الأمة، عسى أن تعود للأجيال الجديدة الثقة بدينها وتراثها، ويعرفوا من حياتهم وفكرهم ما هو أصيل وما هو دخيل، وعسى أن يسيروا على ما سار عليه أوائلهم من النهوض بالعلم، وإعلاء صرح التربية على تقوى من الله ورضوان.

نبنى كما كانت أوائلنا   تبنى، ونفعل مثلما فعلوا

١ - العناية بالمعلم والتنويه بقدره:

وأولى هذه القيم الأصيلة: العناية بشأن المعلم، والإشادة بمنزلته والتنويه بمكانته، فهو يقوم مقام رسول الله - ﷺ - فى هداية الخلق إلى الحق وتعليمهم ما ينفعهم فى أولاهم وأخراهم. وقد تحدثنا عن وجوب توقير المعلم وإكرامه فى فصل «أدب التعلم».

إن المعلم هو العنصر الفعال فى عملية التعليم، فعلى قدر ما يحمل فى رأسه من علم وفكر، وما يحمل فى قلبه من إيمان برسالته، ومحبة لتلاميذه، وما أوتى من موهبة وخبرة فى حسن طريقة التعليم، يكون نجاحه وأثره فى أبنائه وطلابه.

---

(١) رواه البخارى فى فضائل القرآن (٥٠٢٧) وابو داود فى الوتر (١٤٥٢) والترمذى فى فضائل القرآن (٢٩٠٩).

وكثيراً ما كان المعلم الصالح عوضاً عن ضعف المنهج وضعف الكتاب، وكثيراً ما كان هو المنهج والكتاب معاً.

ومن هنا كانت عناية النبى - ﷺ - بالمعلم، وتنويهه برسالته، وما لها من شأن عند الله، وعند المخلوقات كلها. فهو مشغول بمهمته، وهى مشغولة بالاستغفار له.

يقول رسول الله ﷺ: «إن الله وملائكته، وأهل السماوات والأرض حتى النملة فى جحرها، وحتى الحوت، ليصلون على معلمى الناس الخير» (١).

وأى فضل أعظم من أن تشتغل هذه المخلوقات المبرأة من الذنوب - فى السماء والأرض - بالصلاة والدعاء لمن يعلم الناس الخير.

ويقول عليه الصلاة والسلام: «لا حسد إلا فى اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلطه علي هلكته فى الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها» (٢).

والحسد هنا معناه: الغبطة. وكيف لا يغبط الغنى الشاكر، والعالم المعلم؟ بل جاء فى الحديث أن الصدقة بتعليم العلم أفضل من الصدقة بإيتاء المال. فعن أبى هريرة أن النبى - ﷺ - قال: «أفضل الصدقة أن يتعلم المرء علماً ثم يعلمه أخاه المسلم» (٣).

وروى عنه - ﷺ - حديث آخر يقول: «ما من رجل مسلم تعلم كلمة أو كلمتين أو ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً مما فرض الله عز وجل، فيتعلمهن ويعلمهن إلا دخل الجنة» (٤).

وقال أبو هريرة: فما نسيت حديثاً بعد إذ سمعتهن من رسول الله ﷺ.

---

(١) رواه الترمذى برقم (٢٦٨٦) من حديث أبى أمامة وقال: حديث (حسن صحيح) غريب.

(٢) متفق عليه: اللؤلؤ والمرجان (٤٦٧).

(٣) رواه ابن ماجه فى المقدمة (٢٤٣) وفى الزوائد: إسناده ضعيف.

(٤) رواه أبو نعيم وإسناده حسن. لو صح سماع الحسن من أبى هريرة ترغيب.

ويكفي المعلم فضلاً أن له أجراً بمقدار من ينتفع بعلمه، ويهتدى به من الناس، قربوا أو بعدوا، قلوا أو كثروا.

يقول ﷺ : «من دل على خير فله مثل أجر فاعله» [1] .

ويقول: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً» [2] .

وإذا كان - ﷺ - يقول: «لأن يَهدى الله بك رجلاً واحداً خير لك من حُمْر النعم» [3] فكيف بمن هدى الله به أفراداً وجماعات يؤجر كلما أجروا؟

وروى أبو موسى عنه ﷺ قال: «مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً، فكان منها طائفة طيبة قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير. وكان منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا منها وسقوا وزرعوا. وأصاب طائفة أخرى إنما هى قيعان، لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ. فذلك مثل من فقه في دين الله تعالى، ونفعه ما بعثنى الله به، فعَلِم وعلَّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به» [4] .

والحديث يشبه علم النبوة بالغيث، بجامع الإحياء فى كل منهما، فالغيث يحيى الأرض بعد موتها، والعلم يحيى العقول والقلوب بعد جهلها.

وشأن الناس مع العلم والهدى كشأن الأرض مع الغيث والمطر.

فهناك أرض طيبة تشرب الماء فتحيا به، وتنبت الكلأ والعشب الكثير، ويشبهها من حملة العلم من جمعوا بين الرواية والدراية من العلماء الدعاة المعلمين، فهم ينتفعون وينفعون.

---

(١) رواه مسلم فى الإمارة (١٨٩٣) وأبو داود فى الأدب (٥١٢٩) والترمذى فى العلم (٢٦٧٣) - من حديث أبى مسعود البدرى - ترغيب ١٩٤ .

(٢) رواه مسلم من حديث أبى هريرة فى العلم (٢٦٧٤) وأبو داود فى السنة (٤٦٠٩) والترمذى فى العلم (٢٦٧٦) .

(٣) متفق عليه. اللؤلؤ والمرجان (١٥٥٧) .

(٤) متفق عليه. اللؤلؤ والمرجان (١٤٧١) .

وهناك أرض تحفظ الماء، كأنما هي أحواض مبنية لمنع الماء أن يتسرب ويذهب سدى، فهي تمسكه ليشرب منه من يشرب، أو يسقى ويزرع. ويشبهها من أهل العلم الرواة الحفظة النقلة، الذين يحملون العلم لغيرهم، وإن لم يكن لهم فيه كبير فهم أو استنباط.

وأرض ثالثة سبخة رديئة، لا تنتفع بالماء لنفسها، ولا تمسكه لغيرها. ويشبهها أولئك الذين أعرضوا عن العلم والهدى، فلا ينتفعون ولا ينفعون، ولا يحفظون ولا يفهمون، فلا هم في أهل الرواية ولا في أهل الدراية [1].

فالعالم العامل المعلم هو وارث النبوة حقاً - وقد روى عن المسيح عليه السلام قوله: «من علم وعمل وعلّم فذلك يدعى عظيماً في ملكوت السماوات».

وكان السلف إنما يسمون الرجل «ربانياً» إذا علم وعمل بعلمه، وعلم غيره إشارة إلى قول الله تعالى: ﴿ولَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩].

وناهي المعلم شرفاً وفضلاً أن رسول الله وخيرته من خلقه سمى نفسه «معلماً» فعن ابن عمر: أن رسول الله - ﷺ - مر بمجلسين في مسجده: «أحد المجلسين يدعون الله ويرغبون إليه، والآخر يتعلمون الفقه ويعلمونه، قال: كلا المجلسين على خير، وأحدهما أفضل من صاحبه أما هؤلاء فيدعون الله، ويرغبون إليه، فإن شاء أعطاهم، وإن شاء منعهم، وأما هؤلاء فيتعلمون الفقه والعلم ويعلمون الجاهل. فهؤلاء أفضل. وإنما بُعثت معلماً، ثم جلس فيهم» [2].

وقد ضعف سند هذا الحديث، ولكن يشهد له الحديث الصحيح الذى رواه مسلم: «إن الله لم يبعثني معنتاً ولا متعنتاً ولكن بعثني معلماً ميسراً» [3].

---

(١) لابن القيم كلام جيد في هذا الحديث في كتابه. مفتاح السعادة، جـ ١ / ٦٠ فليراجع.

(٢) أخرجه الدارمي جـ ١ / ٧٤، بتحقيق السيد عبد الله هاشم يماني، وأبو داود الطيالسي ١ / ٣٦. والبغوي ١ / ٢٧٤ - ٢٧٥، وفي إسناده عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الإفريقي وهو ضعيف.

(٣) رواه مسلم في كتاب الطلاق من صحيحه حديث ١٤٧٨، رواه أيضاً أحمد (٣ / ٣٢٨) والنسائي كما في تفسير ابن كثير جـ ٣ / ٨٤١.

بل يشهد له القرآن ذاته، فقد وصف الله تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام في أربع آيات [1] بأن من وظيفته الأساسية أن يعلم أمته الكتاب والحكمة.

٢ - تكافل المجتمع في تعليم أبنائه:

وينبغي لمن علم علماً أن يبدأ بتعليمه لأقرب الناس إليه ثم من يليهم، ثم من بعدهم وهكذا، كما يبدأ في النفقة: ابدأ بمن تعول [2].

وعن علي رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا** ﴾ [التحريم: ٦] قال: علموا أهليكم الخير [3].

وقال تعالى: ﴿ **وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ** ﴾ [طه: ١٣٢].

وفي الحديث: «ما نحل والد ولده نحلاً أفضل من أدب حسن» [4].

ويأتي بعد حق الأهل والولد والأقارب حق الجيران، وللجار في الإسلام حق أكيد على جاره أوصى به جبريل النبيَّ ﷺ وأوصى به النبي أصحابه وما زال يوصيهم حتى ظنوا أنه سيورثه.

وبعد الأهل والولد يأتي حق الخدم وإن كانوا رقيقاً، فينبغي لسيد البيت ألا يبخل بتعليمهم ما لهم وما عليهم فقد أصبحوا جزءاً من الأسرة. إن أحسنوا فلأنفسهم ولها. وإن أساؤوا فعلى أنفسهم وعليها.

روى البخاري في باب تعليم الرجل أمته وأهله، حديث أبي موسى أن النبي ﷺ، قال: «ثلاثة لهم أجران: رجل من أهل الكتاب آمن بمحمد ﷺ، والعبد المملوك إذا أدى حق الله وحق مواليه، ورجل كانت عنده أمة، فأدبها فأحسن تأديبها، وعلمها فأحسن تعليمها، ثم أعتقها فتزوجها، فله أجران».

---

(١) اثنتان منها في سورة البقرة، وواحدة في آل عمران، وأخرى في الجمعة.

(٢) متفق عليه من حديث حكيم بن حزام اللؤلؤ والمرجان (٦١٣).

(٣) رواه الحاكم موقوفاً، وقال: صحيح على شرطها، ووافق الذهبي ٢/٤٩٤.

(٤) رواه الترمذي في البر والصلة (١٩٥٣) وقال: غريب مرسل. والحاكم وصححه، ورده الذهبي جـ ٤/٥٠٣.

والأجر الأول لصاحب الأمَة إنما هو على حسن تأديبها وتعليمها، والأجر الثانى إعتاقها وتزوجها.

وقد انتهت هذه الوصايا النبوية المؤكدة - إلى جوار ما فى القرآن - بأن جعلت كل مجموعة سكنية - قرية من القرى أو حى من الأحياء - وحدة مترابطة متكافلة فى السراء والضراء، فى المجال المادى، وفى المجال المعنوى على السواء.

ففى المجال المادى أو الاقتصادى يأبى النبى - ﷺ - أن يقبل فى محيط أهل الإيمان من ينعم بالخير والرخاء لنفسه مغفلاً أمر جيرانه، فيقول: «ليس بمؤمن - وفى رواية: ليس منا - من بات شبعان وجاره إلى جنبه جائع وهو يعلم» (١).

وفى المجال العقلى أو المعنوى يفرض على الجيران الذين رزقوا حظاً من العلم، ألا يدعوا جيرانهم الذين لم يتح لهم أن يستنيروا بنور العلم، دون أن يفقهوهم، ويؤدوا إليهم زكاة عملهم، كما يؤدون إليهم زكاة أموالهم.

وقد رويت فى ذلك قصة جديرة أن تسجل وتروى:

عن علقمة بن سعد بن عبد الرحمن بن أبزى عن أبيه عن جده قال: خطب رسول الله ﷺ، ذات يوم فأثنى على طوائف من المسلمين خيراً، ثم قال: «ما بال أقوام لا يفقهون جيرانهم، ولا يعلمونهم، ولا يعظونهم، ولا يأمرونهم، ولا ينهونهم؟ وما بال أقوام لا يتعلمون من جيرانهم، ولا يتفقهون ولا يتعظون، والله ليعلمن قوم جيرانهم، ويفقهونهم، ويعظونهم، ويأمرونهم وينهونهم، وليتعلمن قوم من جيرانهم، ويتفقهون، ويتعظون، أو لأعاجلنهم العقوبة، ثم نزل، فقال قوم: من ترونه عنى بهؤلاء؟ قال: الأشعريين هم قوم فقهاء، ولهم جيران جفاة من أهل المياه والأعراب، فبلغ ذلك الأشعريين، فأتوا رسول الله عليه الصلاة والسلام فقالوا: يا رسول الله، ذكرت قوماً بخير، وذكرتنا بشر فما بالنا؟ فقال: ليعلمن

---

(١) رواه البزار والطبراني بإسناد حسن - كما قال الهيثمى فى المجمع (٨/١٦٧) - الفيض جـ ٥/٤٠٧.

قوم جيرانهم، وليعظنهم، وليأمرنهم، ولينهونهم، وليتعلمن قوم من جيرانهم، ويتعظون، ويتفقهون أو لأعاجلنهم العقوبة فى الدنيا، فقالوا يا رسول الله أَنُفَطِّنُ غيرنا؟ فأعاد قوله عليهم، فأعادوا قولهم: أنفطن غيرنا؟ فقال ذلك أيضاً، فقالوا: أمهلنا سنة فأمهلهم سنة ليفقهوهم، ويعلموهم، ويعظوهم (فى نسخة: يفقهونهم، ويعلمونهم ويعظونهم) ثم قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ... ﴾ [الآية ٧٨ وما بعدها من سورة المائدة] (١) .

ويعلق المرحوم الدكتور مصطفى السباعى على هذا الحديث فيقول:

إنك لترى فى هذا الحديث من الحقائق ما يجدر التنبيه إليها:

١ – فالرسول عليه السلام لم يقر قوماً على الجهالة بجانب قوم متعلمين.

٢ – واعتبر بقاء الجاهلين على جهلهم وامتناع المتعلمين عن تعليمهم عصياناً لأوامر الله وشريعته.

٣ – واعتبر ذلك أيضاً (عدواناً) و (منكراً) يوجبان اللعنة والعذاب.

٤ – وأعلن الحرب والعقوبة على الفريقين حتى يبادروا إلى التعليم والتعلم.

٥ – وأعطاهم لذلك مهلة عام واحد للقضاء على آثار الجهالة فيما بينهم.

٦ – ولئن كانت الحادثة قد وردت بشأن الأشعريين العلماء وجيرانهم الجهلاء، فإن الرسول أعلن ذلك المبدأ، بصفة عامة، لا بخصوص الأشعريين وحدهم بدليل أن الأشعريين لما جاؤوا يسألونه عن سر تخصيصهم بهذا الإنكار كما فهم الناس، لم يقل لهم: أنتم المرادون بذلك، بل أعاد القول العام الذى سلف ثلاث مرات دون أن يخصصه بالأشعريين، إشعاراً بأن القضية قضية مبدأ عام غير مخصوص بفئة ولا عصر معين .

---

(١) رواه الطبرانى فى الكبير عن بكير بن معروف عن علقمة. كما قال الهيثمى فى المجمع (١٦٤/١) .

٣ - الترحيب بالمتعلم والبشاشة له :

ومن القيم التربوية الجليلة : ما سنه الرسول - ﷺ - للمعلم من آداب ينبغى أن تراعى مع المتعلم، حتى يؤتى التعليم أحسن الثمرات .

وأول آداب المعلم مع المتعلم أن يهش له، ويبش فى وجهه، ويظهر له البشر والابتهاج، ويعلن عن الترحيب به، حتى تزول عنه الوحشة، وتنحل من نفسه العقدة، عقدة الخوف من المعلم، والرهبة من العلم .

وهذا ما كان يفعله النبى - ﷺ - وأصحابه من بعده . عن قيس بن كثير، قال : قدم رجل من المدينة إلى أبى الدرداء - رضى الله عنه - وهو بدمشق، فقال : ما أقدمك أى أخى؟ قال : بلغنى أنك تحدث به عن النبى رسول الله ﷺ، قال : أما قدمت لتجارة؟ قال : لا . قال : ما قدمت إلا فى طلب هذا الحديث؟ قال : نعم .

قال : فإنى سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاً لطالب العلم . . الحديث » [١] .

وعن صفوان بن عسال المرادى - رضى الله عنه - قال : أتيت النبى - ﷺ - وهو فى المسجد متكىء على برد له أحمر، فقلت له : يا رسول الله إنى جئت أطلب العلم، فقال : « مرحباً بطالب العلم! إن طالب العلم تحفه الملائكة بأجنحتها، ثم يركب بعضهم بعضاً حتى يبلغوا السماء الدنيا من محبتهم لما يطلب » [٢] .

وهكذا كان موقف صفوان ممن يجيئه يطلب منه العلم ويسمع الحديث، فهو يرحب به، ويبشره بما بشره من قبل النبى - ﷺ - .

---

(١) الحديث قد تقدم . وهذه الرواية عند أحمد فى مسنده (٥ / ١٩٦) انظر : الفتح الربانى جـ ١ ص ١٤٩ حديث ١٣ من كتاب العلم .

(٢) رواه أحمد (٤ / ٢٣٩) ورواه الطبرانى فى الكبير ورجاله رجال الصحيح كما قال الهيثمى فى المجمع (١ / ١٣١) وابن حبان كما فى الاحسان (٨٥) وقال الشيخ شعيب : حديث حسن . والحاكم ، وقال : صحيح الإسناد . وروى ابن ماجة نحوه باختصار . ترغيب . حديث ١٠٨ .

وعن أبى سعيد أن النبى – ﷺ – قال: «سيأتيكم أقوام يطلبون العلم، فإذا رأيتموهم فقولوا لهم: مرحباً بوصية رسول الله ﷺ وأفتوهم»[1] وفى رواية «وأقنوهم» أى: أرضوهم وأعينوهم.

وكان أبو سعيد إذا جاءه طلاب العلم قال: مرحباً بوصية رسول الله ﷺ[2].

ودرج الصحابة ومن بعدهم على قبول وصيته عليه الصلاة والسلام فى الترحيب بالمتعلمين، وتكريمهم، وإعانتهم أدبياً ومادياً على الاستمرار فى طلبهم للعلم.

وكان ابن مسعود – رضى الله عنه – يقول إذا رأى الشباب يطلبون العلم: مرحباً بينابيع الحكمة، ومصابيح الظلم، خلقان الثياب، جدد القلوب، حبس البيوت، ريحان كل قبيلة[3]!.

وكان أبو حنيفة يكثر مجالسة طلبته، ويخصهم بمزيد الإكرام، وصنوف العناية فى التكريم.

وكان البويطى يدنيهم ويقربهم، ويحضهم على الاشتغال، ويعاملهم بأشرف الأحوال[4].

٤ – الرفق بالمتعلم والحنو عليه:

ومن أدب المعلم فى الإسلام أن يرفق بالمتعلم ويأخذ بيده، ويعامله معاملة الأب لولده، مقتدياً بالمعلم الأول، رسول الله ﷺ، الذى وصفه الله بقوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: آية ١٢٨]. والذى وصف نفسه فقال: «إنما أنا لكم مثل الوالد لولده»[5].

---

(١) رواه ابن ماجة فى المقدمة (٢٤٧) والطيالسى والديلمى، ورمز السيوطى لحسنه فى الجامع الصغير، الفيض جـ ٤ حديث ٤٧٣٣.

(٢) رواه الحاكم فى المستدرك جـ ١ / ١٨٠ وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبى.

(٣) «جامع بيان العلم» جـ ١ / ١٢.

(٤) فيض القدير جـ ٤ / ١١٧.

(٥) رواه أبو داود فى الطهارة (٨) والنسائى فى الطهارة (٤٠) وابن ماجة فى الطهارة (٣١٣) وابن حبان فى الإحسان (١٤٣١) وقال الشيخ شعيب: إسناده حسن.

وأهم ما يميز علاقة الأبوة بالبنوة هو الرحمة والرفق والحنو. وهذا ما ينبغي أن يحس به التلميذ من أستاذه، ويشعر بحبه له، وحرصه على نجاته وسعادته في الأولى والآخرة، ويغرس الحب والأخوة بين طلابه، كما يغرس الأب المحبة بين أبنائه، حتى يحب بعضهم بعضاً، ويعاون بعضهم بعضاً، ويعطف بعضهم على بعض، ولا يتباغضوا ويتحاسدوا. وكذلك كان علماء السلف في علاقاتهم بتلاميذهم.

يقول أمير المؤمنين في الحديث، سفيان الثوري: والله لو لم يأتوني لأتيتهم في بيوتهم، يعني أصحاب الحديث (١).

وقال الربيع بن سليمان: قال لي الشافعي: يا ربيع لو قدرت أن أطعمك العلم لأطعمتك إياه (٢)!.

وقال الربيع: كان الشافعي - رحمه الله - يملي علينا في صحن المسجد فلحقته الشمس، فمر بعض إخوانه، فقال: يا أبا عبد الله، في الشمس؟! فأنشأ الشافعي يقول (٣):

أهين لهم نفسي لأكرمهم بها ولن تكرم النفس التي لا تهينها!

ومن دلائل هذا الرفق أن يتبنى روح التيسير لا التعسير، والتبشير لا التنفير. وهذا ما أوصى به النبي - ﷺ، من بعثه من أصحابه معلمين وهداة وقضاة، مثل: معاذ بن جبل، وأبي موسى الأشعري، حيث قال لهما - وقد بعثهما إلى اليمن: «يسرا ولا تعسرا وبشرا ولا تنفرا» (٤).

قال الحافظ في «الفتح» في شرحه لهذا الحديث:

«وفي الحديث: الأمر بالتيسير، والرفق بالرعية، وتحبيب الإيمان إليهم، وترك الشدة، لئلا تنفر قلوبهم، ولا سيما فيمن كان قريب العهد بالإسلام، أو قارب حد التكليف من الأطفال، ليتمكن الإيمان من قلبه، ويتمرن عليه.

---

(١)، (٢)، (٣) روى هذه الآثار ابن عبد البر في كتاب العلم جـ ١ / ١٤٢.

(٤) متفق عليه اللؤلؤ والمرجان (١١٣٠).

وكذلك الإنسان في تدريب نفسه على العمل إذا صدقت إرادته لا يشدد عليها، بل يأخذها بالتدريج والتيسير، حتى إذا أنست بحالة ودامت عليها، نقلها لحال آخر، وزاد عليها أكثر من الأولى، حتى يصل إلى قدر احتمالها، ولا يكلفها بما لعلها تعجز عنه . . » [1] .

وفي حديث آخر: «علموا ويسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا، وإذا غضب أحدكم فليسكت» [2] .

وفي آخر: «علموا ولا تعنفوا فإن المعلم خير من المعنف» [3] .

وذلك أن الله يريد بعباده اليسر ولا يريد بهم العسر، وهو يحب الرفق في الأمر كله ويجزي على الرفق مالا يجزي على العنف، وما دخل الرفق في شيء إلا زانه، ولا دخل العنف في شيء إلا شانه. وأحق الأشياء بالرفق التعليم. فعلى العلماء - كما قال الماوردي - ألا يعنفوا متعلماً، ولا يحتقروا ناشئاً، ولا يستصغروا مبتدئاً، فإن ذلك أدعى إليهم، وأعطف عليهم، وأحث على الرغبة فيما لديهم [4] .

وكان النبي - ﷺ - أرفق الناس بالمتعلمين، وأبعدهم عن التشديد، والتعسير، والفظاظة، والغلظة، وهذا ما نوه به القرآن من أخلاقه ﷺ، ﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ** ﴾ [آل عمران: ١٥٩] .

وكان الرجل يأتي من البادية، ويخاطبه باسمه مجرداً، ويناديه من بُعد، ويكلمه بجفوة، وأحيانا يستوقفه في الطريق، فيسع هذا كله لحلمه وحسن

---

(١) فتح الباري جـ ١٦ ص ٢٨٦ ط الحلبي.

(٢) رواهُ أحمد (١/ ٢٣٩) والبخاري في الأدب المفرد من حديث ابن عباس، ورمز السيوطي لصحته، واعترض المناوي بأنه فيه ليث بن أبي سليم. وهو مدلس، ولم يخرج له مسلم إلا مقرونا بغيره - الفيض جـ ١ /٣٢٨ حديث ٥٤٨٠ .

(٣) أخرجه الحارث بن أبي أسامة في مسنده، وابن عدي، والبيهقي في الشعب، وفيه راو منكر الحديث، لكن الزركشي جعل من شواهده حديث أبي موسى: «يسرا ولا تعسرا».

(٤) فيض القدير جـ ٤ /٣٢٨ .

خلقه، ويجيبه عما سأل، وأكثر مما سأل. وقد يهم أصحابه به، أو يثورون في وجهه فيهدىء من ثورتهم، ويسكن من غضبهم.

عن أبي أيوب: أن أعرابياً عرض لرسول الله - ﷺ - وهو في سفره، فأخذ بخطام ناقته أو بزمامها ثم قال: «يا رسول الله أو يا محمد، أخبرني بما يقربني من الجنة ويباعدني عن النار. قال: فكف النبي - ﷺ - ثم نظر في أصحابه ثم قال: لقد هدى. قال: كيف قلت؟ فأعادها. فقال النبي - ﷺ - : «تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة، وتصل الرحم. دع الناقة» (١).

وسيأتي مزيد من صور الرفق في الإشفاق على المخطىء.

وقد تثار هنا قضية الضرب واستخدام العصا في التعليم، وخصوصاً بالنسبة للصغار. والتربويون في عصرنا ينكرون الضرب على الإطلاق.

والواقع أن الضرب في الأصل ينبغي أن يمنع، لأنه ينافي الرفق الذي تحدثنا عنه.

وقدوتنا في هذا معلمنا الأول رسول الله ﷺ، فقد روت عنه عائشة «أنه ﷺ ما ضرب بيده شيئاً قط، لا امرأة، ولا خادماً، ولا دابة» (٢).

ولم يشرع الإسلام ضرب الصغار، إلا في موضع واحد جاء به الحديث في تعويد الأبناء الصلاة قبل البلوغ، حتى يشبوا على أدائها ورعايتها: «مروهم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر سنين» (٣).

وهنا نلحظ أنه لم يُجز الضرب في سن الطفولة المبكرة. بل في سن العاشرة. ولم يجزه إلا بعد الأمر والدعوة والترغيب لمدة ثلاث سنين.

وإنما شرع الضرب في هذه الحال لإشعار الولد بجدية الأمر، وحرص الأب، وأهمية المطلوب منه، وعدم التهاون فيه.

---

(١) متفق عليه اللؤلؤ والمرجان (٧).

(٢) رواه مسلم في الفضائل (٢٣٢٨) وأبو داود في الأدب (٤٧٨٦) عن عائشة.

(٣) رواه أحمد (٢ / ١٨٠)، وأبو داود في الصلاة (٤٩٥)، والحاكم من حديث عمرو ابن شعيب عن أبيه عن جده وحسنه النووي في رياض الصالحين كما في الفيض (٥ / ٥٢١).

فإن بعض الآباء قد يكتفى بكلمة عابرة يقولها للولد: صل يا بنى. ثم لا يحاسبه بعد ذلك، صلى أم لم يصل؟ استجاب لأمر أبيه أم جعله دبر أذنيه؟..

وكما أن الأب الحازم لا يرضى أن يهمل ابنه أمره فى شؤون الدنيا، فأحرى به أن يكون هذا موقفه مع ولده فى شأن الدين، بل هو أهم وأولى.

ومنزلة المعلم منزلة الأب، فيجوز له ما يجوز للأب فى بعض الأحيان، على أن يكون هذا استثناء من القاعدة الأصلية. وأن يكون ذلك ضرورة تقدر بقدرها.

وكما قال – ﷺ – فى شأن الأزواج: «لن يضرب خياركم» فهذا يقال للآباء والمعلمين أيضاً: لن يضرب خياركم.

٥ – الإشفاق على المخطىء:

ويتجلى الرفق كل الرفق فى الإشفاق على المخطىء. فالخطأ لا يوجب مقابلة المخطىء بالعنف والقهر، أو التشنيع عليه أو السخرية به، فإن هذا قد يؤدى به إلى إذلال نفسيته وتحطيم شخصيته، وهذا ضرب من القتل المذموم ديناً وخلقاً أو يؤدى به إلى الإصرار على الخطأ، والتمادى فى الباطل، والتحدى للحق، دفاعاً عن نفسه، وتسويغاً للغلط، وكلا الأمرين شديد الخطر، عظيم الضرر.

وأعظم نموذج للرفق بالمتعلمين إذا أخطأوا: هو رسول الله ﷺ. فهو خير من يقدر الظروف، ويراعى الأحوال، ويسع الناس جميعاً، حتى ذلك الأعرابى الجلف الذى لم يخجل أن يبول، فى ركن من المسجد، أمام الناس، لم يغلظ عليه. وقابله بما ينبغى لمثله من الرفق واللين.

روى مسلم فى صحيحه عن أنس قال: «بينما نحن فى المسجد مع رسول الله ﷺ، إذ جاء أعرابى، فقام يبول فى المسجد، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: مه مه! (كلمة زجر) قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزرموه، دعوه» فتركوه حتى بال. ثم إن رسول الله – ﷺ – دعاه فقال له: «إن هذه المساجد لا تصلح لشىء من هذا البول ولا القذر إنما هى لذكر الله عز وجل أو الصلاة، وقراءة القرآن» –

أو كما قال رسول الله – ﷺ – قال: فأمر رجلاً من القوم، فجاء بدلو من ماء فشنه عليه » (١) .

وروى الترمذى عن أبى هريرة قال: « دخل أعرابى المسجد والنبى – ﷺ – جالس، فصلى، فلما فرغ قال: اللهم ارحمنى ومحمداً، ولا ترحم معنا أحداً فالتفت إليه النبى – ﷺ – فقال: « لقد تحجرت واسعاً » .. فلم يلبث أن بال فى المسجد فأسرع الناس، فقال النبى ﷺ : « أهريقوا عليه سجلاً من ماء – أو دلواً من ماء – ثم قال: إنما بعثتم ميسرين، ولم تبعثوا معسرين » (٢) .

راعى الرسول الكريم بداوة الرجل ونشأته وظروف حياته، فلم يستجب لثورة أصحابه وهياجهم عليه، وعرفهم أن علاج الأمر سهل فى مسجد لم يكن مفروشاً إلا بالحصباء، وهو صب دلو من ماء. ثم نبههم على طبيعة رسالتهم التى كلفوا حملها للناس، وهى التيسير لا التعسير.

وروى أبو أمامة: أن فتى من قريش جاء إلى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله ائذن لى فى الزنى؟ فأقبل القوم عليه وزجروه فقال: ﷺ : ادنُه: فدنا فقال: أتحبه لأمك؟ قال: لا والله، جعلنى الله فداك: قال: ولا الناس يحبونه لأمهاتهم. ثم قال له مثل ذلك فى ابنته وأخته وعمته، وخالته. وفى كل ذلك يقول: أتحبه هكذا؟ فيقول: لا والله، جعلنى الله فداك! فيقول ﷺ : ولا الناس يحبونه. ثم وضع يده عليه وقال: « اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحصن فرجه » فلم يكن بعد ذلك يلتفت إلى شىء (٣) .

فهذا شاب عارم الشهوة، ثائر الغريزة، صريح فى التعبير عن نوازعه إلى حد الإغراب والإثارة. ورغم غرابة طلبه الذى أثار الجالسين عليه. لم يكن منه ﷺ إلا أن لقيه بهذا الرفق العجيب والحوار الهادىء، الذى يحمل المنطق المقنع والروح المحبب، ثم أنهى هذا الحوار بلمسة حنان على صدر الفتى المتوقد، ومع اللمسة

---

(١) الحديث رقم ٢٨٥ فى صحيحه باب – ٣ – كتاب الطهارة جـ ١ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى.

(٢) رواه الترمذى فى الطهارة (١٤٧) عن أبى هريرة وقال: حديث حسن.

(٣) رواه أحمد (٥ / ٢٥٦) والطبرانى فى الكبير وقال الهيثمى رجاله رجال الصحيح المجمع (١ / ١٢٩) .

دعوات خالصة لله تعالى أن يغفر للفتى ويطهره ويحصنه، فإذا هو يخرج من مجلس الرسول الكريم، كأنّما كان هذا اللقاء لنار شهوته، برداً وسلاماً.

ولا تظن أيها القارىء الكريم أن هذا الأثر الذى تركه موقف النبى ﷺ، فى نفس الشاب من هدوء نفس وإعراض عن الزنى الذى كان يتوق إليه ويرغب فيه. كان معجزة خارقة للنبى عليه الصلاة والسلام، ولا تتكرر لغيره إلا من باب الكرامات، وخوارق العادات، كلا فإن أى معلم ربانى الوجهة، نبوى الطريقة، يقتدى برسول الله ﷺ فى سلوكه، قولاً وعملاً وروحاً، سيجد - بتوفيق الله تعالى - نفس الأثر، أو قريباً منه، وفقاً لسنة الله تعالى.

وأولى المخطئين بالإشفاق من كان خطؤه عن جهل أو غفلة، أو ضعف. وبخاصة من أخطأ لأول مرة، مثل الأعرابى، والشاب القرشى السابق ذكرهما.

ولكن قارىء السنة يجده عليه الصلاة والسلام يسع بحلمه، ورفقه من أصرّ على الخطأ والمعصية نتيجة ضعف إرادته، وغلبة عادته، استبقاء له فى دائرة الإيمان، وفى حظيرة المؤمنين، وتنبيهاً له بحسن المعاملة على سوء صنيعه، عسى أن يستيقظ ضميره فيتوب من زلته، وينهض من سقطته.

وهل نجد مثلاً فى هذا المجال أوضح من قصة ذلك الصحابى المعروف الذى اشتهر باسمه والذى ولع بالخمر إلى حد الإدمان، ولم يردعه أن ضُرب فيها غير مرة، حتى قال بعض الصحابة يوماً، وقد ضاق صدرهُ بكثرة ما قبض عليه فى هذه الجريمة: ما له لعنهُ الله؟ ما أكثر ما يؤتى به! وهنا تتجلى الرحمة المحمدية، والرفق النبوى الرفيع فيقول: «لا تكن عوناً للشيطان على أخيك»، أو: «لا تكونوا عوناً للشيطان على أخيكم». وفى رواية: «لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله» [1].

تنبيه المخطىء على خطئه:

وإياك أن تحسب أخى القارئ أن الرفق بالمخطىء يعنى السكوت على خطئه والإغضاء عنه، وفى هذا إقرار للخطأ، بل تشجيع وإشاعة له.

كلا فالرفق بالمخطىء والإشفاق عليه لا ينافى تنبيهه على خطئه، بل زجره عنه بالرفق المناسب لظروف المخطىء ومدى خطئه ونوعه ودوافعه، وإرشاده إلى

---

(١) انظر: فتح البارى - كتاب الحدود (٦٧٨٠).

الصواب والوضع الصحيح بالتي هي أحسن، ولهذا رأيناه ﷺ بعد أن ترك الأعرابي يبول في المسجد دون أن تُقطع عليه بولته، وبعد أن أمر بصب دلو من ماء عليه. وبعد أن قال لأصحابه ما قال: «إنما بعثتم ميسرين» .. دعاه فقال له: «إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول ولا القذر، إنما هي لذكر الله عز وجل والصلاة وقراءة القرآن»، وفي هذا - كما يقول الإمام النووي - الرفق بالجاهل وتعليمه ما يلزمه من غير إيذاء.

وكذلك حين دعا الأعرابي فقال: اللهم ارحمني ومحمداً، ولا ترحم معنا أحداً، نبهه النبي ﷺ برفق إلى أنه ضيق واسعاً، حين قصر طلب الرحمة له وللرسول دون غيرهما، مع أن رحمته تعالى وسعت كل شيء. ولهذا قال له: لقد تحجرت واسعاً!!

وقد يكون هذا التنبيه أو الإرشاد أو الزجر من باب التعريض لا التصريح، وبالتعميم لا بالتخصيص، ويدرك المخطيء حين يسمع اللفظ العام أنه المقصود مثل: «ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا» .. مثل ما ذكروه في قصة من هاجر من مكة إلى المدينة من أجل امرأة يهواها وأطلق عليه بعض الصحابة «مهاجر أم قيس» وقالوا: إنه كان سبباً في ورود الحديث المشهور «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه» (١).

وطوراً يكون التنبيه على الخطأ غاية في الرفق، ورعاية الشعور كما في قصة أبي بكرة حين دخل المسجد، والنبي ﷺ في الركوع، فكبر من أول المسجد وركع، وظل يمشي راكعاً حتى وصل الصف. وكان ينبغي ألا يكبر ويدخل في الصلاة حتى يصل إلى الصف ولا يصلي منفرداً خلف الصف، فلما بلغ رسول الله ﷺ فعله قال له هذه الكلمة الطيبة: «زادك الله حرصاً ولا تعد» (٢).

---

(١) متفق عليه من حديث عمر بن الخطاب اللؤلؤ والمرجان (١٢٤٥).

(٢) رواه البخاري في الأذان (٧٨٣)، وأحمد (٥ / ٣٩)، وأبو داود في الصلاة (٦٨٣)، والنسائي في الإمامة (٨٧١).

فهذه الجملة الموجزة تتضمن دعاءً ونهياً. ففى الدعاء تقدير لنبل الدافع الذى دفع الصحابى الكريم إلى ما فعل، وهو الحرص على ألا تفوته الركعة فى الجماعة مع النبى عليه السلام. وفى النهى إشعار له بخطئه لئلا يتكرر منه مرة أخرى دون أن يقول له: قد أخطأت.

وعن معاوية بن الحكم السلمى قال: بينما أنا أصلى مع رسول الله ﷺ إذ عطس رجل من القوم، فقلت: يرحمك الله ؛ فرمانى القوم بأبصارهم! فقلت: واثكل أمّاه ما شأنكم تنظرون إلىّ؟! فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم.. فلما رأيتهم يصمتوننى، (أى: يسكتوننى) لكنى سكت. فلما صلى رسول الله ﷺ. فبأبى هو وأمى! ما رأيت معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه، فوالله ما كهرنى، (أى: ما نهرنى)، ولا ضربنى ولا شتمنى قال: إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شىء من كلام الناس. إنما هى التسبيح والتكبير، وقراءة القرآن. أو كما قال رسول الله ﷺ، قلت يا رسول الله: إنى حديث عهدٍ به وقد جاء الله بالإسلام. وإن منا رجالاً يأتون الكهان؟ قال: فلا تأتهم. قلت: ومنا رجال يتطيرون (يتشاءمون) قال: ذاك شىء يجدونه فى صدورهم، فلا يصدنهم [1]، (أى: عن وجهتهم).

فهذا العربى الغفل، الحديث العهد بالإسلام، يدخل الصلاة ويتصرف فيها كأنما هو فى مجلس من مجالس القوم: يشمت العاطس، ويكلم من حوله، ويردّ على من أنكر عليه، والصحابة يرون هذا منه وينبهونه بنظرات أعينهم وحركات أيديهم، وهو لا ينتبه إلى خطئه حتى فرغ من صلاته، وحكوا للنبى ﷺ ما صنعه فى صلاته. وهنا تتجلى روح المعلم الحق، وأسلوبه الرفيق الرقيق فى معالجة الخطأ وتنبيه المخطئين، وتعليم المبتدئين. وهو ما لحظه هذا الرجل الأمى البسيط بنور فطرته، وعبر عنه بعباراته القوية البليغة: بأبى هو وأمى. ما رأيت معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه، فوالله ما كهرنى ولا ضربنى ولا شتمنى.

كل ما فعله عليه الصلاة والسلام: أنه نبهه على خطئه دون أن يقول له: أخطأت وأسأت، ولم تعرف للصلاة قدرها، ونحو ذلك من العبارات القاسية. إنما

---

(١) رواه مسلم فى المساجد ومواضع الصلاة حديث (٥٣٧).

بين له حقيقة الصلاة وما لا يليق من القول أن يدخل فيها: «إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس. إنما هي التسبيح والتكبير وقراءة القرآن».

وكذلك يجب أن يكون المعلمون الصادقون.

وفي قصة تخيير نسائه ﷺ التي نزل بها القرآن: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا * وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا**﴾ [سورة الأحزاب ٢٨، ٢٩]. أقبل النبي ﷺ على نسائه يعرض عليهن ما أمره الله به من التخيير، وبدأ بعائشة رضي الله عنها، فعرض عليها أن تختار أحد أمرين: إما الله ورسوله والدار الآخرة، على ما في ذلك من الكفاف، وحياة التقشف والزهد، وخشونة العيش، وإما الدنيا وزينتها فلها حق المتعة والسراح الجميل، وطلب إليها أن تتريث في الأمر وألا تقطع فيه برأى حتى تشاور أبويها. وهنا قالت عائشة في حسم ويقين: أفيك أستأمر أبويّ يا رسول الله؟ بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة. ثم بدت الطبيعة البشرية النسوية فغلبت على عائشة. فطلبت منه عليه الصلاة والسلام ألا يخبر أحداً من نسائه بما اختارته حتى لا يؤثر موقفها في موقفهن، كأنما تريد لهن جميعاً أن يخترن الدنيا وزينتها وتنفرد هي بهذه المزية، ويخلو لها وجهه ﷺ. وهنا يتجلى المعنى التربوي الكبير في موقفه عليه الصلاة والسلام، حين قال لها: «يا عائشة إن الله لم يبعثني معنتاً ولا متعنتاً ولكن بعثني معلماً ميسراً» [(١)].

فلم يُقر الصديقة بنت الصديق على نزعتها تلك، وبين لها وظيفته التي لا يتركها ولا تتركه، وهي: أنه معلم، ومعلم ميسر، غير معنت ولا متعنت.

قال العلامة المناوي: فيه إشعار بأن من دقائق صناعة التعليم أن يزجر المعلم المتعلم عن سوء الأخلاق باللطف، والتعريض ما أمكن من غير تصريح، وبطريق الرحمة من غير توبيخ. فإن التصريح يهتك حجاب الهيبة، ويروث الجراة على الهجوم بالخلاف، ويهيج الحرص على الإصرار. (ذكره الغزالي) [(٢)].

---

(١) أخرجه مسلم في الطلاق (١٤٧٨).

(٢) نقله المناوي في فيض القدير.

غير أننا نجد النبي ﷺ، يزجر عائشة نفسها على خطأ ارتكبته في موقف آخر، وكان الزجر بطريقة فيها لون من الشدة يغاير ما ذكرناه سابقاً. وذلك أنها اعتدت على حق ضرة من ضرائرها من أمهات المؤمنين، فقد قالت للرسول ﷺ: حسبك من صفية كذا وكذا. قال بعض الرواة تعني: قصيرة فقال: «يا عائشة، لقد قلت كلمة لو مزجت بماءالبحر لمزجته» (١).

يعني: أن هذه الكلمة أو هذه الإشارة التي لم تصل إلى التصريح الكامل جديرة بأن تعكر بحراً، على عمقه وسعته، هذا مع أنها أحب نسائه إليه.

وأحياناً يشتد النكير ويعلو الصوت بالتنديد، في غير إسفاف ولا إسراف، وذلك حين لا يكون الخطأ مجرد خطأ في سلوك جزئي فردي، بل يمثل بداية انحراف في الاتجاه، وفي المنهج، كقوله لعمر حين رأى معه بعض كتب أهل الكتاب المحرّفة -: «أمتهوكون - أي: أمتحيرون - فيها يا ابن الخطاب، والله لو كان موسى حياً ما وسعه إلا أن يتبعني» (٢). ونحو ذلك لما شكا إليه بعض أصحابه أنه يتأخر عن الجماعة لما يجد من تطويل الإمام بهم، إلى حد جعله يهرب من الصلاة في الجماعة. قال أبو مسعود الأنصاري راوي هذا الحديث: فما رأيت النبي - ﷺ - في موعظة أشد غضباً من يومئذ. فقال: «يا أيها الناس، إنكم منفرون! فمن صلى بالناس، فليخفف، فإن فيهم المريض والضعيف وذا الحاجة» (٣).

وتشتد اللهجة بالإنكار أكثر وأكثر حينما يتمثل هذا الانحراف في جماعة أو كتلة كقوله - حينما تنادى الأوس: ياللأوس: وتنادى الخزرج: ياللخزرج!: «أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟» (٤).

وقوله للثلاثة الذين قرر أحدهم قيام الليل كله، والثاني صيام الدهر كله،

---

(١) رواه أبو داود في الأدب (٤٨٧٥)، والترمذي في صفة القيامة (٢٥٠٤) وقال: حسن صحيح - ترغيب ٤٠٩٢.

(٢) سيأتي تخريجه في الفصل الخامس.

(٣) متفق عليه من حديث أبي مسعود الأنصاري اللؤلؤ والمرجان (٢٦٧).

(٤) ذكره ابن كثير في تفسيره عن ابن إسحاق.

والثالث اعتزال النساء أبداً: «أما إنى أخشاكم لله وأتقاكم له، ولكنى أقوم وأنام، وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتى فليس منى»(١).

ومثل ذلك ما رواه عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: أنه ﷺ سمع قوماً يتمارون فى القرآن، فقال: «إنما هلك من كان قبلكم بهذا، ضربوا كتاب الله بعضه ببعض، وإنما نزل كتاب الله يصدق بعضه بعضاً، فلا تكذبوا بعضه ببعض، فما علمتم منه فقولوا، وما جهلتم فكلوه إلى عالمه»(٢).

وفى بعض الروايات: أن تنازعهم كان فى القدر.

وفى بعضها: أنه خرج عليهم كأنما يفقأ فى وجهه حب الرمان(٣)، أى: من شدة الغضب، وأنما أغضبه التدافع والمراء فى القرآن، وضرب آياته بعضها ببعض. فإن هذا بداية فتنة فى الفكر والعقيدة لا يعلمها إلا الله، لأن القرآن أنزله الله ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، ويجمعهم على كلمة سواء، فإذا أصبح هو مجالاً للتنازع والمراء والاختلاف، فقد أصبح محتاجاً إلى حاكم آخر يحسم النزاع، ويصفى الخلاف. وهذا مبتدأ تمزق الأمم، وشيوع الانحرافات والأهواء والبدع. وهذا ما أهلك الأمم من قبل، وهو خليق أن يهلك هذه الأمة من بعد. ومن ثم كان غضبه وزجره ﷺ.

٦ - تشجيع المحسن والثناء عليه:

وإذا كان من الأسس النافعة فى التعليم والتربية تسديد المخطىء والأخذ بيده فى رفق، فإن مما يكملها تشجيع من أصاب وأحسن، والإشادة بإحسانه، والثناء عليه، ليزداد نشاطاً فى الخير، وإقبالاً على العلم والعمل، ويضيف إحساناً إلى إحسان وهكذا كان ﷺ.

كان أبو موسى الأشعرى حسن التلاوة للقرآن، فقال له النبى - ﷺ: - «لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود»(٤)، يعنى بآل داود: داود نفسه.

---

(١) رواه البخارى فى النكاح (٥٠٦٣).

(٢) رواه أحمد فى مسنده (٢/ ١٨٥) وابن ماجه فى سننه فى المقدمة (٨٥).

(٣) انظر: الحديث ٤٢ من كتاب القدر - الفتح الربانى جـ ١ / ١٤٢ وفيه: قال البوصيرى فى زوائد ابن ماجة. هذا إسناد صحيح ورجاله ثقات.

(٤) متفق عليه من حديث أبى موسى اللؤلؤ والمرجان (٤٥٦) انظر: رياض الصالحين (١٠٠٣).

وقال له يوماً: «لو رأيتني وأنا أستمع لقراءتك البارحة»! (أي: لسرك ذلك)، فقال أبو موسى: يا رسول الله، لو أعلم أنك تسمعه لحبّرته لك تحبيراً [١].

وعن أبيّ بن كعب قال: قال رسول الله - ﷺ - : «يا أبا المنذر أتدرى أى آية من كتاب الله معك أعظم؟ قلت: (الله لا إله إلا هو الحى القيوم) (يعنى الآية المعروفة بآية الكرسى) فضرب فى صدرى وقال: «ليَهنك العلم أبا المنذر» [٢].

ومن قرأ كتاب المناقب، أو الفضائل فى صحيح البخارى، أو صحيح مسلم، أو غيرهما من كتب الحديث يجد نصوصاً تحمل الثناء على واحد، أو جماعة من أصحاب النبى ﷺ، ولم يكن يلقى النبى ﷺ ما يقوله من كلمات الثناء اعتباطاً، أو مجاملة، بل كانت تقديراً لمن يستحق التقدير، وتكريماً لمن هو أهل للتكريم، كما أثنى على أبى بكر وعمر وعثمان وعلى وغيرهم من كبار الصحابة فى مواقف شتى.

وقال لسعد بن أبى وقاص يوم أحد: «ارم فداك أبى وأمى» [٣]!

وقدم أهل اليمن على رسول الله - ﷺ - فقالوا - : «ابعث معنا رجلاً يعلمنا السنة والإسلام. قال فأخذ بيد أبى عبيدة، فقال: «هذا أمين هذه الأمة» [٤].

وقال - ﷺ - : «خذوا القرآن من أربعة: من ابن أم عبد (يعنى ابن مسعود)، ومعاذ بن جبل، وأبى بن كعب، وسالم مولى أبى حذيفة [٥]. وأثنى على أبى هريرة لما سأله: من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة [٦]؟ وفى حديث اشتهر عنه، ذكر عدداً من أصحابه كل بأبرز ما يميزه من الفضائل، فقال:

---

(١) رواه مسلم فى صلاة المسافرين وقصرها (٧٩٣).

(٢) رواه مسلم فى صلاة المسافرين وقصرها (٨١٠).

(٣) متفق عليه من حديث على اللؤلؤ والمرجان (١٥٦١).

(٤) رواه مسلم فى فضائل الصحابة (٢٤١٩).

(٥) متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو اللؤلؤ والمرجان (١٦٠٠).

(٦) رواه البخارى فى العلم (٩٩)، وأحمد (٢ / ٣٧٣).

« أرحم أمتى بأمتى أبو بكر .. وأشدهم فى الله عمر، وفيه: أن أقضاهم على، وأفرضهم، (أى: أعلمهم بالفرائض وهى المواريث) زيد، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل [1] .. الخ» .

وهكذا كان ﷺ ينوه بأقدار الفضلاء من أصحابه، وبذوى المواهب المتميزة منهم، ليعرف الناس ذلك لهم، ويأخذوا عنهم وينتفعوا بهم. كما ذم النبى ﷺ، فى حديث له صنفاً من الأئمة: «الذى إن أحسنت لم يشكر وإن أسات لم يغفر» [2] وإذا كان هذا مذموماً فى الرؤساء، فهو مذموم كذلك فى المعلمين.

وكذلك ينبغى لكل معلم راشد أن يشيد بالمواقف الحسنة لتلاميذه - وينوّه بكل من له موهبة أو قدرة، ولينمى فيه الطموح بالحق، والتفوق بالعدل، ولينبه الآخرين على فضلهم، فينافسوهم فى الخير إن استطاعوا، أو يعترفوا لهم بالفضل إن عجزوا. وإن كلمة تقدير وتكريم من أستاذ له قدر فى شأن أحد تلاميذه، قد تصنع منه - بتوفيق الله تعالى - نابغة من نوابغ العلم.

ومن طلاب العلم من أوتى الموهبة والذكاء والقدرة على الفهم والتحليل والتحصيل، ولكن تنقصه الثقة بالنفس والأمل فى الغد، فما أحوجه إلى كلمة من أستاذ مرشد تنفعه وترفعه.

ذكر يوسف بن يعقوب بن الماجشون: أنه كان هو وأخ له وابن عم - يطلبون العلم عند ابن شهاب الزهرى فقال لهم: لا تحقروا أنفُسكم لحداثة أسنانكم، فإن عمر بن الخطاب كان إذا نزل به الأمر المعضل، دعا الفتيان فاستشارهم، يبتغى حِدة عقولهم [3] .

٧ - التدرج فى التعليم:

ومن المبادىء التى حرص عليها الإسلام فى جميع المجالات - ومجالات التربية خاصة - ، وجاءت بها السنة القولية والعملية: التدرج فى التعليم.

---

(١) رواه الترمذى فى المناقب (٣٧٩٣) وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) رواه الطبرانى عن فضالة بن عبيد بإسناد لا بأس به، كما قال الهيثمى فى المجمع (١ / ١٦٨) الترغيب (٣٧٠٥).

(٣) «جامع بيان العلم» جـ ١ / ١٠٢ .

وهذا واضح فى جانب التكليف والتشريع. فقد كان التكليف فى العهد المكى مقصوراً على أحكام العقيدة ومكارم الأخلاق. ثم فرضت الصلاة قبيل الهجرة. وفرضت فى أول الأمر ركعتين ثم أقرت فى السفر وزيدت فى الحضر.

وفى المدينة فرضت بقية الفرائض، كما حرمت الخمر والربا وغيرهما. كل ذلك بمنهج تدريجى حكيم يسهل على المكلفين امتثال الأمر واجتناب النهى فى غير حرج ولا إعنات.

وهكذا كان الرسول الكريم يعلم أصحابه: أن يأخذوا بسنة «التدرج» التى هى سنة الله فى الحياة والوجود كله.

عن ابن عباس رضى الله عنه: أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذاً إلى اليمن قال: «إنك تأتى قوماً من أهل الكتاب، فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأنى رسول الله. فإن هم أطاعوك لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات فى كل يوم وليلة. فإن أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم، فترد على فقرائهم. الحديث» [١] فقوله: «تأتى قوماً من أهل الكتاب» كالتوطئة للوصية، لتستجمع همته عليها، لكون أهل الكتاب أهل علم فى الجملة. فلا تكون مخاطبتهم كمخاطبته الجهال من عبدة الأوثان [٢].

ثم أمره أن يبدأ دعوته بأمر العقيدة، فيدعوهم إلى الشهادتين، لأنهما باب الدخول فى الإسلام، وأصل الدين كله، ولا تقبل عبادة ولا عمل بغير الإقرار بهما والإذعان لهما.

فإن هم أطاعوا لذلك ورضوا بالله رباً، وبمحمد رسولاً، أعلمهم بالفريضة اليومية والعبادة العملية الأولى، التى هى الرباط الدائم بين الإنسان وربه، والفيصل الفارق بين المسلم والكافر وهى الصلاة عمود الإسلام.

فإن هم عرفوا ذلك واستجابوا له، أعلمهم بالفريضة العملية الثانية — وهى

---

(١) متفق عليه من حديث ابن عباس اللؤلؤ والمرجان (١١).

(٢) انظر: المصدر السابق.

شقيقة الصلاة فى القرآن والسنة، والرباط الاجتماعى والاقتصادى بين المسلمين بعضهم وبعض، وهى الزكاة، قنطرة الإسلام.

وهكذا ينبغى أن تكون الدعوة ويكون التعليم.

والتدرج ذو شقين: شق يتعلق بالكم، وشق يتعلق بالكيف.

فالأول يعنى: أن يعطى المتعلم من العلم المقدار الملائم له، ولا يكثر عليه الأستاذ، ويحمله ما لا يطيق، فينوء به، ويضيعه كله، فهو يريد أن يعطيه الكثير دفعة واحدة، فيضيع بذلك الكثير والقليل. والعلم متين كالدين: فيجب أن يوغل فيه برفق، فإن المُنْبَتّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى.

وفى هذا أوصى الزهرى تلميذه يونس بن زيد فقال: يا يونس لا تكابر العلم فإن العلم أودية، فأيها أخذت فيه قطع بك قبل أن تبلغه. ولكن خذه مع الأيام والليالى. ولا تأخذ العلم جملة، فإن من رام **أخذه جملة ذهب عنه جملة!** ولكن الشىء بعد الشىء مع الأيام والليالى [١].

والشىء الثانى فى التدرج: هو ما يتعلق بالكيف والنوع. على أن يبدأ الأستاذ مع طلابه بالجلى من العلم قبل الخفى، والبسيط قبل المركب، وبالخفيف قبل الثقيل، والجزئى قبل الكلى، وبالعملى قبل النظرى.

ومن الحكم المأثورة: الربانى: الذى يربى الناس بصغار العلم قبل كباره. والمراد بصغار العلم: ما وضح من مسائله، وبكباره: ما دق منها. وقيل: يعلمهم جزئياته قبل كلياته، أو فروعه قبل أصوله، أو مقدماته قبل مقاصده [٢].

والمهم ألا يبدأ المعلم تلاميذه بدقائق العلم، وعويص مسائله، فيغرقهم فى بحر عميق لا يستطيعون النجاة منه. بل يبدؤهم بالأسهل والأيسر، لأن الشىء إذا كان فى ابتدائه سهلاً حبب إلى من يدخل فيه، وتلقاه بانبساط، وكانت عاقبته غالباً الازدياد منه بخلاف ضده [٣].

---

(١) «جامع بيان العلم» جـ ١ / ١٢٥.

(٢) «الفتح» جـ ١ / ١٧١.

(٣) نفسه / ١٧٣.

وقد كان كثير من كبار العلماء يؤلفون كتبهم متدرجة وفق مراتب الترقى فى الطلب. فالغزالى - مثلاً - يؤلف فى فقه الشافعية: الوجيز ثم الوسيط، ثم المبسوط. وابن قدامة يؤلف فى فقه الحنابلة على الترتيب التصاعدى: العمدة ثم المقنع، ثم الكافى، ثم المغنى.

وهكذا كانوا يكتبون لكل مرحلة فى الطلب ما يليق بها، فالمبتدئ غير المتوسط غير المنتهى.

وكذلك ينبغى أن تراعى مراحل العمر. فيعطى للصبى غير ما يعطى للمراهق، غير ما يعطى للناضج.

وهذا ما يحرص عليه رجال التربية اليوم فى وضع المناهج، وفى تأليف الكتب.

٨ - رعاية الفروق الفردية:

ومن آداب التعليم ومبادئه وقيمه الأصيلة التى جاءت بها السنة: مراعاة الفروق بين الناس بعضهم وبعض: الفروق الفردية أو البيئية أو النوعية.

فليس كل ما يصلح لشخص يصلح لآخر. وليس كل ما يصلح لبيئة يصلح لأخرى، وليس كل ما يصلح لفئة أو جنس يصلح لغيرها. وليس كل ما يصلح لزمن يصلح لسائر الأزمنة والعصور.

والمعلم الموفق هو الذى يعطى كل إنسان - فرداً أو جماعة - من العلم ما يلائمه ويصلح له، وبالقدر الذى يصلح به، وفى الوقت الذى ينتفع به.

وكان معلم البشرية الأول خير المراعين لهذا الجانب، نظراً وتطبيقاً.

ومن الأدلة على اعتبار هذه الفروق ومراعاتها بالفعل عدة أمور:

١ - اختلاف وصاياه - ﷺ - باختلاف الأشخاص الذين طلبوا منه الوصية.

٢ - اختلاف أجوبته وفتاواه عن السؤال الواحد باختلاف أحوال السائلين.

٣ - اختلاف مواقفه وسلوكه باختلاف الأشخاص الذين يتعامل معهم.

٤ – اختلاف أوامره وتكليفاته باختلاف من يكلفهم من الأشخاص واختلاف قدراتهم.

٥ – قبوله من بعض الأفراد موقفاً أو سلوكاً لا يقبله من غيره لاختلاف الظروف.

وفى البند الأول: نجد أناساً عديدين سألوه – ﷺ – أن يوصيهم إما مطلقاً، وإما مقيداً بما يقربهم إلى الجنة ويبعدهم عن النار، أو نحو ذلك من العبارات الجامعة ... فأوصاهم بوصايا مختلفة:

فبعضهم قال له: «تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصل الرحم».

وبعضهم قال له: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن».

وبعضهم قال له: «قل: آمنت بالله ثم استقم».

وبعضهم قال له: «لا تغضب» ولم يزد على ذلك.

وهكذا كان يراعى – ﷺ – حال المستوصى، ويعطى كل واحد ما يراه أحوج إليه. فشأنه مع السائلين كالطبيب مع المرضى، يعطى كل واحد من الدواء ما يناسبه.

وفى البند الثانى: نجده – ﷺ – يسأل: «أى العمل أفضل؟»، أو: «أى الإسلام أفضل؟ فنراه يجيب هذا بغير ما يجيب به ذاك.

فعن عبد الله بن مسعود: سألت رسول الله ﷺ، أى الأعمال أحب إلى الله فقال الصلاة على وقتها. قلت: ثم أى؟ قال: بر الوالدين. قلت: ثم أى؟ قال: الجهاد فى سبيل الله [١].

وعن رجل من خثعم قال: أتيت النبى ﷺ وهو فى نفر من أصحابه فقلت: أنت الذى تزعم أنك رسول الله؟ قال: «نعم». قال: قلت: يا رسول الله: أى الأعمال أحب إلى الله؟ قال: «الإيمان بالله». قلت: يارسول الله ثم مه؟ (أى: ثم

(١) متفق عليه من حديث ابن مسعود اللؤلؤ والمرجان (٥٢).

ماذا؟) قال: « ثم صلة الرحم ». قال: قلت يا رسول الله، ثم مه؟ قال: « ثم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » ... الحديث.

ولا تفسير لهذا الاختلاف فى الجواب مع اتحاد السؤال، إلا مراعاة أحوال السائلين، وما بينهم من فروق يجب اعتبارها.

ولما سأله النساء عن الجهاد قال: « لكن أفضل الجهاد حج مبرور » (١).

وفى صحيح البخارى عن أبى موسى قال: قالوا يا رسول الله أى الإسلام أفضل؟ قال: « من سلم المسلمون من لسانه ويده » (٢).

وفيه عن عبد الله بن عمر: أن رجلاً سأل النبى ﷺ: أى الإسلام خير؟ قال: « تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف » (٣).

والسؤال الثانى: كالأول وإن اختلفت الألفاظ، لكن الجواب ليس واحداً. كما قلنا من اختلاف أحوال السائلين، أو السامعين، فالجواب فى السؤال الأول وجه العناية إلى تحذير من خشى منه الإيذاء بيد أو لسان، فأرشد إلى كفهما عن الأذى وفى الثانى كان الاهتمام بترغيب من رجا فيه النفع العام بالفعل والقول، فأرشده إليهما وخص الخصلتين المذكورتين بالتنويه لمسيس الحاجة إليهما فى ذلك الوقت. لما كانوا فيه من الجهد والفاقة ولمصلحة تأليف القلوب (٤).

وأوضح من ذلك اختلاف الجواب عن السؤال الواحد فى قضية واحدة فى مجلس واحد - روى الإمام أحمد فى مسنده من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص قال: كنا عند النبى ﷺ - فجاء شاب - فقال: يا رسول الله أقبل وأنا صائم؟ فقال: لا. فجاء شيخ فقال: يا رسول الله، أقبل وأنا صائم؟ قال: نعم، فنظر بعضنا إلى بعض! فقال رسول الله ﷺ: قد علمت نظر بعضكم إلى بعض. إن الشيخ يملك نفسه (٥).

---

(١) رواه البخارى فى الجهاد والسير (٢٧٨٤).

(٢) متفق عليه من حديث أبى موسى اللؤلؤ والمرجان (٢٥).

(٣) متفق عليه من حديث عبد الله بن عمر اللؤلؤ والمرجان (٢٤).

(٤) الفتح جـ ١ / ٦٢.

(٥) حديث (٧٠٥٤) جـ ١٢. قال الشيخ أحمد شاكر: « إسناده صحيح » مع أن فيه ابن لهيعة وقد وثقه الشيخ رحمه الله ويشهد له حديث أبى هريرة عند أبى داود فى نفس المعنى.

وهذا من الأدلة الشرعية لما قرره العلماء من تغير الفتوى بتغير الأحوال.

وفي البند الثالث: نجده - ﷺ - يعامل الأعراب القادمين من البادية بما لا يعامل به أصحابه الذين ربوا في حجر النبوة، ويغتفر لأولئك ما لا يغتفر لهؤلاء، ويتألف قلوب «مسلمة الفتح»، وزعماء القبائل بما لا يصنع مثله مع المهاجرين والأنصار، ويعامل أصحابه أيضاً على منازلهم وطبائعهم فهو يغطي فخذيه أو ساقيه، ويسوى ثيابه عند دخول عثمان عليه، ولم يفعل ذلك مع أبي بكر وعمر، مراعياً طبع الحياء في عثمان قائلا: «ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة؟» وقد لاحظت عائشة ذلك: فقالت: يا رسول الله ما لي لم أرك فزعت لأبي بكر وعمر كما فزعت لعثمان؟ فقال: «إن عثمان رجل حيي، وإني خشيت إن أذنت له على تلك الحال ألا يبلغ إليّ في حاجته» (١). وإذا دخل عليه كريم قوم أكرمه، وإذا دخل عليه سفيه أو شرير داراه بطلاقة الوجه أو بكلمة طيبة - دون مداهنة أو مدح بالباطل - تألفاً له، واتقاء لشره.

ويحدث معاذاً ببعض المبشرات فيمن مات على التوحيد، ولا يأذن له بأن يبشر بها جمهور الناس مخافة أن يتكلوا (٢).

والبند الرابع: نجده ﷺ يكلف كل إنسان، بما يقدر عليه، وما يليق به، وما يلائم حاله.

ففي حدث كحدث الهجرة إلى المدينة والاختفاء إلى غار حراء، نراه - عليه الصلاة والسلام - يكلف عدداً من الأشخاص بعدد من المهمات المتنوعة، كل فيما يناسبه، فأبو بكر كلف رفقته بعد تكليفه إعداد الرواحل، وعلي كلف المبيت في مكانه - ﷺ - احتمالاً لأي خطر. وأسماء بنت أبي بكر كلفت ما يليق بها من حمل الطعام والأخبار إلى رفيقي الغار، وعبد الله بن أبي بكر، وعامر بن فهيرة كل منهما له دوره. وهكذا نجده ﷺ، يولي خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص على بعض السرايا الحربية، على حين كلف حسان بن ثابت بأن

---

(١) رواه مسلم في فضائل الصحابة عن سعيد بن العاص: أي عائشة وعثمان - حدثاه. حديث (٢٤٠٢/٢).

(٢) رواه البخاري في كتاب العلم (١٢٨).

يدافع عنه – أمام هجاء الشعراء من قريش – بسلاح الشعر الذى هو أشد عليهم من وقع الحسام فى غبش الظلام، ولم يجب أبا ذر إلى طلبه حين سأله أن يوليه، لما يعرف من صرامته وحدة طبعه.

وفى البند الخامس: نجده ﷺ يقبل من بعض الأعراب الاقتصار على أداء الفرائض، حتى قال له بعضهم: «والله لا أزيد على هذا ولا أنقص» فقال: «أفلح إن صدق». وفى حديث: «من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا». على حين لم يقل ذلك لغيره من أصحابه المهاجرين والأنصار.

وهذا هو موقف المربى الحق، والمعلم المرشد من طلابه وأصحابه أن يراعى ظروفهم، وقدراتهم العامة، والخاصة وأحوال كل فئة منهم، بل كل واحد منهم ليعالجه بما يناسبه، فلا يكلم الصغير بما يكلم به الكبير، ولا يخاطب الفتاة بما يخاطب به الفتى، ولا يعطى العوام ما يعطيه للخواص، ولا يكلف الذكى ما يكلفه الغبى ولا يأمر البدوى بما يأمر به الحضرى، بل يعطى لكل متعلم على قدره وقدرته.

ومن العجز بل الإثم أن يبث المعلم كل ما عنده لكل من يجده دون تمييز بين مَن يفهم ومَن لا يفهم، وبين من ينتفع بما يسمع ومن يتضرر به.

وفى الحديث: «كفى بالمرء إثماً أن يحدث بكل ما سمع» [١].

وهذا ما حذر منه علماء الصحابة رضوان الله عليهم.

يقول على: حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله [٢] ؟!

ويقول ابن مسعود: ما أنت بمحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة [٣].

---

(١) رواه مسلم فى مقدمة الصحيح (٥) من حديث أبى هريرة، وأبو داود فى الأدب (٤٩٩٢).

(٢) رواه البخارى فى الصحيح – كتاب العلم (١٢٧) – باب من خص بالعلم قوماً دون قوم كراهة ألا يفهموا.

(٣) رواه مسلم فى المقدمة (٥).

وليس هذا من كتمان العلم، بل من حسن إنفاقه فى محله، وإعطائه لمن هو أهله، ولكل مقام مقال، ولكل علم رجال. ومن الحكم المأثورة: لا تعطوا الحكمة لغير أهلها فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم.

وقد ذكر الغزالى فى «إحيائه»: أن من وظائف المعلم: أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه فلا يلقى إليه ما لا يبلغه عقله فينفره، أو يخبط عليه عقله، اقتداء بسيد البشر ﷺ، ولا يبث إليه الحقيقة إلا إذا علم أنه يستقل بفهمها. وقد قال على رضى الله عنه، وأشار إلى صدره: إن هنا لعلوما جمة لو وجدت لها حملة! فلا ينبغى أن يفشى العالم كل ما يعلم إلى كل أحد. وهذا إذا كان يفهمه المتعلم، ولم يكن أهلاً للانتفاع به، فكيف فيما لا يفهمه؟.. ولذلك قيل: كلْ لكل عبد بمعيار عقله، وزن له بميزان فهمه حتى تسلم منه، وينتفع بك، وإلا وقع الإنكار لتفاوت المعيار.

وقد قال تعالى: ﴿ولا تؤتوا السُّفهاءَ أموالَكُم﴾ تنبيهاً على أن حفظ العلم ممن يفسده ويضره أولى. وليس الظلم فى إعطاء غير المستحق بأقل من الظلم فى منع المستحق [1].

ويقول الغزالى أيضاً: إن المتعلم القاصر ينبغى أن يُلقى إليه الجلى اللائق به، ولا يذكر له: إن وراء هذا تدقيقاً، وهو يدخره عنه، فإن ذلك يفتر رغبته فى الجلى ويشوش عليه قلبه ويوهم إليه البخل به عنه، إذ يظن كل أحد أنه أهل لكل علم دقيق!.. بل لا ينبغى أن يخاض مع العوام فى حقائق العلوم الدقيقة بل يقتصر معهم على تعليم العبادات، وتعليم الأمانة فى الطاعات التى هم بصددها، ويملأ قلوبهم من الرغبة والرهبة فى الجنة النار، لما نطق به القرآن، ولا يحرك عليهم شبهة فإنه ربما تعلق الشبهة بقلبه، ويعسر عليه حلها، فيشقى ويهلك..» [2].

والمقصود: أن المعلم طبيب يداوى القلوب والعقول، بما يناسبها، وليس كل دواء يصلح لكل داء.

---

(١) «الإحياء» جـ ١/ ٥٧، ٥٨.

(٢) «الإحياء» جـ ١/ ٥٨.

٩ - الاعتدال وعدم الإملال :

ومن المبادئ المرعية في التعليم والمقتبسة من هدى النبوة : الاقتصاد في التعليم، والاعتدال في قدر ما يلقى من الموعظة، والمعلومات، في زمانه، وفي نوعه حتى لا يؤدى الإكثار إلى الإملال .

روى البخارى بسنده عن أبى وائل قال : كان عبد الله (يعنى ابن مسعود) : يذكر الناس فى كل خميس، فقال له رجل : ياأبا عبد الرحمن، لوددت أنك ذكرتنا كل يوم؟ قال : أما إنه يمنعنى من ذلك أنى أكره أن أملّكم . وإنى أتخولكم (أى : أتعهدكم) بالموعظة كما كان النبى ﷺ يتخولنا بها مخافة السآمة علينا[١] .

وروى البخارى أيضاً عن عكرمة : أن ابن عباس قال : حدث الناس مرة فى الجمعة، فإن أبيت فمرتين، فإن أكثرت فثلاثاً . ولا تمل الناس هذا القرآن، ولا ألفينك تأتى القوم وهم فى حديث من أحاديثهم فتملهم . ولكن أنصت، فإذا أمروك فحدثهم وهم يشتهونه [٢] .

وكان ابن مسعود يقول : إن للقلوب لنشاطاً وإقبالاً، وإن لها تولية وإدباراً، فحدثوا الناس ما أقبلوا عليكم [٣] .

وقال الحسن البصرى : كان يقال : حدّث القوم ما أقبلوا عليك بوجوههم، فإذا التفتوا فاعلم أن لهم حاجات [٤] .

ومعنى هذا : أن على المعلم - كما على الداعية والمحدّث - أن يراعى الطاقة النفسية للناس، فإن من يستمع أو يتعلم وهو كاره لا يستفيد مما يتلقاه - فهو يسمع بأذنه ولا يعى بقلبه . وكما أن للإنسان طاقة بدنية محدودة يجب أن تراعى، فلا يحمل من الأثقال المادية ما لا يطيق . فكذلك طاقته النفسية .

وعلى هذا الأساس يجب أن توضع مناهج التعليم وتؤلف كتبه، وتحدد مقرراته بحيث يقبل المتعلمون على العلم وهم نشيطون راغبون .

---

(١) متفق عليه من حديث ابن مسعود اللؤلؤ والمرجان (١٧٩٦) .

(٢) « جمع الفوائد » جـ ١ حديث ٢٣٥ .

(٣) و (٤) « سنن الدارمى » جـ ١ / ٩٨ باب : من كره أن يمل الناس .

ومن حسن الطريقة في التعليم أن يدخل المعلم على درسه بعض المروحات عن النفس من الملح، أو الطرائف، أو الأشعار حتى لا تسأم النفوس وتمل القلوب. وكان النبي ﷺ يمزح ولا يقول إلا حقاً.

وقد رويت عنه ألوان من الدعابة الحلوة التي تدخل على القلوب الأنس بلا إسفاف ولا إسراف (١).

وقال علي: اجمعوا هذه القلوب وابتغوا لها طرائف الحكمة فإنها تمل، كما تمل الأبدان.

وعنه أيضاً: روحوا القلوب ساعة بعد ساعة فإن القلب إذا أكره عمي.

وقال أبو خالد الوالي: كنا نجالس - أصحاب النبي ﷺ، فيتناشدون الأشعار ويتذكرون أيامهم في الجاهلية.

وكان القاسم بن محمد - أحد فقهاء المدينة السبعة في عصر التابعين - إذا أكثروا عليه من المسائل قال: إن لحديث العرب، وحديث الناس نصيباً من الحديث فلا تكثروا علينا من هذا.

وكان ابن شهاب الزهري يحدث ثم يقول: هاتوا من أشعاركم: هاتوا من أحاديثكم، فإن الأذن مجاجة: والنفس حمضة.

وفي هذا اللون من ترويح الأنفس فائدتان:

الأولى: مطاردة السآمة، وإزالة آثار ما يصيب البدن من كلل، والنفس من ملل، نتيجة مواصلة الدأب والتكرار اليومي الرتيب. وهو ما أشار إليه الإمام علي فيما ذكرناه من قوله رضي الله عنه. وفيه يقول الشاعر:

والنفس تسأم إن تطاول جدها ... فاكشف سآمة جدها بمزاح

والثانية: تنشيط النفس لمواصلة السعي إلى الجد، ومعاناة البحث عن الحقيقة مهما تكن مشقة الطريق إليها، وفي هذا قال أبو الدرداء: إني لأستجم نفسي بالشيء من اللهو ليكون أقوى لها على الحق.

---

(١) روت كتب السنة من ذلك أكثر من واقعة.

ولكن ينبغي هنا مراعاة أمرين:

الأول: الا يكون فى هذه الملح والطرف تجاوز أو إسفاف، مما لا يليق بمجلس العلم وأهله، فمجلس العلم ليس مسرحاً أو ملهى.

الثانى: أن تكون بالقدر المناسب بحيث يكون الجد هو الأصل والقاعدة وهذه هى الاستثناء. فإن كل شىء إذا زاد عن حده انقلب إلى ضده. حتى العبادة قد كره الغلو فيها، فكيف بالمباح وكيف باللهو منه؟

وفى هذا جاء عن على رضى الله عنه قوله: أعط الكلام من المزح بمقدار ما تعطى الطعام من الملح.

١٠ - استغلال المواقف العملية للتربية والتوجيه:

ومن المبادئ التربوية التى ورثتها لنا سنة نبينا ﷺ: استغلال المواقف الواقعية، والتصرفات العملية التى تقتضى موقفاً تعليمياً معيناً، وإلقاء توجيه تربوى خاص، ليأخذ المتعلمون منه درساً إيجابياً لا ينسى.

وذلك لارتباطه بالواقع المشاهد، وصلته بمناسبة لابسها الناس وعايشوها، فهنا ترسخ فى الذهن وتثبت فى القلب، ولا تحتاج إلى تطويل أو تكرار.

وهكذا كان الرسول العظيم، لا يدع فرصة من هذه الفرص التى يتيحها القدر للناس فى حياتهم - تمر دون أن يجعل منها درساً بليغاً، وموعظة مؤثرة كثيراً ما تدمع منها العيون وتوجل لها القلوب.

ومن منا يجهل موقفه يوم أهم قريشاً أمر المرأة المخزومية التى سرقت، وعز عليهم أن تنفذ فيها عقوبة القطع التى أمر الله بها فى كتابه للسارقة وللسارق (جزاء بما كسبا، نكالاً من الله)؟

ولجأوا إلى أسامة بن زيد حب رسول الله، وابن حبه يشفعونه فى هذا الأمر الخطير: أن يعفى المرأة من حد القطع، ويقبل منها أى غرامة أو عقوبة أخرى. ناسين أن العاطفة شىء، وإقامة حد الله شىء آخر. فكان لا بد من درس مبدئى يثبت معنى المساواة فى العقوبات، كما هى ثابتة فى كل التكاليف، ويزيل أوهام الفوارق الطبقية بين الناس: أشراف وعامة ويعلن فى قوة أن شرع الله يسود الجميع ويحكم الجميع، وكلمته هى العليا. وكل كلمة عداه هى السفلى.

هنا جاء الدرس التربوى فى حينه وفى موضعه، فسمعته الآذان، وفقهته العقول، ووعته القلوب: «أتشفع فى حد من حدود الله يا أسامة؟! إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»!

ومن نسى فلن ينسى موقفه ﷺ - يوم مات ابنه إبراهيم، واتفق أن كسفت الشمس فى نفس اليوم، وكانت مناسبة ليقول قائلون: أنها كسفت لموت ابن رسول الله، وكان مثل هذا الاعتقاد رائجاً فى الجاهلية: انكساف الشمس أو القمر لموت عظيم من العظماء. ولو كان ﷺ من أولئك الذين يبنون لأنفسهم، ولأسرهم عظمة زائفة عن طريق الدجل، والمبالغات لسكت على هذا القول، الذى يوافق ما كان معروفاً عند الناس، ولكنه انتهز الفرصة ليصحح المفاهيم، ويطارد الخرافة، ويقرر الحقيقة العلمية النافعة، وقال فى وضوح مؤمن، وفى إيمان واضح: «أيها الناس إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا تنكسفان لموت أحد ولا لحياته».

وقدم يوماً إلى رسول الله ﷺ جماعة من عرب مضر، فقراء بدت عليهم الفاقة والحاجة، وتألم الرسول لما رآهم على هذه الحالة، فدخل ثم خرج، فأمر بلالاً فأذن وأقام فصلى ثم خطب يحث الناس على الصدقة على هؤلاء ولو بشق تمرة.

وهنا سبق بالفضل رجل من الأنصار، بعد أن أمسك الناس - وجاء بصرة كادت كفه تعجز عنها، بل قد عجزت.. وكانت بداية طيبة، وأسوة حسنة قال جرير راوى الحديث: ثم تتابع الناس حتى رأيت كومين من طعام وثياب، حتى رأيت وجه رسول الله ﷺ، يتهلل كأنه مذهبه.. (صحيفة منقشة بالذهب)..

وعندئذ كان المقام مناسباً للتنويه بمن يبدأ فى عمل خير يقتدى الناس به فيه.. فقال رسول الله - ﷺ -: «من سن فى الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شىء، ومن سنّ فى الإسلام سنة سيئة، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من

أوزارهم شيء»[1]. وبهذا يرتبط العلم بالحياة، ويتصل الدرس بالواقع، ولا يعيش المعلم مع الكتب وحدها، بعيداً عما تمر به الحياة من أحداث.

١١ - استخدام الوسائل المعينة:

ومن المبادئ التربوية الأصيلة في سنة الرسول المعلم: أن يستعين بكل وسيلة بصرية أو سمعية متاحة، مما يساعد على إيضاح الحقيقة المقصودة.

ومن المعروف أن البيئة لم تكن تساعد على توفير هذه الوسائل، والرسول ﷺ نفسه أمي لا يقرأ ولا يكتب، ولكن الذى يهمنا هنا هو تقرير المبدأ والفكرة أولاً، وتطبيقها في الحدود المتاحة ثانياً.

وهنا نجد بعض الأمثلة البينة للدلالة على ما نقول:

يروى ابن مسعود رضى الله عنه فيقول:

خط لنا رسول الله ﷺ، خطاً بيده، ثم قال: «هذا سبيل الله مستقيماً» وخط عن يمينه وشماله ثم قال: «هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه ثم قرأ ﴿ **وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ** ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

فترى في هذا الحديث أن النبى - ﷺ - يفسر لأصحابه الوصية الأخيرة من الوصايا العشر في سورة الأنعام، ولكنه لم يقتصر على تفسيرها بالكلام المجرد بل استعمل لذلك ما هو ميسور له وهو الرمل، يخط عليه بيده بدل اللوح، وهو هنا يرسم صراط الله المذكور في الآية الكريمة في صورة خط مستقيم ولهذا قال: هذا سبيل الله مستقيماً، ويرسم السبل الأخرى التي حذرت الآية من اتباعها في صورة خطوط متعرجة عن يمين الخط الأوسط المستقيم وشماله، ثم يشير إليها قائلا: «هذه السبل ليس فيها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه» ثم يختم هذا التوضيح العملي بقراءة الآية الكريمة، فتقع أعظم موقع في نفس السامع المشاهد وعقله. فهنا اشتراك البصر مع السمع في استيعاب معنى الآية، وفهم مراد الله تعالى منها.

---

(١) رواه مسلم في الزكاة (١٠١٧) وابن ماجه في المقدمة (٢٠٣) والترمذى في العلم (٢٦٧٧) باختصار القصة.

وعن جابر رضى الله عنه: أن رسول الله ﷺ، مر بالسوق، والناس كنفتيه، (أى: عن جانبيه) فمر بجدى أسك، (أى: صغير الأذن) ميت، فتناوله بأذنه ثم قال: أيكم يحب أن هذا له بدرهم؟ فقالوا: ما نحب أنه لنا بشىء. وما نصنع به؟ قال: أتحبون أنه لكم؟ قالوا: والله لو كان حياً لكان عيباً فيه، لأنه أسك فكيف وهو ميت؟ فقال: فوالله للدنيا أهونُ على الله عز وجل من هذا عليكم (١).

فانظر يا أخى القارئ كيف بين النبى ﷺ، المفهوم الذى أراد إيصاله إلى أصحابه مستخدماً هذه الوسيلة العجيبة من الوسائل المعينة. إنها وسيلة لم يشترها، ولم يصنعها، ولم يتكلف أو يفتعل فى الاستعانة بها. إنها وسيلة يراها الناس، ويمرون بها كثيراً، ولكن النبى ﷺ، أراد أن يتخذ منها أداة لتوضيح قيمة الدنيا التى يتهافت الناس بل يقتتلون عليها. إن هذا الدرس فى تفاهة الدنيا عند الله - بجوار الآخرة - لا يمكن أن يمحى من الذهن أو ينسى من الذاكرة لارتباطه بالجدى الأسك الميت، وبمسلك النبى ﷺ، وهو يأخذ بأذنه ويسألهم: أيكم يحب أن هذا له بدرهم؟ ويجيبون، ويسألهم حتى يقرر لهم الحقيقة المرادة في النهاية: «والله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم».

وغير هذا كثير مما استخدمه النبى ﷺ، وسيلة إيضاح، أو وسيلة معينة على غرس القيمة الدينية، والخلقية، أو العقلية التى يحرص على تعليمها.

ومن الأساليب المعينة على الفهم والاستيعاب، المثبتة للمعنى المطلوب: أسلوب الإشارة الحسية التى يرتبط فيها المعقول بشىء ملموس.

وكان النبى ﷺ، كثيراً ما يستخدم هذا الأسلوب لتنبيه الغافل، وتثبيت المنتبه ومن أمثلة ذلك:

قوله فى الحديث الذى رواه مسلم وغيره: «التقوى ههنا» - وأشار إلى صدره ثلاث مرات. فهذه الإشارة إلى الصدر فى بيان حقيقة التقوى، ومحلها

---

(١) رواه مسلم فى الزهد والرقاق (٢٩٥٧) وأبو داود فى الطهارة (١٨٦).

أبلغ كثيراً من قوله: التقوى محلها القلب، فهذه كلمة قد تمر على الكثيرين دون أن يلقوا لها سمعاً، أو يلقون سمعاً ولا يحضرون مع السمع قلباً.

ومثله حديث جابر عند مسلم: «بعثت أنا والساعة كهاتين، وأشار بأصبعيه: السبابة والوسطى وفرق بينهما».

فهذه الإشارة بأصبعيه في بيان قرب مبعثه من الساعة لها من الوقع في النفس غير ما يقوله: بعثت قرب الساعة.

وكذلك حديث البخارى وغيره: «أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما» من حديث سهل بن سعد.

فهذه الإشارة توضح المراد من الحديث الشريف بأكثر مما تعطيه عبارة معتادة مثل: كافل اليتيم قريب من الرسول فى الجنة.

ومن ذلك حديثه لمعاذ بن جبل حين أوصاه بجملة وصايا ثم قال له: «ألا أدلك على ملاك ذلك كله»؟ قال: بلى. قال: «كف عليك هذا» وأشار إلى لسانه [1].

إن هذه الإشارة الحسية إلى اللسان تجعل معاذاً، وكل من حضر هذا القول لا ينسى أهمية اللسان، وآفاته التى تكب الناس فى النار على مناخرهم.

وكل هذه الأمثلة بدت الإشارة فيها إلى جزء من كيان المعلم نفسه: صدراً، أو يداً، أو لساناً.

ومن ذلك ما رواه الشيخان عن سهل بن سعد، قال: مر رجل على النبى ﷺ، فقال لرجل عنده جالس: ما رأيك فى هذا؟ قال: رجل من أشراف الناس، هذا والله حرى إن خطب أن ينكح، وإن شفع أن يشفع، فسكت رسول الله ﷺ، ثم مر رجل، فقال رسول الله ﷺ: ما رأيك فى هذا، فقال: يا رسول الله هذا رجل من فقراء المسلمين هذا حرى إن خطب أن لا ينكح، وإن شفع أن لا يشفع، وإن قال أن لا يسمع لقوله، فقال رسول الله ﷺ: «هذا خير من ملء الأرض مثل هذا».

---

(١) الحديث رواه الترمذى فى الإيمان (٢٦١٩) وقال:: حديث حسن صحيح، وابن ماجه فى الفتن (٣٩٧٣)، وفى سنده كلام كثير، وهو من أحاديث الأربعين النووية.

١٢ - تخير أحسن الأساليب :

ومن أدب التعليم ومبادئه فى السنة النبوية : تخير أفضل الطرائق وأرفق الأساليب، وأقربها إلى عقل المتعلم وقلبه، وأحسنها وقعاً فى سمعه وبصره.

وذلك لتساعد المعلم على حسن توضيح ما يريد إعطاءه من العلم لتلاميذه، وحسن تثبيته فى أذهانهم وأنفسهم.

ومن دَرَس السنة، وعاش فى كتب الحديث، رأى من الأساليب التربوية. واستخدام الوسائل المعينة ما يحسب جمهور المشتغلين بالتربية أنه شيء غريب عن تراث الإسلام.

فقد يستخدم عليه الصلاة والسلام الطريقة الإلقائية فى خطبة العامة فى الجمع والعيدين ونحوها. فهذا ما يقتضيه المقام.

ولكنه مع هذا لا يدعها تمر خطبة القائية بحتة، بل يطعمها بعناصر تعليمية خاصة تشد الأبصار، وتجذب الانتباه وتدعو إلى التركيز.

وحسبنا أن نذكر هنا أشهر خطبه - ﷺ - وهى خطبة حجةالوداع التى ألقاها فى أكبر جمع حاشد عرفته جزيرة العرب فى تلك العصور فى يوم النحر بمنى.

فحين أراد أن يبين لهم حرمة الدماء، والأعراض، والأموال لم يسق هذا المبدأ الخطير مساقاً تقريريا إلقائياً كما يفعل كثير من الخطباء فى خطبهم والزعماء فى بياناتهم.

وإنما بدأهم بالسؤال الذى يحرك الشوق ويثير الانتباه.

يروى أبو بكرة أنه ﷺ، قعد على بعيره وأمسك بخطام البعير ثم قال: «أى يوم هذا؟». فسكتنا، حتى ظننا أنه سيسميه سوى آسمه. فقال: «أليس يوم النحر؟» قلنا: بلى. قال: «فأى شهر هذا؟» فسكتنا حتى ظننا أنه سيسميه بغير أسمه، فقال: «أليس بذى الحجة؟» قلنا: بلى. ثم سألهم عن البلد أيضاً سكتوا ثم بين لهم أنه البلد الحرام ثم قال: «فإن دماءكم، وأموالكم وأعراضكم حرام كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا» [١].

---

(١) الحديث مشهور رواه الشيخان وغيرهما ورواه البخارى فى أكثر من موضع من صحيحه، انظر: الفتح جـ ١ /١٦٨. متفق عليه من حديث أبى بكرة اللؤلؤ والمرجان (١٠٩٤).

قال القرطبي في شرح مسلم: سؤاله – ﷺ – عن الثلاثة، وسكوته بعد كل سؤال منها كان لاستحضار فهو مهم، وليقبلوا عليه بكليتهم، وليستشعروا عظمة ما يخبرهم عنه، ولذلك قال بعد هذا: «فإن دماءكم» الخ... مبالغة في بيان تحريم هذه الأشياء [1] . ومناط التشبيه في قوله: «كحرمة يومكم هذا» وما بعده: ظهوره عند السامعين، لأن اليوم والشهر والبلد كان ثابتاً في نفوسهم، مقرراً عندهم بخلاف الدماء، والأموال، والأعراض، وكانوا في الجاهلية يستبيحونها، فبين لهم أن تحريم دم المسلم، وماله، وعرضه، أعظم من تحريم البلد والشهر واليوم [2] .

والمقصود هنا أنه ﷺ، لم يسرد خطبته سرداً، ولم يلق بيانه إلقاء رتيبا يثير الملل، ويبعث على النوم، بل حرك بأسئلته العقول، وأشرك المخاطبين معه فاشرأبت إليه الأعناق، ورنت له الأبصار، وأنصتت له الآذان، وفي ختام خطبته يشهدهم على أدائه الأمانة وتبليغه الرسالة، بنفس هذا الأسلوب: «ألا هل بلغت؟».. فتجاوبت معه الأصوات من كل جانب: أن نعم، قال: «اللهم فاشهد فليبلغ الشاهد منكم الغائب».

ومن الأساليب الناجحة في التأثير والإقناع: التشبيه وضرب الأمثال بحيث يظهر المعقول في صورة المحسوس والغامض البعيد في صورة الواضح القريب.

والدارس للسنة يجدها حافلة بالعديد من التشبيهات، والأمثال التي تمثل ذروة البلاغة البشرية وقمة الروعة الأدبية. والرسول ﷺ في هذا يقتدي بالقرآن الكريم في تشبيهاته وأمثاله.

وفي «الجامع الصغير» للسيوطي فقط نجد (٤٢) اثنين وأربعين مثلا، وكل واحد منها وكأنما هو معلم يشرح ويوضح ويقرب.

يكفي أن أذكر نماذج قليلة منها:

«مثل الذي يعلم الناس الخير وينسى نفسه، مثل الفتيلة: تضيء للناس وتحرق نفسها [3] !

---

(١)، (٢) الفتح ١/١٦٨ .

(٣) رواه الطبراني في الكبير عن أبي برزة وهو ضعيف، ورواه الطبراني عن جندب بإسناد حسن، كما قال الهيثمي في المجمع (١/١٨٤/١٨٥) .

« مثل المؤمن مثل النحلة: إن أكلت طيباً وإن وضعت طيبا، وإن وقعت على عود لم تكسره » [1] .

« مثل المنافق كمثل الشاة العائرة (المترددة المتحيرة) بين الغنمين: تعير إلى هذه مرة وإلى هذه مرة لا تدرى أيهما تتبع » [2] .

« إنما مثَلى ومثَلُ الناس كمثل رجل استوقَد ناراً، فلما أضاءت ما حولَه جعل الفرَاشُ وهذه الدوابُّ التي تقع في النار يقعنَ فيها، فجعلَ الرجلُ يزعُهنّ ويغلبنَه فيقتَحمنَ فيها فأنا آخذ بحُجزكم عن النار وأنتم تقتحمون فيها » [3] .

ولم يذكر السيوطي في الجامع أمثالاً أخرى مشهورة منها ما في الصحيحين « مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة » الحديث. ومنها: « مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتاً فأتمه وأحسنه » .. الحديث. ولهذا سماه (الجامع الصغير) لأنه لم يقصد منه الاستيعاب.

ومن الأساليب المؤثرة في الأنفس والعقول كذلك: أسلوب القصة، ولذا عنى بها القرآن، وقص علينا من أنباء الرسل، وأخبار المؤمنين وصراعهم مع أهل الكفر والطغيان، ما يثبت الفؤاد، ويدفع ريب المرتابين، ويهدى الحائرين، ويزيد الذين اهتدوا هدى.

وكذلك استخدم الرسول القصة في تبيين قيم ومعاني معينة وتثبيتها مثل: بيان أثر الإخلاص في نجاة الإنسان من المهالك كما في قصة الثلاثة أصحاب الغار، ومثل بيان أثر الشكر في بقاء النعمة وكفر النعمة في زوالها كقصة الأعمى والأبرص والأقرع، ومثل بيان عاقبة الرحمة ولو كانت لحيوان أعجم مثل الكلب كما في قصة الذى سقى كلباً يلهث من شدة العطش فشكر الله له، فغفر له. إلى غير ذلك من القصص المنثورة في كتب الأحاديث وما أجدرها أن تُجمع [4] .

---

(١) رواه أحمد (٢ / ١٩٩) عن عبد الله بن عمرو. وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح غير أبى سبرة وقد وثق في المجمع (١٠ / ٢٩٥) .

(٢) رواه أحمد (٢ / ٣٢) ومسلم في صفات المنافقين (٢٧٨٤) والنسائي (٥٠٣٧) .

(٣) متفق عليه من حديث أبى هريرة اللؤلؤ والمرجان (١٤٧٢) .

(٤) حاول ذلك مشكورا منذ عدة سنوات الشيخ الصالح محمد خليل الخطيب وأعتقد أن كتابه نشر .

١٣ - إثارة الانتباه بالسؤال والحوار:

وما أكثر ما استخدم الرسول المعلم، الطريقة الاستنباطية لاستخراج الحقيقة العلمية المنشودة من أفواه المتعلمين أو على الأقل تفتيح أذهانهم لتلقيها بعد تشوق النفوس لها، وتطلع العقول إلى معرفتها. وذلك عن طريق طرح السؤال عليهم ليجيبوا عنه إن استطاعوا أو يسمعوا الإجابة الصحيحة منه ﷺ.

ذكر الإمام البخارى فى صحيحه باباً بعنوان «باب طرح الإمام المسألة على أصحابه ليختبر ما عندهم من العلم» وأخرج فيه حديث عبد الله بن عمر: «أن النبى ﷺ قال: إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، (أى: لا فى الشتاء ولا الصيف)، وإنها مثل المسلم، حدثونى: ما هى؟ قال: فوقع الناس فى شجر البوادى. قال عبد الله: فوقع فى نفسى أنها النخلة. ثم قالوا: حدثنا ما هى يا رسول الله؟ قال: هى النخلة» [١].

فها هو عليه السلام لم يلق عليهم هذه الحقيقة إلقاء تقريرياً: أن المسلم مثل النخلة. بل أراد أن يستثير دفائن ما عندهم ويلفتهم إلى ملاحظة ما حولهم، ويشركهم معه فى البحث. وبهذا لا يصبح المتعلم مجرد جهاز تسجيل ينفعل ولا يفعل، ويتلقى ولا يفكر. بل هو كائن حى عاقل يبحث ويفكر ويحاور ويناقش ويخطىء ويصيب.

وذكر ابن كثير فى تفسيره حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله - ﷺ - : «أى الخلق أعجب إليكم إيماناً؟» قالوا: الملائكة. قال: «وما لهم لا يؤمنون وهم عند ربهم؟» قالوا: فالنبيون. قال: «وما لهم لا يؤمنون والوحى ينزل عليهم؟!» قالوا: نحن. قال: «وما لكم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم؟!». فقال رسول الله ﷺ: «ألا إن أعجب الخلق إلىَّ إيماناً لقوم يأتون من بعدكم، ويجدون صحفاً فيها كتاب يؤمنون بما فيها» [٢].

---

(١) متفق عليه من حديث ابن عمر اللؤلؤ والمرجان (١٧٩٢).

(٢) عزاه ابن كثير إلى الحسن بن عرفة، ونقل عن أبى حاتم الرازى أن المغيرة بن قيس أحد رواته منكر الحديث، ولكن ذكر له شاهداً عن عمر مرفوعاً عند أبى يعلى، وابن مردويه، والحاكم وصححه مع أن فيه راوياً ضعيفاً، وروى نحوه عن أنس بن مالك مرفوعاً. تفسير ابن كثير جـ ١/٤٢ ط الحلبى.

فلم يذكر لهم الرسول - ﷺ - ما يريد بيانه لهم إلا بعد هذا الحوار الممتع، وطرح السؤال، ومناقشة الأجوبة حتى إذا تشوقت النفوس إلى معرفة الحقيقة جاءت على لسانه ﷺ ناصعة جلية.

ومما كان يستخدمه ﷺ للتشويق وإثارة الانتباه: أن يسألهم عن معانى بعض الألفاظ المعروفة معانيها عندهم، فيجيبوه بما يعرفونه من معانيها المشتهرة بينهم. فإذا فعلوا بادر إلى تفسيرها لهم بإعطائها المدلول الجديد الذى يريده، وهو فى الغالب مدلول مجازى قد لا يلتفتون إليه، ولكنه عند النبى - ﷺ - أحق أن يفهم من اللفظ.

وذلك كقوله لأصحابه يوماً: «ما تعدون الصرعة فيكم؟» قالوا: الذى لا تصرعه الرجال. قال: «ليس ذلك، ولكن الذى يملك نفسه عند الغضب» (١).

ومثل ذلك قوله: «أتدرون من المفلس»؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال: «المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة.. ويأتى قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح فى النار» (٢).

ونحو هذا أن يلقى إليهم عبارة يستنكر ظاهرها ليسألوا عن المراد منها، فيأتى الجواب مصححاً المفهوم الخاطىء لها، فيتمكن المعنى من النفس فضل تمكن.

وفى هذا جاء الحديث الصحيح المشهور: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً». وكانت هذه كلمة متداولة فى الجاهلية العربية أشبه بالمثل السائر، دلالة على الانتصار للعصبية، ودفاع كل امرئ عن قومه، على حق كانوا أو على باطل. ولأجل هذا حين قال النبى - ﷺ - هذه الكلمة وقفوا منها موقف الدهشة

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه عن ابن مسعود فى البر والصلة (٢٦٠٨)، وأبو داود فى الأدب (٤٧٧٩).

(٢) رواه مسلم فى البر والصلة (٢٥٨١)، والترمذى فى صفة القيامة (٢٤٢٠)، وغيرهما عن أبى هريرة - ترغيب ٤١١٢.

والاستغراب، فالإسلام قد جاء بالعدل المطلق، ولو على أنفسكم، أو الوالدين والأقربين ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ﴾ [المائدة : ٨]، وبرئ من العصبية بكل ألوانها، فكيف يقر الرسول الذى جاء بالهدى ودين الحق، هذه الكلمة الجاهلية؟ ولا عجب أن بادر الصحابة رضى الله عنهم بالسؤال والاستفهام قائلين: يا رسول الله ﷺ ننصره مظلوماً، فكيف ننصره ظالماً؟!

فقال ﷺ : « تمنعه من الظلم، فذلك نصر له » [١] .

فهذا تعديل أساسى فى مفهوم النصرة للأخ والقريب، فإن إعانته على الظلم، وتأييده فى الباطل، معناه: جره فى الدنيا إلى الكوارث وفى الآخرة إلى النار، أما منعه من الظلم فهو إبعاد له عن الشيطان، وتقريب له من الرحمن. وزحزحة له عن النار، وإدناء له من الجنة. ولهذا كان هذا هو النصر الحقيقى له.

ولكن هذا المعنى الكبير لو ألقى إليهم تقريراً ما استثار اليقظة الفكرية التى واجه بها الصحابة الكلمة المشهورة، وجعلتهم يعجبون من ظاهرها، وينكرونه، ويسألونه عن المراد حتى يفهموا ويقتنعوا.

ويدخل فى هذا الباب بعض العبارات التى كان يلقيها الرسول المعلم بصورة تشد الانتباه شداً كمثل قوله يوماً عند أصحابه: « والله لا يؤمن! والله لا يؤمن! والله لا يؤمن! » هكذا بصيغة القسم، وبالتكرار الذى يفيد التأكيد أيضاً بضمير الغائب الذى لا يعود على مذكور أو أحد معروف. فالفعل المنفى حتماً لا يُعرف مَن فاعله. ولهذا قالت الصحابة حين سمعت هذه الجملة العجيبة المكررة: يا رسول الله لقد خاب وخسر! من هذا؟؟ فقال عليه صلوات الله وسلامه: « من لا يأمن جاره بوائقه » [٢] ألا ما أعظم الفرق بين تأثير هذه الجملة: « لا يؤمن من لا يأمن جاره بوائقه » حين تذكر جملة تقريرية خبرية كالمعتاد، وبين تأثيرها حين ذكرت بالصورة التى ذكرها النبى عليه الصلاة والسلام.

---

(١) رواه البخارى فى الإكراه (٦٩٥٢)، الترمذى فى الفتن (٢٢٥٦) .

(٢) نسبه المنذرى فى الترغيب إلى البخارى من حديث أبى شريح الكعبى، واستدرك عليه الحافظ فى الفتح أن الحديث فى البخارى بغير هذه الصيغة فليراجع، وقد رواه أحمد فى المسند (٢ / ٢٨٨) فى موضعين وليس فيه « لقد خاب وخسر » .

والمهم بعد ذلك كله: أن يكون المعلم مؤمناً بمهنته، محباً لرسالة العلم، راغباً فى الارتقاء بتلاميذه، شاعراً بأبوته لهم وبنوتهم له، حريصاً على أن يبلغ ما فى نفوسهم، وأن يبلغهم ما فى نفسه، متفنناً فى بيان ذلك بكل طريقة ميسورة، ولو بالكلمة بشرط أن تكون مبينة مشرقة.

وكذلك كان ﷺ، حريصاً علي أن يبين عما فى نفسه أبلغ الإبانة، وأن يُفهم عنه ما يريد، ولا يدع سامعه حتى يفهم عنه.

أعان على ذلك أسلوبه البليغ فى القول الذى بلغ قمة البيان البشرى، فى إصابه المعنى وحسن التعبير، وموافقة المقال للمقام. كما أعانه طريقته الحسنة فى الأداء التى تختلف من شخص لآخر ومن ظرف إلى ظرف.

وعن عائشة رضى الله عنها قالت: كان كلام رسول الله ﷺ، كلاماً فاصلاً يفهمه كل من يسمعه [١].

وعن أنس: أن النبى – ﷺ – كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثاً حتى تفهم عنه [٢].

وكان أصحابه الذين تلقوا عنه، واقتبسوا من مشكاته، يسيرون على هديه فى تعليم الخلق، وهدايتهم إلى الحق، والافتنان فى الأساليب التى تعينهم على الوفاء بما يقصدون، من إنارة الألباب وتزكية الأنفس.

وأكتفى بهذه الصورة الحية من صور التعليم الذكى أبدعها فكر الصحابى المفترى عليه أبى هريرة رضى الله عنه.

فعن أبى هريرة: أنه مر بسوق المدينة فوقف عليها فقال: يا أهل السوق ما أعجزكم؟ قالوا: وما ذاك يا أبا هريرة؟ قال: ذاك ميراث رسول الله ﷺ يقسم وأنتم ههنا؟ ألا تذهبون فتأخذون نصيبكم منه؟ قالوا: وأين هو يا أبا هريرة؟ قال: فى المسجد فخرجوا سراعاً، ووقف أبو هريرة لهم حتى

---

(١) رواه أبو داود فى الأدب (٤٨٣٩).

(٢) رواه البخارى فى العلم (٩٥)، والترمذى فى الاستئذان (٢٧٢٤).

رجعوا، فقال لهم: ما لكم؟ فقالوا: يا أبا هريرة، قد أتينا المسجد فدخلنا فيه، فلم نر فيه شيئاً يقسم! فقال لهم: وما رأيتم في المسجد أحداً؟ قالوا: بلى: رأينا قوماً يصلون، وقوماً يَقْرَؤون القرآن، وقوماً يتذاكرون الحلال والحرام... فقال لهم: ويحكم! فذاك ميراث محمد عليه الصلاة والسلام [1].

فأكرم بمدرسة خرجت مثل هؤلاء العلماء المعلمين!

* * *

---

(1) رواه الطبراني في الأوسط (١٤٥١) بإسناد حسن - ترغيب - حديث ١٣٨، وكذا قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ١٢٣) إلا أن العراقي في تخريج الإحياء. قال: في إسناده جهالة وانقطاع.

آثَــــار وَثِــمَــــار

هذه التعاليم النبوية الهادية، التي عرضنا جملة وافرة منها حول العلم والتعلم والتعليم – ولا نزعم أننا استوعبنا كُلَّ ما جاء فيها – لم تكن مجردَ حبر على ورق، بل كانت لها آثارُها ونتائجُها على أرض الواقع الإسلامي، ولا عجب، فهي ليست محض كلام يقال، بل هي دينٌ يعتقد، ومنهاج يُتبع، وأوامر تُطاع، وتعليمات تنفذ، ودعوة تلبى.

وكان لهذه الدعوة إلى العلم، والإشادة به، والتنويه بأهله، والتحريض على طلبه،ثمرات جمة، وآثار واضحة في الحياة الإسلامية، منها:

١ – أنا وجدنا الصحابة يحرصون أبلغ الحرص على التزود من العلم، والاغتراف من منهل النبوة، مجتهدين في ذلك بكل الوسائل الميسورة لديهم. يقول عمر بن الخطاب: كنت أنا وجار لي من الأنصار في بني أمية بن زيد (يعني: في منطقة سكناهم) وهي من عوالي المدينة. وكنا نتناوب النزول على رسول الله – ﷺ – ينزل يوماً، وأنزل يوماً، فإذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم من الوحي وغيره، وإذا نزل فعل مثل ذلك [١].

هكذا كانوا في حياة النبي – ﷺ – وبعد وفاته عليه الصلاة والسلام، كان يسأل بعضهم بعضاً، ويأخذ بعضهم عن بعض، ويرحل بعضهم إلى بعض، قاطعاً الفلوات، أو راكباً البحار، ولو من أجل حديث واحد، فيلقاه من مصدره المباشر، الذي سمعه من النبي – ﷺ – كما فعل جابر بن عبد الله الأنصاري وغيره.

وكذلك مضى التابعون من بعدهم على نهجهم. وروى الدارمي بسند صحيح عن بسر بن عبد الله قال: إن كنت لأركب إلى مصر من الأمصار في الحديث الواحد لأسمعه [٢].

---

(١) البخاري في العلم (٨٩).

(٢) سنن الدارمي ١ / ١١٤.

وعن أبى العالية قال: كنا نسمع الحديث عن الصحابة، فلا نرضى حتى نركب إليهم فنسمعه منهم [1].

وهكذا كانت سنة العلماء بعدهم: الاجتهاد فى حذف الوسائط أو تقليلها، والعلو بالإسناد، لأخذ العلم من مصدره الأول أو أقرب المصادر إليه، ما استطاعوا.

وقد ذكرنا فى حديثنا عن التعلم نماذج من رحلة علماء المسلمين فى طلب العلم ومعاناتهم فى تحقيقه ما أصبح مضرب الأمثال.

٢ - أصبحت مساجد المسلمين حيثما وجدت دوراً للعلم، ومدارس للتعليم، فما من مسجد أنشىء إلا أصبحت فيه حلقة أو أكثر، يجلس فيها طلبة العلم إلى شيوخهم فى علوم الدين، أو اللغة، أو الأدب، أو التاريخ، أو الإنسانية، أو غير ذلك مما يهم الناس فى دينهم أو دنياهم.

وهكذا كانت المساجد أو الجوامع الإسلامية «جامعات شعبية» مفتوحة الأبواب صباحاً ومساءً. وصيفاً وشتاء، لكل راغب فى الاستفادة من مجالسها وحلقاتها، كبيراً وصغيراً رجلاً أو امرأة، حراً أو عبداً، أبيض أو أسود، غنيا أو فقيراً، ليس لهذه الجامعة رسوم ولا نفقات ولا قيود، إلا الرغبة فى العلم، والإصرار على التعليم والاستمرار فيه.

وقد تطورت هذه الجامعات الشعبية فيما بعد إلى جامعات علمية، لها أساتذتها وطلابها ورؤساؤها وأوقاتها ونظامها، كما فى جامعة القرويين فى فاس بالمغرب، وجامعة أو جامع الزيتونة فى تونس، وجامعة أو جامع الأزهر فى مصر. وتعد هذه أقدم الجامعات فى العالم كله. وقد ظلت هذه الجامعة محتفظة بخصيصتها الإسلامية. إنها لكل الناس، ليست محتكرة لجنس، ولا للون، ولا لطبقة، فلم يحرم منها الموالى ولا الفقراء ولا المكفوفون، ونحوهم من الفئات الضعيفة بالمجتمع.

---

(١) انظر: فتح البخارى جـ ١ ص ٢٠٢ ط الحلبى

٣ – كان المسلمون هم أول من أنشأ المدارس النظامية للتعليم المنهجى، ولم يعْرف التاريخ قبل المسلمين «مدرسة» بالمعنى المفهوم لهذه الكلمة اليوم. مثل المدرسة النظامية وغيرها من المدارس التى أسسها الأمراء والسلاطين، وأهل الخير من المسلمين فى شتى العهود الإسلامية.

٤ – قامت حركة تأليف واسعة فى شتى العلوم. بدأت أول الأمر بالعلوم الدينية من حديث، وتفسير، وفقه، وأصول، وآداب، وزهد، وعقائد، وغيرها من كل ما يشرح الدين، ويوضح حقائقه أو يرد أباطيل خصومه.

وكانت هناك علوم أخرى لخدمة هذه العلوم، كعلوم اللغة والآداب والتاريخ ونحوها، ولهذا سموها العلوم الآلية، لأنها وسائل، والعلوم الدينية مقاصد.

ونشأت بعد ذلك علوم أخرى، جاءت نتيجة التلاقى الفكرى الذى بدأ بالترجمة من تراث الأمم الأخرى، واختلاط المسلمين بغيرهم من حاملى الثقافات المختلفة، فظهرت كتب فى الفلسفة، والطب، والفلك، والهندسة، والكيمياء والطبيعة، والنبات، والجغرافيا، والتصوف، والتربية وغيرها. وقد طور المسلمون ما نقلوه من هذه العلوم، وهذبوه وأضافوا إليه، وابتكروا علوماً جديدة، واكتشفوا حقائق لم تكن معروفة، وصححوا أوهاماً كانت شائعة، وسجلوا ذلك فى كتبهم التى بلغت مبلغًا هائلاً، والتى أفنوا فى تصنيفها أعمارهم، وإن ضاع – للأسف الشديد – أكثرها فى الكوارث، والمحن التى أصابت الأمة الإسلامية على يد التتار، والصليبيين، والفرنجة فى بغداد، والأندلس وغيرهما.

كانت العصور الوسطى عند الغربيين التى يسمونها «عصور الظلام» كانت بالنسبة للمسلمين عصور النور، والازدهار العلمى والحضارى.

كانت اللغة العربية هى اللغة الوحيدة فى العالم فى تلك القرون لتدوين العلم ونشره وتداوله.

كانت الجامعات الإسلامية فى الأندلس، وصقلية، وغيرها هى مراكز العلم والتعليم الراقى فى العالم، وكان طلاب العلم يفدون إليها من أنحاء أوربا، ليتتلمذوا على أساتذتها، ويقتبسوا من نورها.

كانت أسماء العلماء المسلمين أشهر الأسماء فى دنيا المعرفة والعلم، بل هى الأسماء الوحيدة التى يتحدث عنها أهل العلم فى المعاهد، والمجامع، والحلقات، مثل ابن رشد، والخوارزمى، ابن الهيثم، ابن حيان، الرازى، ابن سينا، الغزالى، البيرونى، الزهراوى، ابن النفيس، وغيرهم وغيرهم.

كانت المراجع العلمية الإسلامية هى المراجع العالمية فى تخصصاتها المختلفة، وظلت كذلك لعدة قرون، مثل «القانون» لابن سينا، و «الحاوى» للرازى، و«الكليات» لابن رشد، وكلها فى علم الطب. وكتاب الخوارزمى فى الجبر والمقابلة، وكتب ابن الهيثم فى البصريات. وغيرها.

لقد سبق العلماء والمفكرون والمسلمون الأصلاء إلى نقد منطق أرسطو الصورى القياسى، قبل أن ينتبه إلى ذلك فلاسفة الغرب بقرون، وكتب فى ذلك الإمام ابن تيمية كتابه الرائد المبتكر - بل كتابيه - فى نقض المنطق الأرسطى، الذى وصفه بأنه لا يحتاج إليه الذكى، ولا ينتفع به البليد.

٥ - قرر الفقهاء - على اختلاف مذاهبهم - فى ضوء الأدلة الشرعية جملة من الأحكام، يبدو بها مدى ما للعلم، وتعلمه، وتعليمه ونموه واستمراره من قيمة وأهمية فى نظر الشريعة الإسلامية.

من ذلك :

(أ) أن نفقة طالب العلم واجبة على أبيه الموسر، وإن كان الطالب قادراً على كسب قوته بتجارة، أو احتراف، أو غير ذلك، لأن الاشتغال بها يقطعه عن التفرغ لطلب العلم، فوجبت نفقته على أبيه كما تجب عليه لأولاده الصغار.

(ب) أن المتفرغ لطلب العلم يجوز له أن يأخذ من الزكاة، وإن كان قوياً على الكسب، على حين أن المتفرغ للعبادة ممن يقدر على الكسب لا يجوز له أن يأخذ منها، عملاً بحديث: «لا تحل الصدقة لغنى ولا لذى مرة سَوىّ» .

والفرق بينهما: أن العبادة لا تحتاج إلى تفرغ وانقطاع لها، ولا رهبانية فى الإسلام، بخلاف العلم الذى يحتاج إلى انقطاع له حتى يحسنه، كما أن عبادة المتعبد لنفسه، أما علم المتعلم فله وللمجتمع من حوله.

(جـ) أن كتب العلم لأهلها من علماء وطلاب تعتبر من الحوائج الأصلية لهم، فلا تدخل قيمتها فى اعتبار الغنى الموجب للزكاة، ولا بد أن يكون النصاب المملوك فاضلاً عنها.

كما أنها تعتبر من تمام الكفاية للعالم أو لطالب العلم، فلا بد أن توفر له من النفقة أو من الزكاة إذا أعطى من الزكاة، شأنها شأن المسكن والأثاث والملبس وآلة الاحتراف للمحترف.

وإنما اعتبر علماؤنا كتب العلم من الحوائج الأصلية، لأن الحاجة الأصلية عندهم ما يدفع الهلاك عن الإنسان تحقيقاً أو تقديراً. والجهل عندهم بمنزلة الهلاك. أى هو موت أدبى.

ومن هنا قرروا أيضاً: أنه لا يلزمه بيع كتبه ليتمكن من أداء فريضة الحج، إذا لم يكن يملك من المال ما يكفيه لنفقات السفر والإقامة هناك كما أن الغارم - المدين - الذى يحكم بإفلاسه لمصلحة الدائنين، تترك له كتبه إذا كان من أهل العلم.

(د) وما قرروه فى باب الزكاة كذلك: أن الأصل فى الزكاة ألا تنقل من إقليم إلى إقليم. ولكن فى حالات لاعتبارات معينة يجوز النقل، كما إذا نقلت لطالب علم محتاج.

كما اعتبر بعضهم طالب العلم داخلاً فى «سبيل الله» وبذلك اعتبروا طلب العلم ضرباً من الجهاد.

* * *

خـــاتمـــة

لقد بينت لنا الدراسةُ السابقة مجموعة من الحقائق المهمة أبرزها:

١ - أن السنة المحمدية نبع سخي، ومصدر ثرى، للأمة الإسلامية، دائمُ العطاء، متجددُ النفع، وليس ذلك فى الناحية التشريعية فقط، كما يقال دائماً: السنة هى المصدر الثانى للتشريع، بل هي مصدر أيضاً لإرشاد الفكر، وتوجيه السلوك، وبناء الحضارة الإنسانية على اقوى الدعائم.

ولذا تكون كل محاولة للنيل من السنة أو التشكيك فيها، ليست إلا محاولة لضرب بنيان الإسلام من قواعده، وتهديماً لمقومات الحياة الإسلامية الحقة، وينتهى إلى إنكار القرآن ذاته، إذ لا يفهم القرآن بدون السنة، لأنها هى البيان النظرى والعملى لكتاب الله، وقد كلف الله تعالى رسوله أن يبين للناس ما نزل إليهم. كما أن كل خدمة للسنة وتجلية لحقيقتها، هي فى النهاية خدمة للقرآن، والإسلام، والأمة الإسلامية بلا ريب.

٢ - أن العلم فى نظر القرآن والسنة ليس خصماً للدين، ولا ضداً للإيمان، ولم يعرف المجتمع الإسلامى ما عرفته مجتمعات أخرى من الصراع بين العلم والدين، ومن اعتبار العلم مقابلاً للإيمان. فالحقيقة أن العلم عندنا دين، والدين عندنا علم. والعلم فى حضارتنا دليل الإيمان، وإمام العمل، وباب السعادة فى الآخرة والأولى.

ولهذا قرر علماؤنا الكبار الاتصال بين الشريعة والحكمة، وموافقة صحيح المنقول لصريح المعقول.

٣ - أن الإسلام لا يضيق بالعلم التجريبى، بل يحترمه ويدعو إليه، ويصنع المناخ النفسي والفكرى الملائم لازدهاره. مثل: تكوين العقلية العلمية الموضوعية (التى ترفض اتباع الظن والهوى والتقليد.. الخ) وإشاعة التعلم والكتابة والقراءة، والحث على تعلم لغات الآخرين عند الحاجة، واستخدام أسلوب الإحصاء وأسلوب التخطيط لمواجهة احتمالات المستقبل. وإقرار مبدأ التجربة فى

شؤون الدنيا، والنزول عند رأى أهل الخبرة فى مجال خبرتهم واقتباس كل علم نافع من أهله. واحترام سنن الله تعالى فى الكون، والحملة على الأوهام والخرافات والمتاجرين بالكهانة والعرافة... الخ. وكل هذا أتاح للعقل أن يفكر، وللعالم أن يبحث، وللعلم أن يزدهر.

٤ - أن الإسلام - فى ضوء ما جاءت به السنة - لا يفصل بين العلم والأخلاق، فالعلم وإن كان مفضلاً فى ذاته، (هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون)، فهو يراد للعلم، والعلماء إنما يضيئون الحياة بالمعارف والأخلاق جميعاً. ومن هنا ركزت السنة على أخلاقيات العلم ومسئولية العلماء، حتى لا يكونوا كعلماء بنى إسرائيل الذين كانوا يأمرون الناس بالبر، وينسون أنفسهم، وهم يتلون الكتاب!

٥ - أن طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، والعلم المفروض هنا يعنى الحد الأدنى الذى لا بد منه، سواء كان علم الدين، أم علم الدنيا، والحد الأدنى لعلم الدنيا يتمثل فى محو الأمية التى أصبح بقاؤها وانتشارها فى العالم الإسلامى، وصمة عار فى جبين الأمة الإسلامية يجب أن تمحى. وعلى علماء المسلمين أن يعلنوا وجوب التخلص شرعاً من هذا المنكر الذى وصم أمتنا بالتخلف والعجز، فى مواجهة أمم الحضارة. ولن تؤدى أمتنا رسالتها، وتثبت وجودها وأستاذيتها، كما أمر الله، إلا بتعلم أبنائها جميعاً. وما لا يتم الواجب إلا به، فهو واجب.

٦ - إن الإسلام - فى ضوء ما فصلته السنة - قد وضع مبادئ وأسسا للتعلم والتعليم سبق بها أفضل ما يباهى به عصرنا ومفكروه من قيم تربوية، فى جانب التعلم أو التعليم. مثل مبدأ استمرار التعلم أو طلب العلم من المهد إلى اللحد.. ومبدأ التخصص فى أحد العلوم.. ومبدأ التوقير للمعلم.. والرفق بالمتعلم.. والتدرج فى التعليم.. ومراعاة الفروق.. والإشفاق على المخطىء وتشجيع المحسن.. واستخدام الوسائل المعينة، وغير ذلك.

٧ - إن هذه التوجيهات وتلك التعاليم، قد آتت أكلها، فى تكوين الفرد المسلم، والمجتمع المسلم، ونشأ فى ظلالها العقلُ المسلم المتميز، الذى يجمع بين

العلم واليقين، فهو يؤمن بعالم الغيب، ويسخر بعلمه عالم الشهادة. وبهذا ازدهرت العلومُ الكونية كما ازدهرت العلوم الدينية، وقامت نهضة علمية، تتلمذ عليها العالم كله لعدة قرون، وتركت آثاراً لازال بعضُها مكنونا إلى اليوم يحتاج إلى من يحييه ويجلو الصدأ عنه.

فهذا هو ديننا، وهذا هو علمنا، والحمد لله الذى هدانا لهذا، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

* * *

الفهرس

التعلّم وآدابه

التعليم ومبادئه وقيمه

* * *

رقم الإيداع ٩٢٢١ / ١٩٩٩

I.S.B.N. الترقيم الدولى

977 - 225 - 132 - 9

مؤلفات فضيلة الدكتور: يوسف عبد الله القرضاوى

● فى الفقه وأصوله

١ ـ الحلال والحرام فى الإسلام
٢ ـ فتاوى معاصرة ج١
٣ ـ فتاوى معاصرة ج٢
٤ ـ تيسير الفقه : فقه الصيام
٥ ـ الاجتهاد فى الشريعة الإسلامية.
٦ـ مدخل لدراسة الشريعة الإسلامية
٧ ـ من فقه الدولة فى الإسلام.
٨ ـ نحو فقه ميسر معاصر.
٩ ـ الفتوى بين الانضباط والتسيب.
١٠ ـ عوامل السعة والمرونة فى الشريعة الإسلامية.
١١ ـ الفقه الإسلامى بين الأصالة والتجديد.
١٢ ـ الاجتهاد المعاصر بين الانضباط والانفراط.

● فى الاقتصاد الإسلامى

١ ـ فقه الزكاة (جزءان).
٢ ـ مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام.
٣ ـ بيع المرابحة للآمر بالشراء.
٤ ـ فوائد البنوك هى الربا الحرام.
٥ ـ دور القيم والأخلاق فى الاقتصاد الإسلامى.

● فى علوم القرآن والسنة

١ ـ الصبر فى القرآن.
٢ ـ العقل والعلم فى القرآن الكريم
٣ ـ كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟
٤ ـ كيف نتعامل مع السنة النبوية؟
٥ ـ تفسير سورة الرعد؟
٦ ـ المدخل لدراسة السنة النبوية .
٧ـ المنتقى من الترغيب والترهيب (جزءان).
٨ ـ السنة مصدرا للمعرفة والحضارة

● عقائد الإسلام:

١ ـ وجود الله
٢ ـ حقيقة التوحيد

● فى تيسير فقه السلوك فى ضوء القرآن والسنة

١ ـ الحياة الربانية والعلم
٢ ـ النية والإخلاص
٣ ـ التوكل.
٤ ـ التوبة إلى الله .

● فى الدعوة والتربية:

١ ـ ثقافة الداعية.
٢ ـ التربية الإسلامية ومدرسة حسن البنا.
٣ ـ الإخوان المسلمون ٧٠ عاماً فى الدعوة والتربية
٤ ـ الرسول والعلم.
٥ ـ الوقت فى حياة المسلم.
٦ ـ رسالة الأزهر بين الأمس واليوم والغد

● فى ترشيد الصحوة والحركة الإسلامية

١ ـ الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربى والأسلامى.
٢ ـ أين الخلل.
٣ ـ أولويات الحركة الإسلامية فى المرحلة القادمة.
٤ ـ فى فقه الأولويات.
٥ ـ الإسلام والعلمانية وجهاً لوجه.
٦ ـ الثقافة العربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة.
٧ ـ ملامح المجتمع المسلم الذى ننشده.
٨ ـ غير المسلمين فى المجتمع الإسلامى.
٩ ـ شريعة الإسلام صالحة للتطبيق فى كل زمان ومكان
١٠ ـ الأمة الإسلامية حقيقة لاوهم.
١١ ـ الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف.
١٢ ـ الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم.

● سلسلة : حتمية الحل الإسلامى

١ ـ الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا.
٢ ـ الحل الإسلامى فريضة و ضرورة.
٣ ـ بينات الحل الإسلامى وشبهات العلمانيين والمتغربين.

● نحو وحدة فكرية للعاملين للإسلام

١ ـ شمول الإسلام.
٢ ـ المرجعية العليا فى الإسلام للقرآن والسنة
٣ ـ موقف الإسلام من الإلهام والكشف والرؤى ومن التمائم والكهانة والرقى
٤ ـ السياسة الشرعية فى ضوء نصوص الشريعة ومقاصدها .

● إسلاميات عامة

١ ـ الإيمان والحياة.
٢ ـ العبادة فى الإسلام
٣ ـ الخصائص العامة للإسلام.
٤ ـ مدخل لمعرفة الإسلام.
٥ ـ الإسلام حضارة الغد.
٦ ـ الناس والحق.
٧ ـ جيل النصر المنشود.
٨ ـ درس النكبة الثانية.
٩ ـ خطب الشيخ القرضاوى ج١ .
١٠ ـ خطب الشيخ القرضاوى ج٢ .
١١ ـ لقاءات ومحاورات حول قضايا الإسلام والعصر.
١٢ ـ قضايا معاصرة علي بساط البحث.
١٣ ـ قطوف دانية من الكتاب والسنة.

● شخصيات إسلامية

١ ـ الإمام الغزالى بين مادحيه وناقديه.
٢ ـ الشيخ الغزالى كما عرفته : رحلة نصف قرن.
٣ ـ نساء مؤمنات.

● فى الأدب والشعر

١ ـ نفحات ولفحات ـ ديوان شعر.
٢ ـ المسلمون قادمون ـ ديوان شعر.
٣ ـ يوسف الصديق ـ مسرحية شعرية.
٤ ـ عالم وطاغية ـ مسرحية تاريخية.

● رسائل ترشيد الصحوة

١ ـ الدين فى عصر العلم.
٢ ـ الإسلام والفن.
٣ ـ النقاب للمرأة بين القول ببدعيته والقول بوجوبه.
٤ ـ مركز المرأة فى الحياة الإسلامية.
٥ ـ فتاوى للمرأة المسلمة.
٦ ـ جريمة الردة وعقوبة المرتد فى ضوء القرآن والسنة.
٧ ـ الأقليات الدينية والحل الإسلامى.
٨ ـ المبشرات بانتصار الإسلام.
٩ ـ مستقبل الأصولية الإسلامية .
١٠ ـ القدس قضية كل مسلم .
١١ ـ ظاهرة الغلو فى التكفير .

● محاضرات الدكتور القرضاوى :

١ ـ لماذا الإسلام ؟
٢ ـ الإسلام الذى ندعو إليه .
٣ ـ واجب الشباب المسلم .
٤ ـ مسلمة الغد .
٥ ـ الصحوة الإسلامية بين ...
٦ ـ قيمة الإنسان وغاية ...
٧ ـ لكى تنجح مؤسسة ... المعاصر .
٨ ـ التربية عند الإمام ...
٩ ـ مع المصطفى فى ...
١٠ ـ السنة والبدعة .
١١ ـ زواج المسيار ـ ...
١٢ـ الضوابط الشرعية ...
١٣ـ موقف الإسلام العقدى من كفر اليهود والنصارى